

فنّ الجسور

الإنسان ابن الجسور

ميشيل سير

ترجمة: عبدالسلام بنعبدالعالي

فن الجسور

الكتاب: فن الجسور - الإنسان ابنُ الجسور
تأليف: ميشيل سير
ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي
الطبعة الأولى: 2021

978-603-91589-9-8
رقم الإيداع: 1442/7139

هذا الكتاب ترجمة لـ:
Michel Serres
L'art des ponts
Homo pontifex

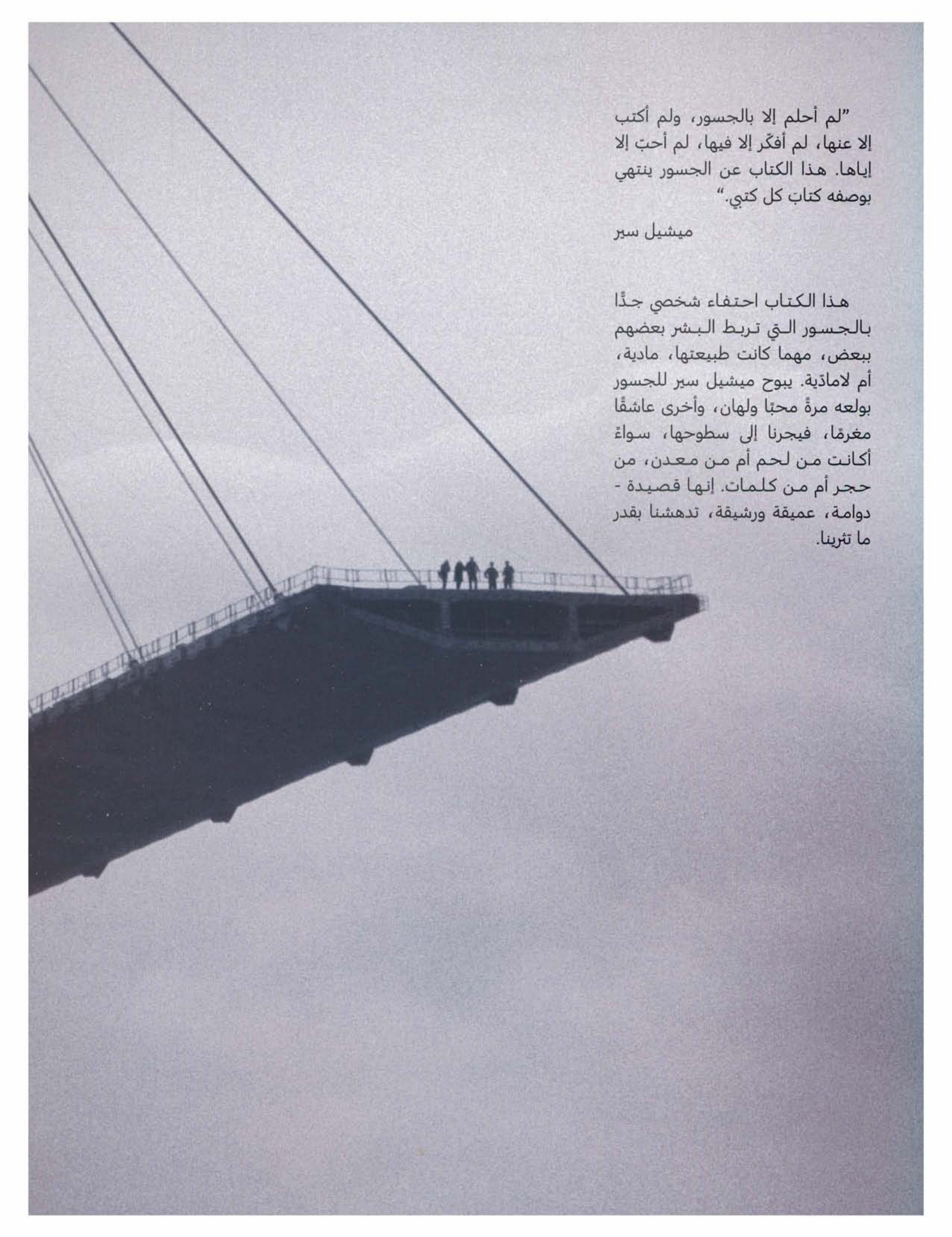


الناشر:
دار معنى للنشر و التوزيع









"لم أحلم إلا بالجسور، ولم أكتب إلا عنها، لم أفكّر إلا فيها، لم أحبّ إلا إياها. هذا الكتاب عن الجسور ينتهي بوصفه كتاب كل كتبي."

ميشيل سير

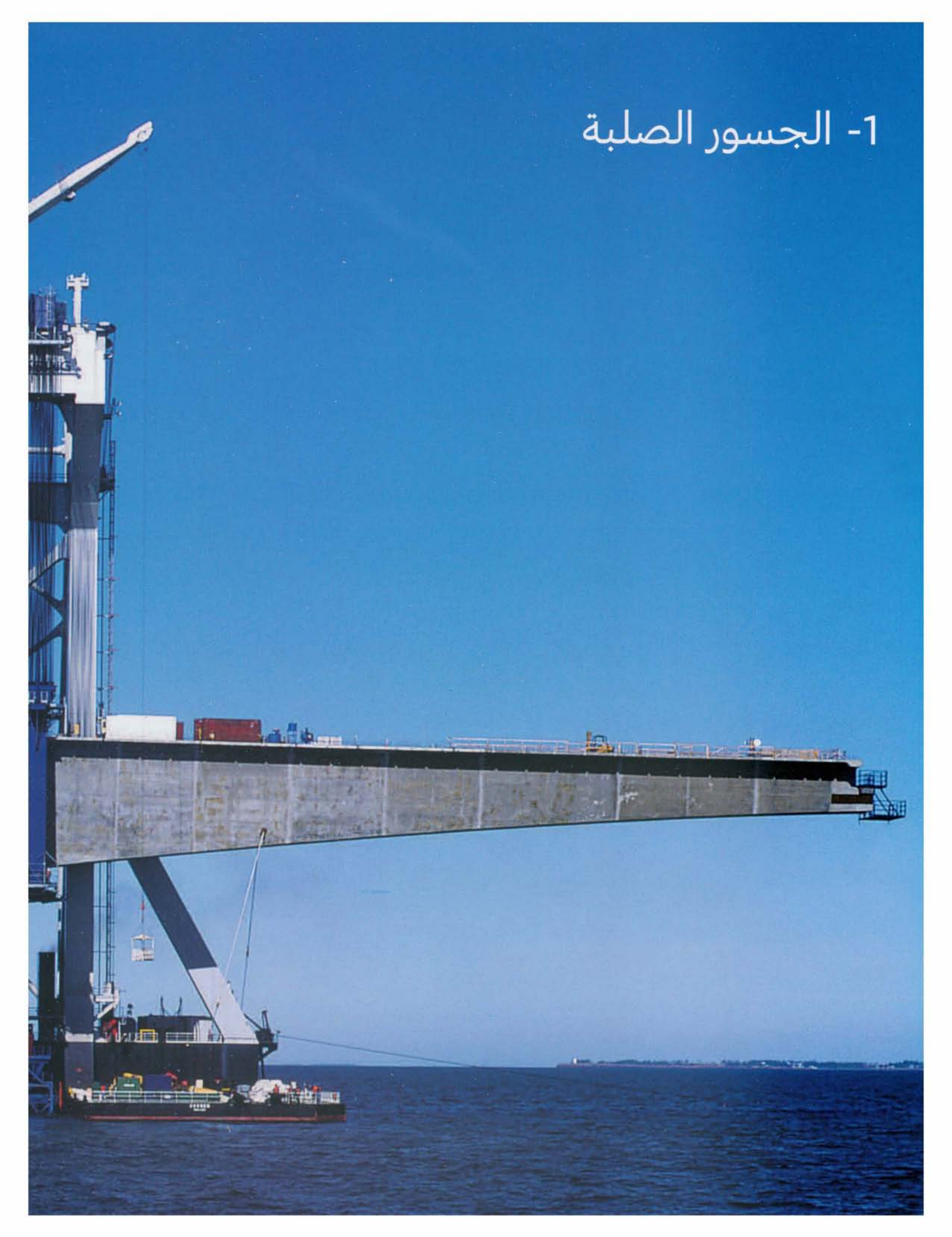
هذا الكتاب احتفاء شخصي جدًا بالجسور التي تربط البشر بعضهم ببعض، مهما كانت طبيعتها، مادية، أم لامادّية. يبوح ميشيل سير للجسور بولعه مرةً محبًا ولهان، وأخرى عاشقًا مغرمًا، فيجرنا إلى سطوحها، سواءً أكانت من لحم أم من معدن، من حجر أم من كلمات. إنها قصيدة - دوامة، عميقة ورشيقة، تدهشنا بقدر ما تثرينا.

الفهرست

إهداء

إلى أسرتي الأولى، وإلى الجماعة التي وُلدت في أحضانها، ملّاحي النهر، ومستعملي آلات الرفع، إلى الجرافين وورثتهم، أهدي هذه الخلاصة، هذا الخليط من المياه والجُمل والحجر، وكذلك إلى إخوتي في البؤس الذين يعيشون خاملين تحت الجسور.

1- الجسور الصلبة





تَمثُّـــــل

زرت جسر الجار Le Gard، وأنا صغير السن، على الدراجة، مثلما كان جان جاك روسو وآخرون قد فعلوا على الأقدام. كان يظهر عند انعراج الطريق. مهملًا مهجورًا، لم يعد يصلح لشيء، لا يصلُح قناةً، ولا طريقًا، ولا قطعةً في متحفٍ. كانت قطعٌ ضخمةٌ تنفصل عنه في بعض الأحيان، فتتساقط كشعر رأسٍ كَساه الشيب. كان الوحش العتيق يرقد في عرض النهر. وكانت الطيور والحمام والصقور تبني أعشاشها تحت أقواسه فتطير على جانبيه. وكنّا نحنُ نذهب لنرتمي في النهر؛ فنخلد إلى النّوم على ضفته بجانب الدراجة، ونسمع اهتزاز الريح بين كوماته المتعددة. كنا ننظر إليه كأنه شخص غمرته السنون. قليلٌ من الناس من كان يغامر بالمجيء إلى هذا المكان الخالي الوعر كثير الأحجار، الذي يغمره صمتٌ يكسّره صرير الحشرات. أحجارُ الجسر المنفصل انتهى بها المطافُ إلى أن تُحاكي صخور المشهد.
كان الجسر قد انغمس في ديمومة الطبيعة متناسيًا التقنية والثقافة. لم يكن روسو محقًّا؛ فالنسيان قد غمر أوسمة الشرف، والرومان وأحوالهم، وغزو منطقة الغال، وذكرى المعارك، كي لا يتبقّى إلا هيكلٌ عظميٌ يربط ضفتين خشّبتهما الجيولوجيا. كان الجسر يعملُ عـدّادًا يقيسُ سن صِغري اللاتاريخية؛ كنت قد ودعتُ عشر مذابح، وكنّا بحاجة إلى النسيان.

لكي تقيم سدًا في الوادي أو لكي تجسره، ابنِ جدارًا كثيفًا عبره. كم من الأطنان سيزن، وكم من الأنقاض سينحي، كم سيُكلف من مواد أولية، ومن يدٍ عاملة، ومن ساعات للعمل، ومن أموال؟ سيكون ذلك بثمن باهظ. لبناء أهرام مصر، أو جدار الصين، ينبغي أن يكون أمامك ما يكفي من الزمن، وسلطة قوية لحشد عددٍ كبيرٍ من الأفراد الخاضعين. من الأفضل توفير الجهود والأحجار والبشر، والزمن، ووزن الجسر وثمنه. لنقم بتخفيفه إذن. الحل الأمثل يقتضي أن نُقيم فيه ثقوبًا، وهي كلها هنا على شكل أنصاف دوائر على خط واحد. يرجع استمرار تاريخ الجسور إلى عدد هذه الثقوب وإلى أبعادها.

عدت إلى الجسر شيخًا الصيفَ الماضي على متن سيارة. كان عليّ أن أختار على وجه السرعة موقفًا للسيارة من بين العديد من المواقف، وأن أسلك الطريق الإجباري الوحيدَ نحو بناء ضخم، جيّد التهيئة، قد أعدّ للمعلومات والوثائق وقاعات العرض السينمائي. حول الجسر، وُضِعت علاماتُ تأشيرٍ تمنع نهج بعض المسالك، فكنتَ مجبرًا على المرور من طريق بعينه. كان هناك عددٌ كبيرٌ من الزوار، وكانت صفوف المنتظرين كثيرة، كان هناك دليل صوتيّ يرشدك، كأنّما في برج بابل، كانت الجماهير متعددة اللغات وهي تنادي بعضها تحدث جلبةً من النداءات والصيحات والشكوى والتعجب والحماس والإعجاب، مما كان يغطي صرير الحشرات، ويجفل الطيور. كان المرشدون يبالغون في إلقاء الخطب أمام جماعات تبدي إعجابها بهم. كانت القناة قد أصبحت جميلة في قدمها، فكانت تنتزع نفسها من المشهد وتبتعد عنه كي تطل على الجمهور، منتصبة كأنها ديكور وشاشة على مسرح المشهد.

عندما كنت صغير السن، كنت أغوص في نومها المعدنيّ الصّلب، وراحتها العميقة. حيًّا أصبحتُ أقتسم معها حياتها الثانية القديمة. أمّا وقد صرت شيخًا، فإني صرت أحيا حياتَها.



عما قريب، سيكون هناك كمّ أقل من الامتلاء، وأكثر ما يمكن من الفراغات، إلى حد أن تتمكنوا من رؤية الجهة الأخرى عبر الشفافية. الآن لا ترون إلا القناة، وغدًا ستخمنون وجودها بالكاد. التاريخ الكامل لجميع هذه التقنيات يتوقف على تخفيفٍ من هذا النوع. وهي تتلاشى حتى تختفي. على سبيل المثال: لنأخذ تبادل القيم، لقد ابتدأ بالتبادل الثقيل لرؤوس الماشية، التي ترجمت في اللاتينية إلى رءوس capital ونقود pécuniaire، وفيما بعد تم التبادل عن طريق أكياس الذهب وصناديق الفضة، ثم ظهرت الشيكات، والمسودات فالأوراق النقدية، لكي تنتهي اليوم إلى علامات إلكترونية سريعة وطائرة. هذا الميل نحو الناعم يمتد إلى الثروات الثابتة والمتنقلة، والأدوات والآلات، والأجهزة التي كانت قديمًا صلبة وضخمة وثقيلة الوزن، فأصبحت الآن صغيرة الحجم، حيوية ومتحركة مثل البكتيريا. سعى الضخم نحو المصغر، والثقيل نحو الخفيف، والبطيء نحو الحيوي، والصلب نحو الناعم. أيهما ينبغي أن نُفضّل: جسر الجار الذي يحمل شبكةً ضعيفةً من الماء، أم شبكتنا العنكبوتية اللامرئية الهشة، التي تجسر لكل منا ألف موسوعة؟



هنا، ومنذ سنين، كان يُستهلك في سعادةٍ كبيرةٍ، أكثر وجبات الطعام طولًا وفخامة واكتظاظًا عبر التاريخ. عندما انتهت أشغال العمل الذي يتخطى بحر الباي، امتدادًا لنهر التاج غير البعيد عن لشبونة في البرتغال سنة 1998، احتفل العمال والمهندسون والممولون والمقاولون والمحاسبون.. بنهاية هذا الإنجاز في حفلٍ كبيرٍ امتدت موائده اثني عشر كيلومترًا على طول الطريق. حينئذ، وحينئذ فقط، يغدو العمل الفني، في نظري، جسرًا حقيقيًا، وذلك لأن الموائد تقيم بين الحاضرين العلائق نفسها التي تقيمها الأقواس والأعمدة بين الضفتين.



تعيش مدينةُ مسقط رأسي، آجان، بين جسرين؛

الجسر-القناة، الذي اشتهر قديمًا بفضل طريقه النادر للنقل، والجسر الحجري الذي ولدتُ على ضفافه. هناك ممر ضيق ثالث ينظّمُ الفضاء بينهما، يُغير من طبيعة المرور ما دام لا يحمل إلا الراجلين، كما لو أنه تحت الأول وفوقه لا يمرّ إلا الماء. ليس لآجان إلا جسر واحد بثلاثة شخوص.

في بعض الأحيان كان لخطواتنا صدئ مع الحبال التي تشدُّ سطح جسر الممر. كانت أجسادنا تهتز للعلائق الرائعة التي تجمعُ بين الإيقاعات والأعداد، بين وجودنا والعالم، بين خطر الانهيار والطيران.

دُوار خفيف يصاحب من يمر فوق نهر الجارون وعلى الحافة من القناة، بين ماءَين؛ الماء الطبيعي للنهر في الأسفل، والماء المصفى للتقنية في الأعلى. هذه النشوة توحي له بفكرة أنه في لحمه الأسود تجأر هذه الطبيعة التلقائية التي تُحلق فوقها ثقافته البشرية الناعمة.



جسوري

لطالما رغبت في بناء الجسور Ponts، ناسيًا نفوري من الأساقفة Pontifes.



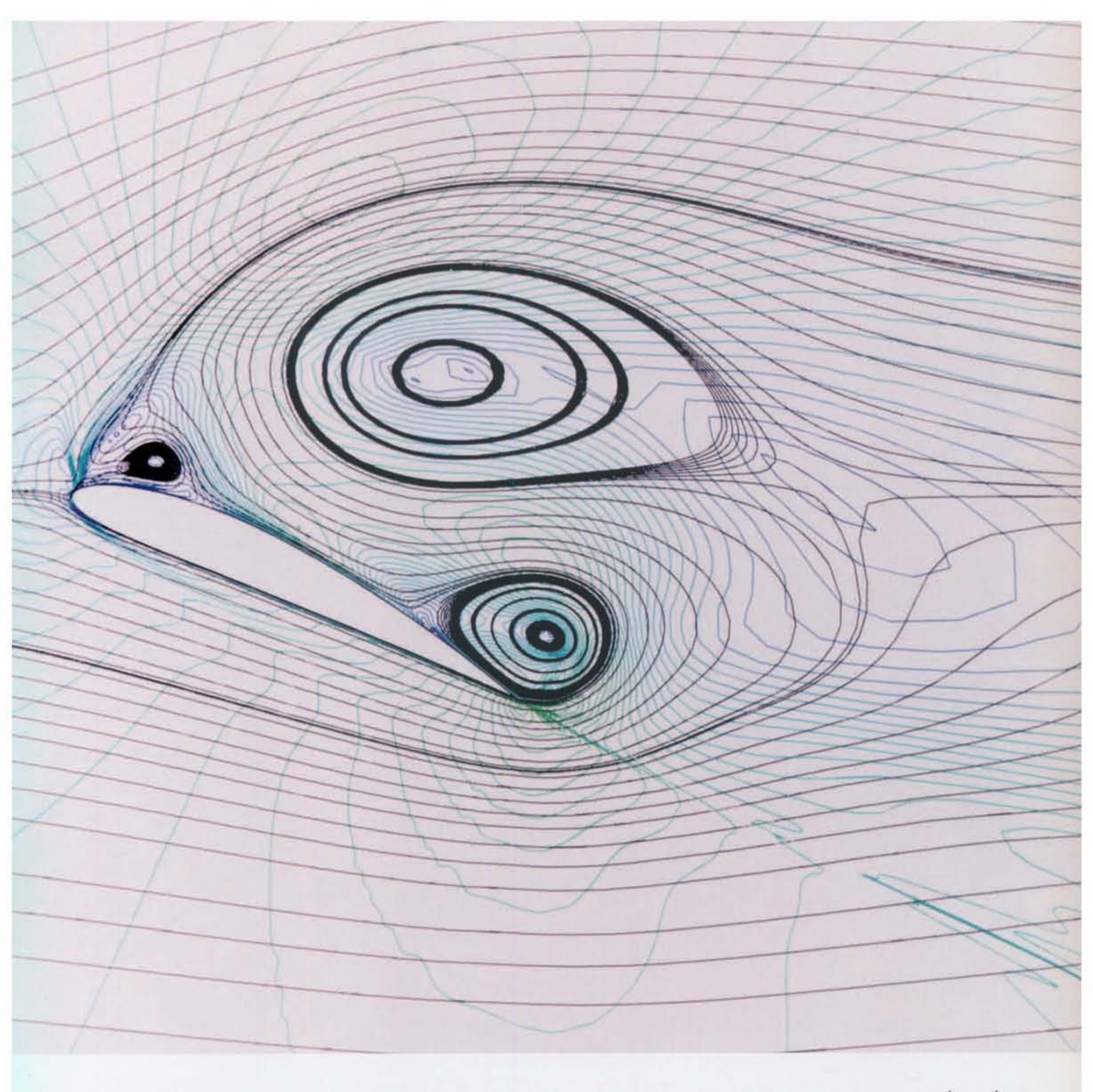
«منظورًا» إليه من الجسر

تحت الجسر الحجري يجري نهر الجارون، حكايات حبّ القديم. تحت جسور العالم جميعها، تجري السيول والسواقي والأنهار، وتحت جسر ميرابو يجري نهر السين من أجل حكايات حبّ أخرى شهيرةٍ للغاية. إنه جالس في جمعٍ على اليابسة على سطح الجسر، ها هو يتحكّم في عواطفه، بإمكانه أن ينظم الأشعار من أجل الأحفاد. هل يرى حقًّا النهر أسفل؟ وهل يدور رأسه مع دوخة دواماته؟ هل يحسُّ بجسده مجرورًا مع التيار المعاكس؟ هل أبحر ذات مرة؟

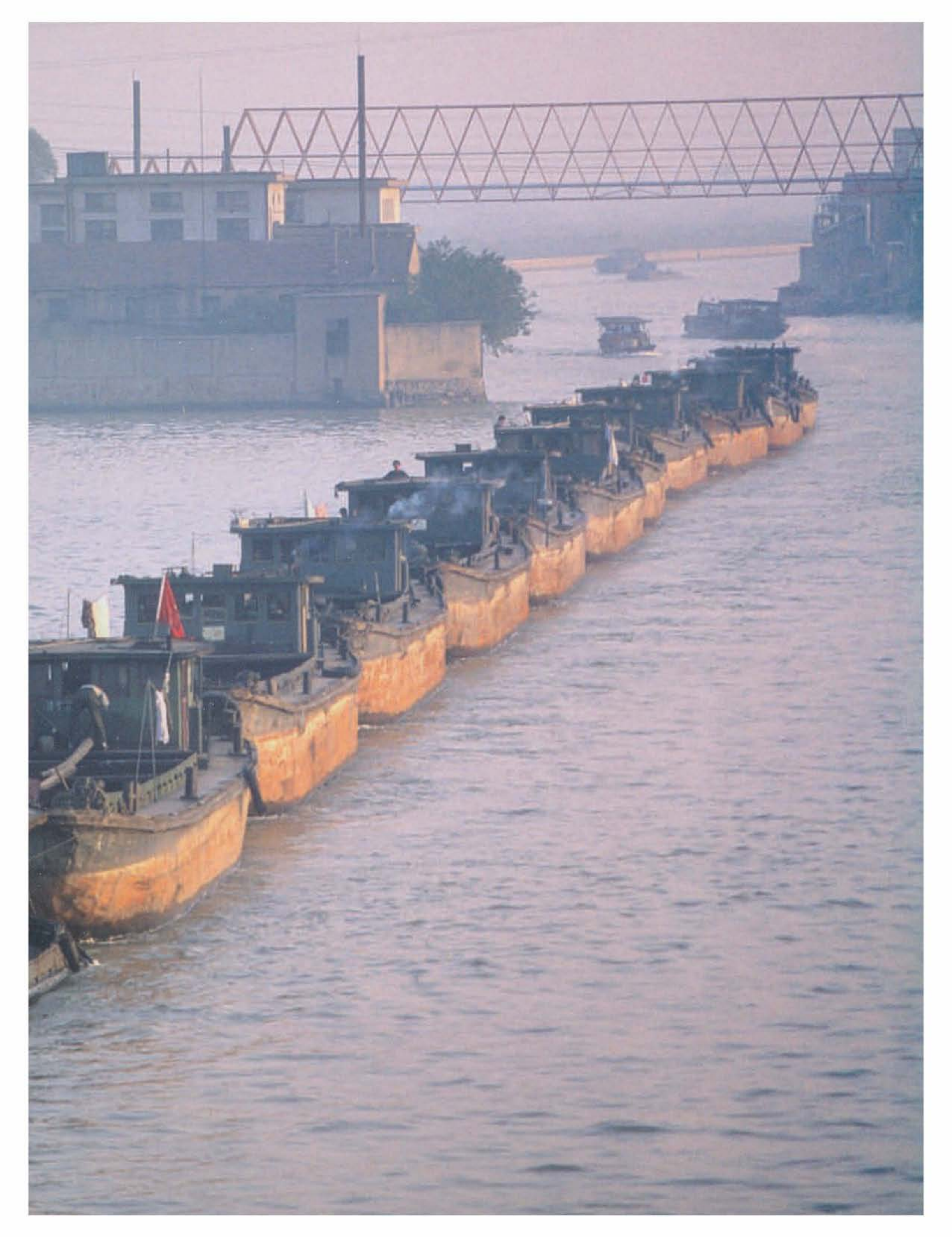
منغمسًا في الوحل، بالكاد تخرجُ الجبهة من الماء، مسمرًا تحت الأكوام، يتقاذفه الهيجان؛ فيؤخذ لحظةً نحو المنبع، وفجأة في اتجاه مصبّه، بعنف، عارفًا أن حياته متوقفةٌ على الطريقة التي **يتدبّر بها، كل لحظةٍ، ظروف سباحته،**
فهل يسعفُ الحظُّ العاشقَ الولهانَ، بأن يدبّر انفعالاته من أعلى، بتأليف أغانٍ عاطفية؟
منذ مئة عام، وأنا أنتظر أن يرتميَ الشاعر أبولينير بسخاءٍ من أعلى موقعه كي يعيش بعمقٍ حكايات حُبّه الصاخبة. حينما كان ينشد، وعيناه مرفوعتان إلى **أعلى تجري**: النجدة! إنها تجري في الممر الصاخب للزمن، من خلال الإيقاع المتقطع للمعاناة والنشوة، والخيانات والعودة والقسم والأكاذيب والغيرة والشكوك. لقد خَدشت صخور النهر وأحجاره كُلى الواقع الشقي، فهل ستتكسر عظامه؟ امتلأت رئتاه وحنجرته بالرمال، فهل سيختنق؟ تعكّر صفاء عينيه بالمياه القذرة، فهل سيصيبه العمى؟ يصارع كتفاه وفخداه امتصاص الحفر التي تجذبه نحو الأعماق، فهل سيغرق...؟ آه! يا ليت ربان زورق يمرّ من هنا كي يشدّه إلى زورقه.

هل يحوز الملاح على هذه الرؤية من علٍ؟ كلا، لأنه ملزمٌ هو أيضًا بتدبير اضطرابات المرور تحت الجسور. فهو لا يعبر قوس ميرابو مثلما يعبر قوس ماري، أو كما يعبر لوي-فيليب، كل تدفُّقٍ بين كومتين يظهر التواءاته وخداعاته الخاصة، ودحزه وتعنُّته وندَمه. لقد أبحرتُ في المياه العذبة بما يكفي لأتعجب من أنّ لغتي تتحدث عن الجسور بصيغة المذكر، فهي **أيضًا لم تُبحر أبدًا أبدًا كما يقول النشيد! يقتحم قيدومُ** السفينة قوس الجسر، ويُحدث صوتًا قريبًا من الشخير، يجذبُ يسارًا ويمينًا، كما لو أن سرعة الماء الحيّ، وكما لو أن صوت القبو يجذبانه ويجرانه، يتقبلانه ويبعدانه ويرفضانه، لكنهما يرغبان فيه. يتغير السائل حسب مستوى ماء النهر، وحسب مدّ الفترة وجزرها، والطقس الذي يسود النهار، والأهواء الحادة للسيدة **السين** *la Seine*. يا للملذات العسيرة!

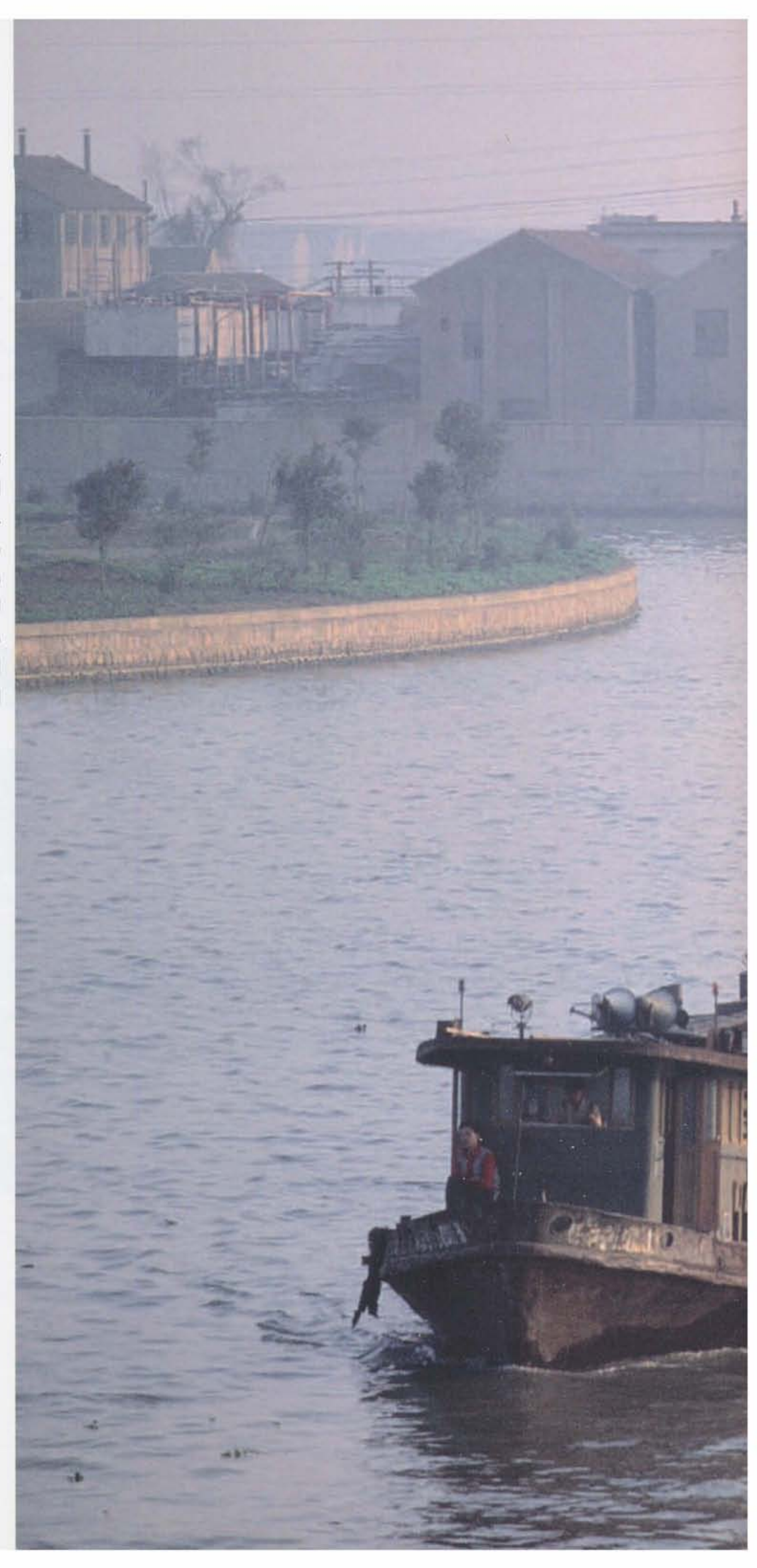
أيها السباحون، والبحارة، الذكور المساكين، الرجال السعداء، أنتم ترتمون في أوديتكم المؤنثة، وأولئك الذين يتحدثون عن الحب يراقبونكم ببرودة من أعلى جسرهم. بما أنهم لم يبحروا قط، فهل سيعلمون؟



مثل أطفال-أسماك، كنا نعبر سباحة، ضاحكين، الدوامات التي
يحملها مجرى الجارون عند مصب السدود والجسور. كان المجرى
يجرنا، وكنا نستسلم لذلك. في هذه الاضطرابات، تعلمت
أن هناك طريقتين للسباحة، طريقة الأبطال المنتصرين
التي يمارسونها في المسابح حيث المياه راكدة، والطريقة
الطبيعية التي تتأقلم مع هذا الصخب ومع
الأعمدة. إنها مثل الاضطرابات التي يخلقها
جناح طائرة منحنية خمسة وعشرين
درجة على تيار هوائي.



تحت جسور الصين -هنا في القناة الكبيرة- أو في أوروبا العجوز، بل وحتى على الأنهار، كما في البحار، تسحب قاطراتٌ خلفها عشر أو خمس عشرة ناقلة محملة ومتشابهة، تتبع قطارًا. لقد بدّلنا كل هذا. لم نعد نجرّ ولا نسحب، لقد قررنا أن ندفع. تصطف القوارب على خط مستقيم أمام الدافع.



ربما بسبب تغيّرات المناخ، وأيضًا، بلا ريب، بسبب شدّة ضخّ المياه لريّ الذُّرة، فإنّ الجفاف قد حوّل نهر الجارون إلى أدنى مستوى ساقيةٍ بخيلة. رأيته سابقًا، في أثناء الصيف، وكانت مياهه من العلوّ إلى حدّ أن الصديق لوبيز، مساعد الجزّاف، قد راهن، مقابل بعض قنينات نبيذ، بأن يرتمي من أعلى سطح الجسر. كان هناك جمهور غفير يصفق لإنجازه الذي غمرني إعجابًا، حتى ولو أن حماس المشاهدين، ساعتين فيما بعد، قد انتهى بأن رمى لوبيز نفسه مرة أخرى، ليس في الماء هذه المرة، وإنما في النبيذ، وتحت طاولات المقهى المجاور.

معبر



كل جسمٍ بشريٍّ مغمورٍ في سائلٍ يرى نفسه أقرب إلى الصلابة منه إلى السيولة. الغواص ديفيد هوكني David Hockney 1978.

الجسر-القناة

لم تكن الدّواعي التزيُّنية وحدها كافيةً لتجعل الأحواض والنافورات والشلالات والينابيع الصخرية، تنال إعجاب الأثرياء الإنجليز، أو النبلاء الإيطاليين أو الفرنسيين، أو المارادجانات الهنود، أو الأباطرة الكوريين أو اليابانيين أو الصينيين... فهم لم يكونوا لينشروها في الحقول والحدائق حول محال إقامتهم بهدف وحيد هو جمالية راقية، وذلك لأن الأثقال والتيارات والتدفقات السائلة كانت توفّر وقتها واحدة من الطاقات النادرة المعروفة خارج سواعد البشر أو الجرّ الحيواني. هذه الحركات السائلة التي تبدو اليوم نوعًا من الترف الفُرجويّ، لم ير فيها أسلافنا إلا نفعها المادي. فلكي يُحرّكوا شفارات المطاحن ذات الاستعمالات المتعددة، فإنهم كانوا يعملون على استحداث مستويات مختلفة لجريان السوائل؛ النهرُ إذا وُجّه جريان مياهه، فإنه كان يسمح بنقل المواد الثقيلة، ومنبع الماء إذا ما ضُبط، فإنه يغدو بمثابة قوى. كان مهندسٌ مدنيّ يولي اهتمامه حتى القرن الثامن عشر، لجريان المياه وللسدود أكثر مما يوليها للتسخين، فكان يمارس مهنته على طريقة بيليدور Bélidor، مؤلف كتاب **موجز درس في الهندسة العسكرية والمدنية والمائية** سنة 1720، أو لنقل بالأحرى على طريقة ريكي Riquet، المهندس العجيب لقناة الوسط. لم تكن هناك نار بعد، اللهم إلا في المدافئ.

بما أن ثورة الطاقات الحارقة، من فحم وبنزين وكهرباء ونووي حديثةُ العهد، فإنها قد أنستنا الطاقات القديمة، المتولّدة عن المياه والرياح. إننا لم نعُد نذكُر العالم من غير حرارة، ذلك العالم الذي تعوّد عليه آباؤنا، العالم الصامت من غير دخان. إننا ناسون حقًّا، لكن أيضًا صُم، لشدة ما تُحدثه الحرارة من زفير واهتزاز وصفير. تشبهُ الضوضاءُ الباردةُ لسقوطِ المياهِ الصخبَ العميقَ الأبيضَ الذي تُسْكِنُ سحابتُه السمعَ، بين الصمتِ والصوت. أما عالمنا الساخن، فإنه يرنّ ويطن ويصمّ أسماعنا بإشارات لا معنى لها.

المهندس بالنسبة لنا، يعالج قوىً نابعة من موقد، في حين أن الهندسة المائية هي التي كانت تسود أوروبا قبل أن تجيء الآلات النارية. عندما كان قاربٌ مسطحٌ يعبر نهر الجارون نحو مصبّه، مشدودًا بالخيول في أسفل الجسر-القناة، حين كان زورقٌ معلق في الأعلى على الجانب، وبشكل عمودي، مشدودًا بالحبال، يعبرُ من الضفة اليسرى إلى اليمنى، كان الزمن يبدو أنه يعود إلى قرن الأنوار حينما لم يكن ألفُ موقدٍ متنوع قد حرق العالم بعد. كان العمل والنفس يسيران حينها مع التيار.

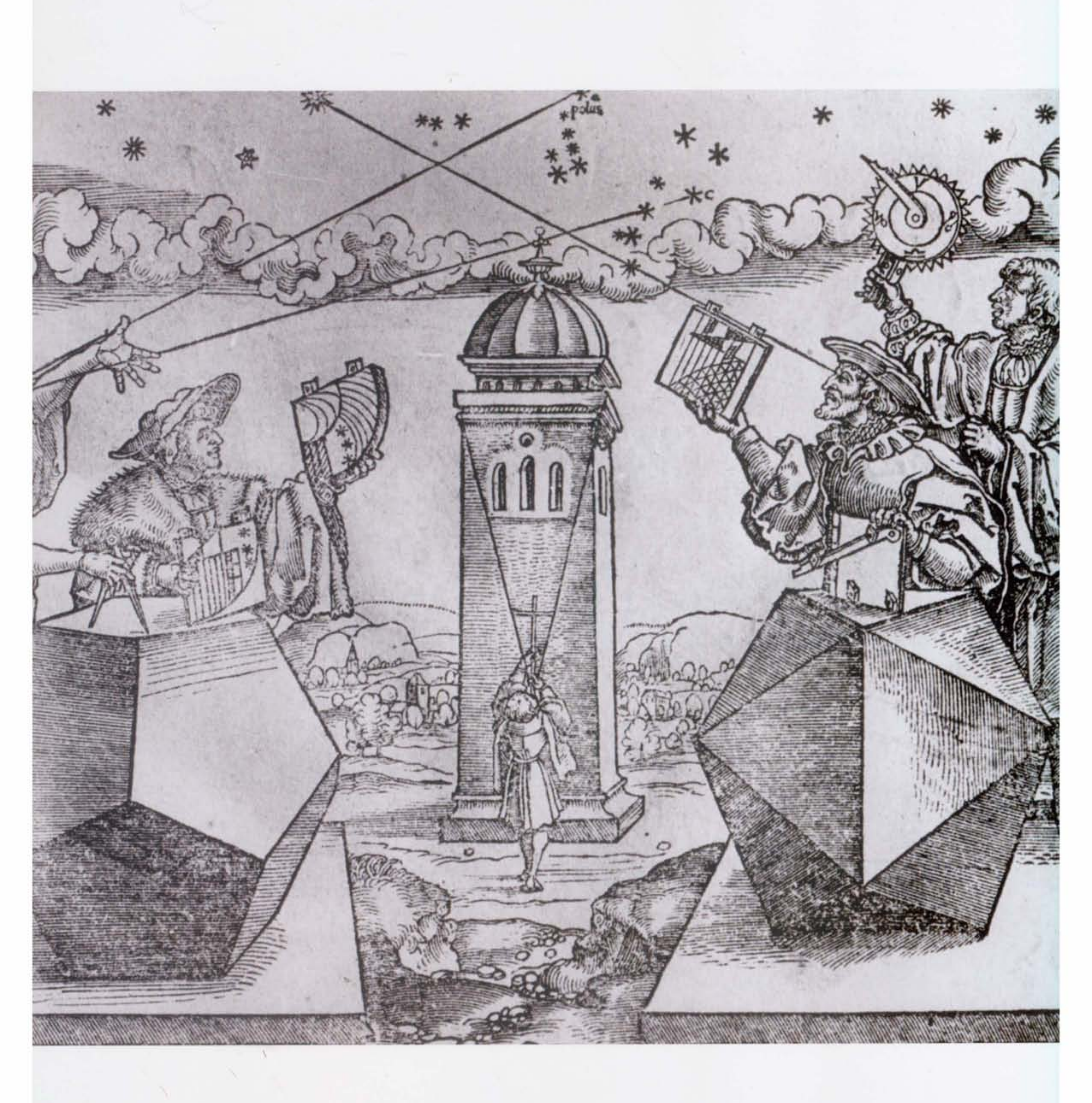
كان جدّي مسؤولًا عن تنقُّل البواخر وحركاتها، وكان أبي ملاحًا، وهكذا كانا من أوائل من ولجوا الحداثة الساخنة؛ الأوّل ترك جرّ السفن بالحبال من أجل الزوارق ذات المحركات، فلم يعُد يدير المعول لفتح الأبواب أو إفراغ البركة، أما الآخر، فقد عرف في بداياته عجلة نقل الرمال، فاشتهر في مدينته بكونه قد اشترى أولى الشاحنات. ما زلت أذكر عجلاتها المغلّفة، من دون إطار مطاطي، مثلما أذكر نقل حركاتها عبر السلاسل، كما الأمر بالنسبة للدراجة. كنا ما نزال مائيين، فارتمينا في المواقد المعاصرة. منذ مدة وأنا أعيش على النار والإشارات، ولكن، بما أنني ذو أصل أكيتاني، فإنني ما زلت مائيًا.

أخلد إلى الحلم: ما المادة وما الشكل الذي كان هذا الجسر-القناة الآخر سيتخذهما، هذا العمل الفني الغريب الذي كان سيحمل العناصر الأربعة؛ العنصرين الأولين لتقاليدي العتيقة؛ التراب الفلاحي والزمرد البحري، إضافة إلى عنصري حياتي العادية، الهواء الطاهر ونارُ الجحيم اللذين جرّاني إلى عشق الكتابة؟ لطالما تمنيت بناء معابر وجسور: جسور بين المعرفة والسرد، بين الفلسفة والفن، بين العلوم الصلبة والعلوم الناعمة، بين العقل والدين، بين علم تاريخ الإنسان والنزعة الإنسانية... حب حارق، منبع أفكار باردة من شدة وهجها، تسيلُ دموعًا، وتجفّ زهدًا، صلبٌ كحجرة هشة، لكن من السيولة بحيث يقاوم كل شيء، هل أتبين الآن إلى ماذا يشبه بناءُ الجسور أو هذا المزج بين العناصر الأربعة التي تُشكّل العالم؟

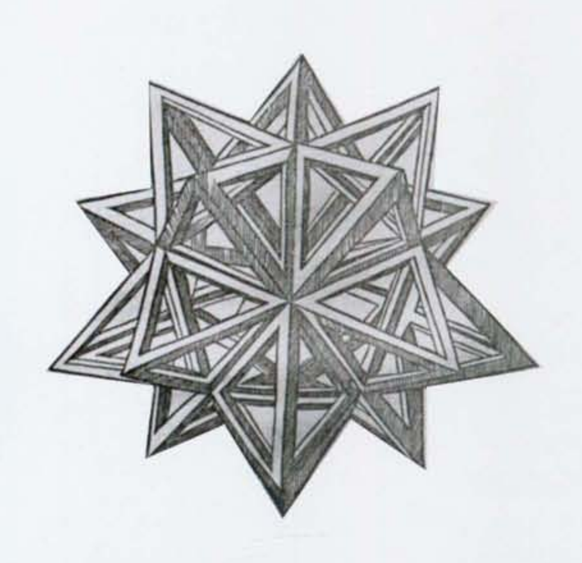
إنه يشبه جسدي، ونفسي، وحكايات عشقي، يشبهني أنا.

كيف نصمم جسرًا يربط مستويين مختلفين؟ بدل بنائه بالصلب، أقيموا بالأحرى شلالين أو سقوطين للمياه. وهكذا سيعمل المصعد والبركة على رفع القارب أو إنزاله عدة أمتار. ينبثق هاويس مثل جسرٍ عمودي سائل.
حوالي سنة 1900




polus

البيلوبونيز والعناصر الأربعة



عندما كنت أزور، معجبًا، الجسرَ الذي كان يربط يونان بالبيلوبونيز، ولم يكن بناؤه قد اكتمل بعد، كنت أتعجّب من كون المهندس قد نسي أن ينحت أعمدته وفق الأجسام الصلبة الخمسة التي تصورها أفلاطون، وبالفعل فقد بيّن هذا الأخير، باكرًا جدًا، أنه لا يوجد في عالم الهندسة، إلا خمسة مُضلعات منتظمة، كي يحلُم فيما بعدُ بكونٍ كل منها يبني عنصرًا، في الواقع الفعلي للأشياء. تصوّروا مدى الانبهار: أن تصل إلى أثينا على الباخرة، فيستقبلك التراب، والهواء، والنار، والعالم والماء!

الأماكن هنا تعجّ بالمدن المنغمرة. لا تكفّ الزلازل والتسونامي عن ضرب الشواطئ. مواجهةً لخطر الانهيار بسبب التكنولوجيا العالية، فإن جسر ريون-أنتيريون، يُبدي تحديًا مثيرًا للإعجاب ضد عناصر أقل منه روعة. لكنه، فضلًا عن ذلك، استقر فوق مكعبٍ وهرم وعلى ثلاثة مضلعات أخرى ذات أسماء أكثر تعقيدًا.
لقد كان في طمأنينة الأرض، وفي ثبات الماء والهواء، وحيوية النار وقدرتها على توليد الطاقات والإضاءة، وكان في اتساع العالم. إنه احتفال العيون، وومضات الذهن، وتأسيس رياضيات مجردة، إنه انتصار لليونان أمّ العلوم والفنون، فلماذا تَنسى الهندسة المدنية اليوم هذه الأصول للهندسة؟

ما الأهداف الصعبة التي يتعذر علينا الوصول إليها؟ لا نبلغ بيدنا ما يكمن وراء الماء، ولا ما يحلق في الأعالي، نرى النجوم من غير القدرة على لمسها. كيف نعبُر المسافة التي تفصلنا عن الرصيف الأمامي أو عن الكواكب؟ مهما ادعيتَ من خبرةٍ وتمرُّسٍ بالواقع، فلا شيء يُمكّنك من قياس هذه الأماكن البعيدة إلا المجرد. يزعم أوغست كونت أن اكتشاف الهندسة ترتب عن السعي إلى الوصول إلى هدف لا يمكن بلوغه. مدّ سحرة عصر النهضة، ملوحين بالإسطرلابات وبأجداد آلة قياس ارتفاع الأجرام، مدوا جسورًا هندسية نحو السماء. بفضلهم، هل انتقلت الجسور نحو التجريد، أم أن التجريد هو الذي جسّر الواقع؟
الصورة جانبه، لمجهول وهي تعود إلى القرن السادس عشر. والصورة أعلاه ليوناردو دا فينشي، 1509.

جسر في خفّة نسيج العنكبوت

بالنسبة لحجمها، فإن صديقاتنا العناكب تفرز بعض أشد الخيوط متانة ومقاومة في الكون.

لماذا لا نستفيد
من هذه التحف،
ونعمل، مثلما نعمل منذ
آلاف السنين، مع التكنولوجيا
الحيوية، مع حرير بعض الديدان؟ بكل
أسف، فإن جمع العديد من هذه المفصليات لحثها
أن تعمل من أجلنا، مثل النحل، قد باء مؤخرًا بالفشل،
لأنها، على غرار الإنسان، تنقضّ على بعضها البعض، مهما كانت
ذريعة ذلك، بل إنها مستعدة لالتهام بعضها البعض.

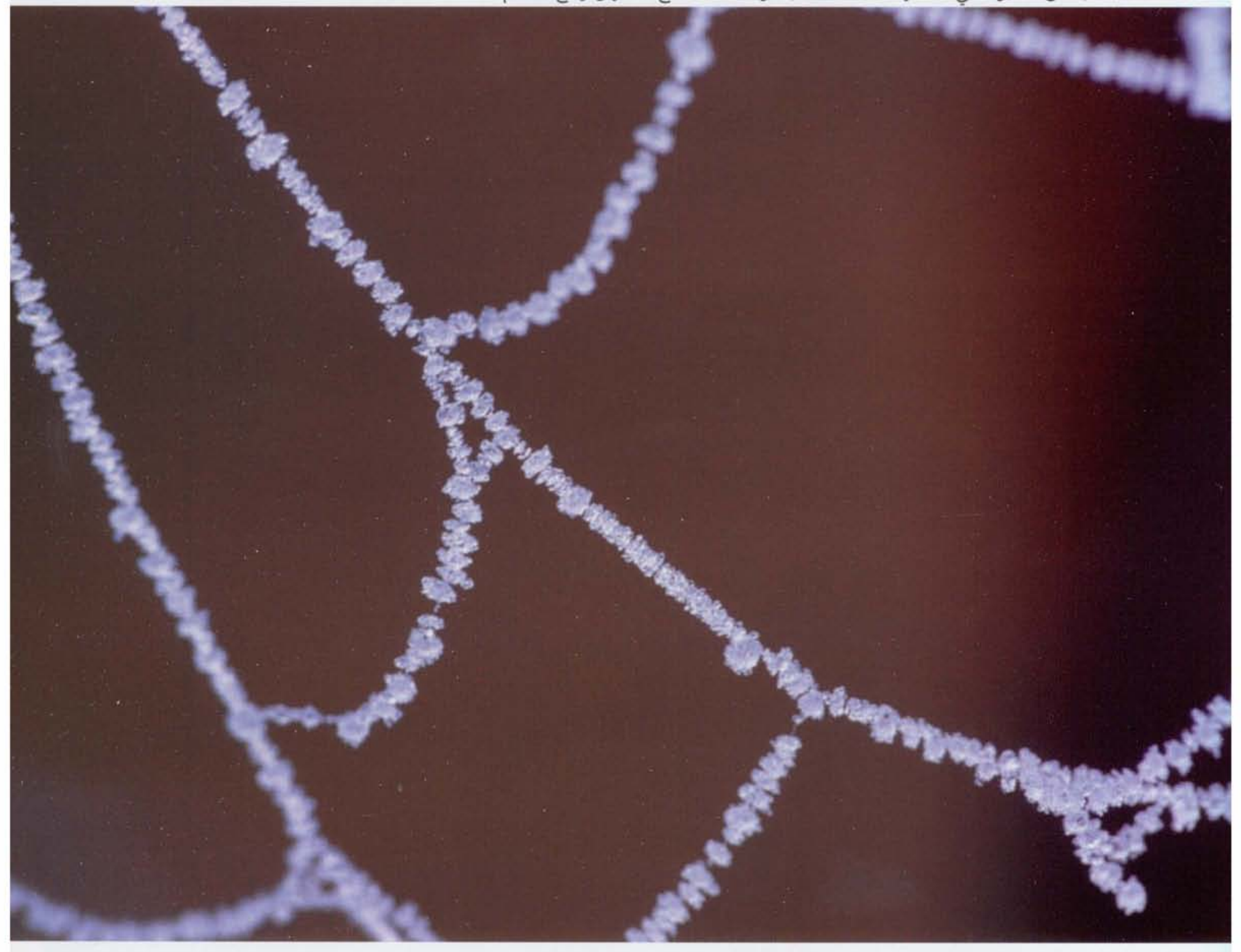
انتقالًا من الحيوي القديم إلى نوع من التكنولوجيا المجهرية، فإن عالمًا، أكثر من ذلك الذي قطّع الجسور كي يضع أجزاءها على باخرة، خطرت له فكرةٌ أكثر جدّة، وهي أن ينقل لنوعٍ من البكتيريا الجينَ الذي يوجد في الحمض النووي للعنكبوت فيدفعها إلى نسج خيوطها. ميزة هذا أن هذه البكتيريا لا تتقاتل داخل الإناء الذي توضع فيه. بل إنها تعمل على العكس من ذلك بجنون، فتنتج كيلومترات من الخيوط. يكفي، والحالة هذه، وكما هي الحال مع دود القز، مدّ تلك الخيوط وجمعها في ضفيرات للحصول على حبال لا مثيل لقوتها ومتانتها، إلا أنها من الرقة بحيث لا تكاد تُرى.

عندما تدع الامتلاءات المكان للفراغات، فإن مآثرنا الشفافة
تفسح المجال للتملي بالمناظر الطبيعية. فهل تغفرون لي يا أصحاب
الإعلانات؟
فياداك دي فيور
Viaduc de Viaur
أغسطس 1900

شكـرًا
سـيـدي
الـعـبـقـري، فلن
نرى بدءًا من الآن أي وثاق
في العالم؛ لا الحبال التي تربط
السفن، ولا قصبة الصيادين، ولا أوتار
قيثارة أو كمان، ولا حبال رافعات الموانئ، وإذا
شئنا، فلن نرى أيضًا الأحزمة التي تشد سراويلي، كل هذا
سيتبخر ويطير، ستطير الحمامة، وستطير الأوتاد والسراويل. لتحيا
الأشياء الحرة الطليقة! وشكرا لك سيدي العبقري، فإننا سنرى عما قريب
تحليق سطوح الجسور بين جهة وأخرى لأعمدتها، لأن لا أحد سيرى حبال التعليق
ما دامت تتمتّع بدقة خارقة. ستقام علامة حمراء تلمع أضواؤها منبهة، وستظهر مرتفعة
في الفضاء عبارة: احذروا الطائرات.



خيوط شبكة العنكبوت بمثابة شبكات صيد، حبال مهتزة للإشارات تحذر أو تعد، كما أنها تُشكّل جسرًا للمرور. على غرار العنكبوت، ننسج دائما بعض الخيوط كي نجسّر علائقنا، الصلبة أو الناعمة، مع الآخرين ومع العالم.



نسج الخيوط

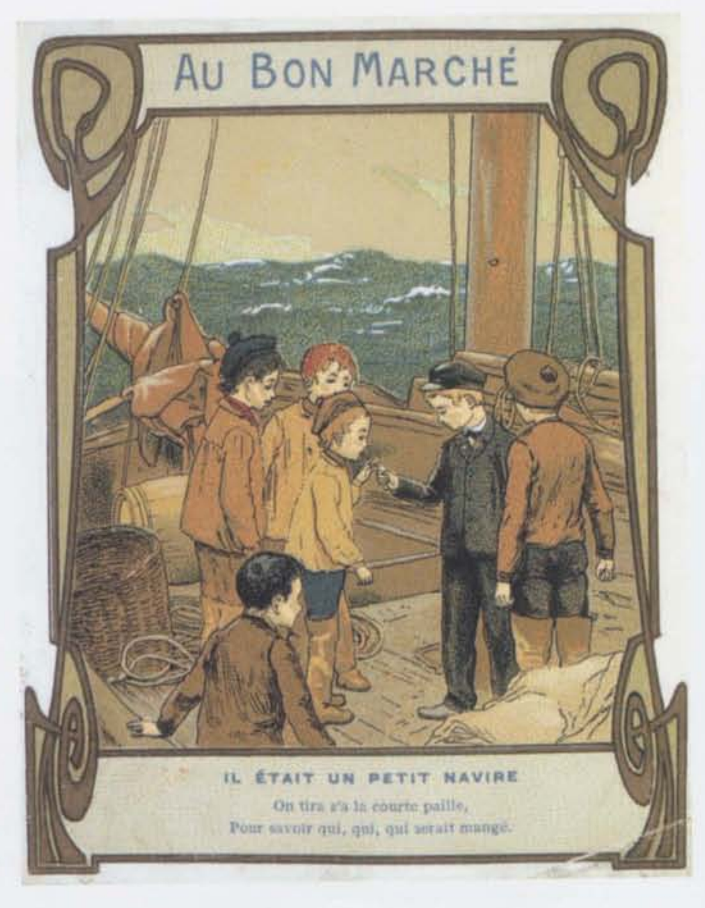
عرفت
في شبـابي
شيخًا إنجليزيًا،
ضـامـرًا ونشـيطًا،
سألته عن سرّ عنفوانه،
فأجاب: إنه الحبّ، ما يشكُّ
فيه الجميع. كان قد رأى العالم
في وقتٍ كان قد بقي فيه ما يُكتشف:
اليابان المنغلقة، ولابـرادور القاحلة، وسان
فرانسيسكو تحت الـزلازل، ورأس الهورن بنسيمه
العليل، وفالباريسو الفردوس، وهوبارت المتلئ بالسجناء،
والتيكساس المأهولة بالطوباويين الفرنسيين، وباريس على موعد مع
أوروبا، بشامبانياها ورقصة الكانكان الفرنسية. منذ سنّ المراهقة كان يعبر
البحر الجميل بواسطة سفينة شراعية كي يبيع الحبال في الموانئ.

إن من يصنع الحبال، وينسج الضفائر، ويفتل أمعاء الحيوان، وينسج الخيوط، ويوزع الروابط، ويعقد الأوتار، وينسج ويَخيط ويحوّل المعادن إلى أسلاك... إنّه لا يجهل شيئًا عن الروابط.

إنه يعدّلها ويدرسها ويحسّنها. المغزل يهيئ الراعية للحب. على مهندسي فرايسينير Freyciner أن يتفوقوا في الخبرة الإيروتيكية؛ فخيوطهم تسند سطوح الجسور، مثلما يشدّ أي حبل جميع الروابط.

كشفت شركة آرسيلور Arcelor، الشهيرة في العالم بسباكتها وصناعتها للأفران الضخمة والصفائح المعدنية، كشفت طريقة من الخفة والعذوبة والعنكبوتية لنسج الخيوط، إلى حدّ أنها تنسج أقمصة من الفولاذ.

نعم وبصدق إن جسرًا معلقًا يسندني فوق مضيق، ويبعث فيّ إحساسًا بالوجد. لقد اكتشفت سرّ الشيخ الإنجليزي: إنه فتلُ الخيوط.



الآباء يعلّمون قتل الأب. أغاني الأطفال والأساطير والحروب تصرخ بالحقيقة: قتلُ الأبناء.
لوحة إعلامية، حوالي 1900.

أيها المعبَر!

ربـاني والـدي عـلى نقل المـراكـب، وربّتني جـدتي على الأغـاني الفرنسية القديمة، وقد شعرت دائمًا، حتى، وإن لم تكن توجد، بعلاقة بين معابر نهري والغناء الفرح لهذه اللازمات الموسيقية: يا للمغامرة الجميلة، أيها المعبر! بالفعل، أن تعبُر النهر صيفًا، بين أكوام الرمل والحجر، حتى ولو أدى الأمـر بك إلى التعثر حين تنزلق القدم، أمرٌ كان يبدو لي تمرّنًا، إن لم يكن مريحًا، فعلى الأقل من دون توعُّك، خصوصًا برفقة أخي. اللهم إلا عند تـدريـبٍ عسكري، وفي هذه الناحية ذاتها وهذه السنوات عينها، فرض ضابطٌ بليدٌ جشِع على خمسة من رجاله مثقلين بالمتاع والأسلحة العـبـور ذاتـه، فـغـرقـوا في عـزّ ربيع عمرهم.

منذ طفولتي إذن تربّيت على عادات الأسماك، ولكن في مناخات رحيمة، لم أكن بعدُ قد عبرت الوديان، الباردة حتى في شهر أغسطس، من أيسلندا، حيث كان عليّ أن أحمل على رأسي الحقيبة والملابس، في حين كان بردٌ قاتل يغمرني من أخمص القدمين حتى الكتفين، ويصيب بقية الأعضاء. تارة نخرج من ذلك يكسونا الاحمرار، وأخرى تلوننا الزرقة، وكنا نخشى أن نبقى في الـوسـط. وسرعـان مـا كنا نُضيّع، من شـدة الـدموع الـباردة، اللازمة المرحة لأناشيد الطفولة. كُنت قـد قضيت مـنـذ وقـت طـويـل ربيع عمري.

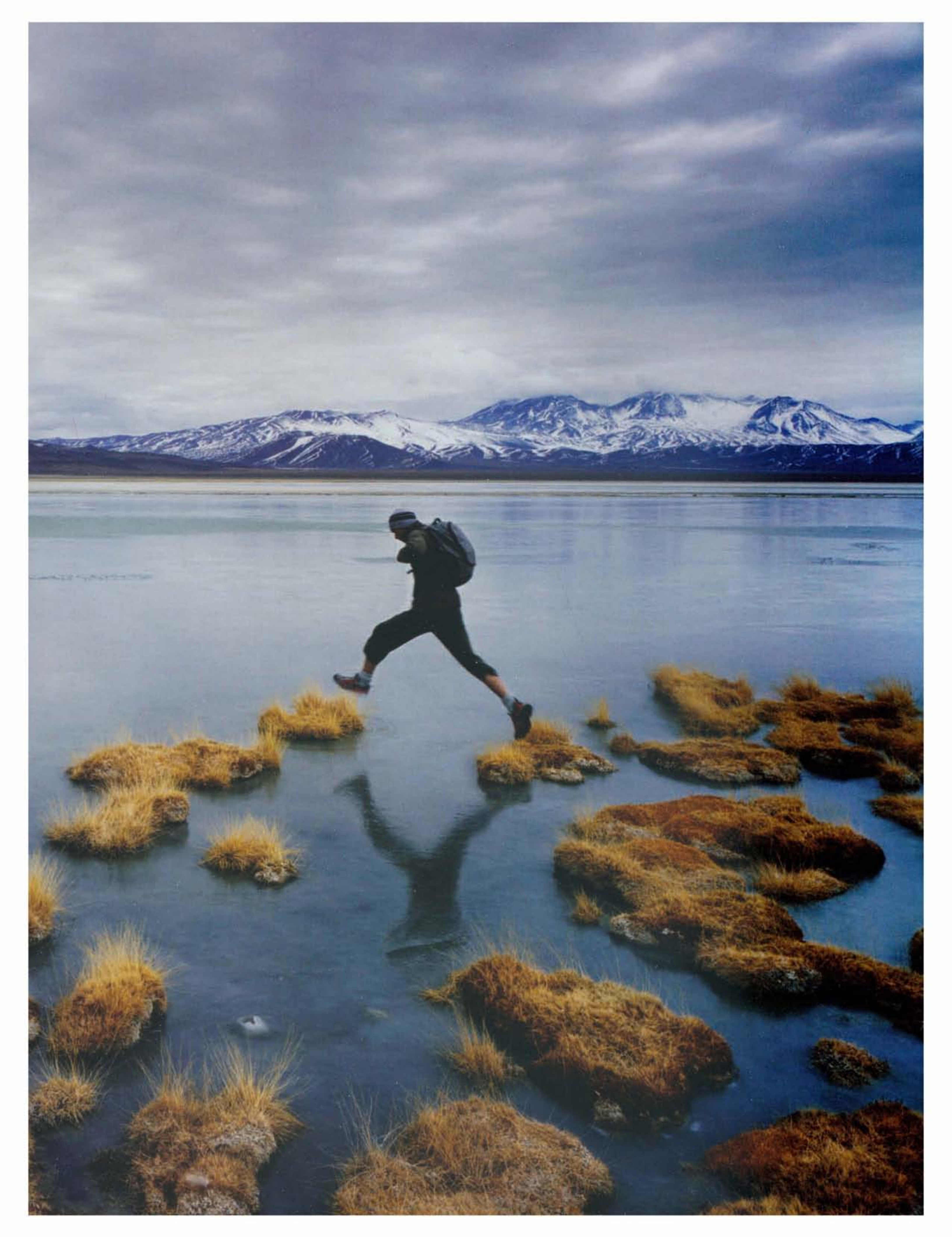
على نهريْ الدائرة القطبية، نهر يوكون ألسكا ونهر الحب في ماندشوري، وعلى طول الممرات المؤقتة اليابسة من النهر، نأخذ أقصر طريق عبرَ كثير من المجاري المتلاقية، فينتابنا القلق في أن نتيه في هذه المنعزلات المليئة ثلجًا، ومياهًا حارقة من شدة برودتها، ورمالًا لامتناهية.

نهر الحب، الذي لا يندهش أحد من كونه، غالبًا، ما يبدّل مجراه، يعرف مجرىً مشروعًا، أعني مجرىً أساسيًا، الجغرافيون يقولون مجرى قليل الأهمية، كما يعرف مئة مجرى آخر يسلكها حسب هواه، وهي مبعثرة في السهل، مجراه الشاسع الأقوى أهمية. من يا ترى من لا ينتابه الإحساس بالضياع في صحراء نهر الحب؟

مدفوعًا في الممر بفعل السجع، ولكن أيضًا بفعل معاني الكلمات، مجرورًا بما تسمح به هذه الشطآن المتعددة إلى اتخاذ أيّ اتجاه، حسب درجة البرودة، ونقل الأوحال، وحسب زاوية الشمس، وحسب الموسم، والعشب الطري، لا أعرف أي شيطان أغراني، فأحببت أن أعبّر بصوت عالٍ عن الدهشة التي كانت قد انتابتني عند سماعي لأصدقائي المثليين يطالبون بما ندعوه بلغتنا، رابطة الزواج. في حين أنهم يزعمون التمتع بحُرّيات تركت للأنهار التي يمكن عبورها التي أتحدث عنها، كيف لهم أن يبحثوا عن الروابط، القانونية والاجتماعية، لفراش قاصر؟

ألا تشبه أنهار مدننا الهادئة، بما هي عالقة بين ضفتين، وبما هي تكون، غالبًا، قد ضمتها أرصفة حجرية، ألا تشبه عشاقًا أنهكهم الزمن؟ إنها لا تجرؤ على التمرّد ضد سدودها وسفنها إلا في أثناء فيضانات الشتاء والربيع، وحينها يصيبها السّعر، فتجرف أحيانًا جسور الحديد أو الحجر التي تمرّ من تحتها أيامٌ شديدةُ الحزن. مقارنة بذلك، فإنني معجب بأولئك الذين يقطنون المرتفعات، والذين يتسلّقون في شتّى الاتجاهات التي يمكن أن نتخيّلها.

لنتغنَّ بنهر الحب، ذلك النهر الذي هو من المرح Gai بحيث نعبره عبر ممرات جافة Gué.





عندما أمرُّ بجسر معلق، أسمع اهتزاز حركة المحركات الهوائية، وعندما أمر في مجازة أحسب خطواتي مثل نوتات صول، لا... وأنا أقفز فوق الماء تعزف الموسيقى طيراني من ضفة لأخرى.

يتخطى الوجود الحواجز، ويجتر السدود، يمشي وينطلق، ولا ينفك يصل من شاطئ إلى الشاطئ المواجه. إلى أن تحين الصبيحة حيث يكتشف أنه في وسط الأفق المفتوح، لا سند له، ولا شاطئ موعودًا أمامه، فيسبح وحيدًا داخل البحر.

جسر لا نفع فيه، مثل فنّ جميلٍ.

لا أقول أين، ولا ألوم أحدًا ولن أقول كيف. بما أن الأمر كان يتعلق بوادٍ قليل العمق يمكن التحكّم فيه في ذلك الموسم، فقد قرر هرقل المسؤول عن الأشغال الكبرى أن يغيّر مجراه. قام بحفر مجرى جديد، يصل قاعه بسرعة إلى الشواطئ، عبر منعرج أنيق بعيد عن المجرى المعتاد. نتيجة لذلك، انتهت الأشغال إلى بناء قوس جميل على الرمال، من غير حفر للمراسي ولا حاجةٍ إلى الغوص تحت المياه، ومن غير حواجز ولا صعوبات. عندما اكتمل الجسر، أقيم الاحتفال، ثم أعيد حفر قناة لإرغام النهر على العودة إلى مجراه الذي ركن إليه منذ قرون. وبما أنه عنيد، فقد رفض. ما من أحد رآه مرّةً أخرى بين شواطئه القديمة.

هكذا، صار بإمكاننا اليوم، وسط السهل الجاف، أن نزور قوسًا رائعًا يُطل على اليابسة، مثل عمل فني، بينما النهر ينظر، متغطرسًا، باحتقار إلى الخيانات البشرية، فينساب بعيدًا هادئًا، من غير جسر، نحو مصير آخر.

فن الجسور أو جسر الفنون؟

في حرم جامعة ستانفورد Stanford، حظيتُ لسنوات باستضافة أخوية من طرف مارتا Martha وروني جيرار René Girard. لن يفاجئ هذا الأمرُ أيّ شخص إذا علم أنهما يقطنان شارع فرينشمان Frenchmant، الحامل اسمَ الشخص الذي اشترى منه الميلياردير المزرعة. على مسافة قصيرة من هناك، كانت ساحة لعب تُدعى "المثلث الفرنسي"، من سيُفاجأ بهذا؟ كانت تُسقى عبر قناة صغيرة تنحدر من هضبة كان جميع الطلبة يدعونها الديش Dish، لأن الحاملة العملاقة لمنظار فلكي كانت تطلّ عليها من علٍ. علاوة على ذلك، كانت الساحة تتزين بجسر من الطوب الأحمر متوسط الأبعاد. بضع خطوات تكفي للوصول إليه. والحال أن قوسه يعلو على الماء نحو مئة متر. لقد انفصل الجسر عن النهر الذي سلّمه سطحه.

مولد نهر جليدي

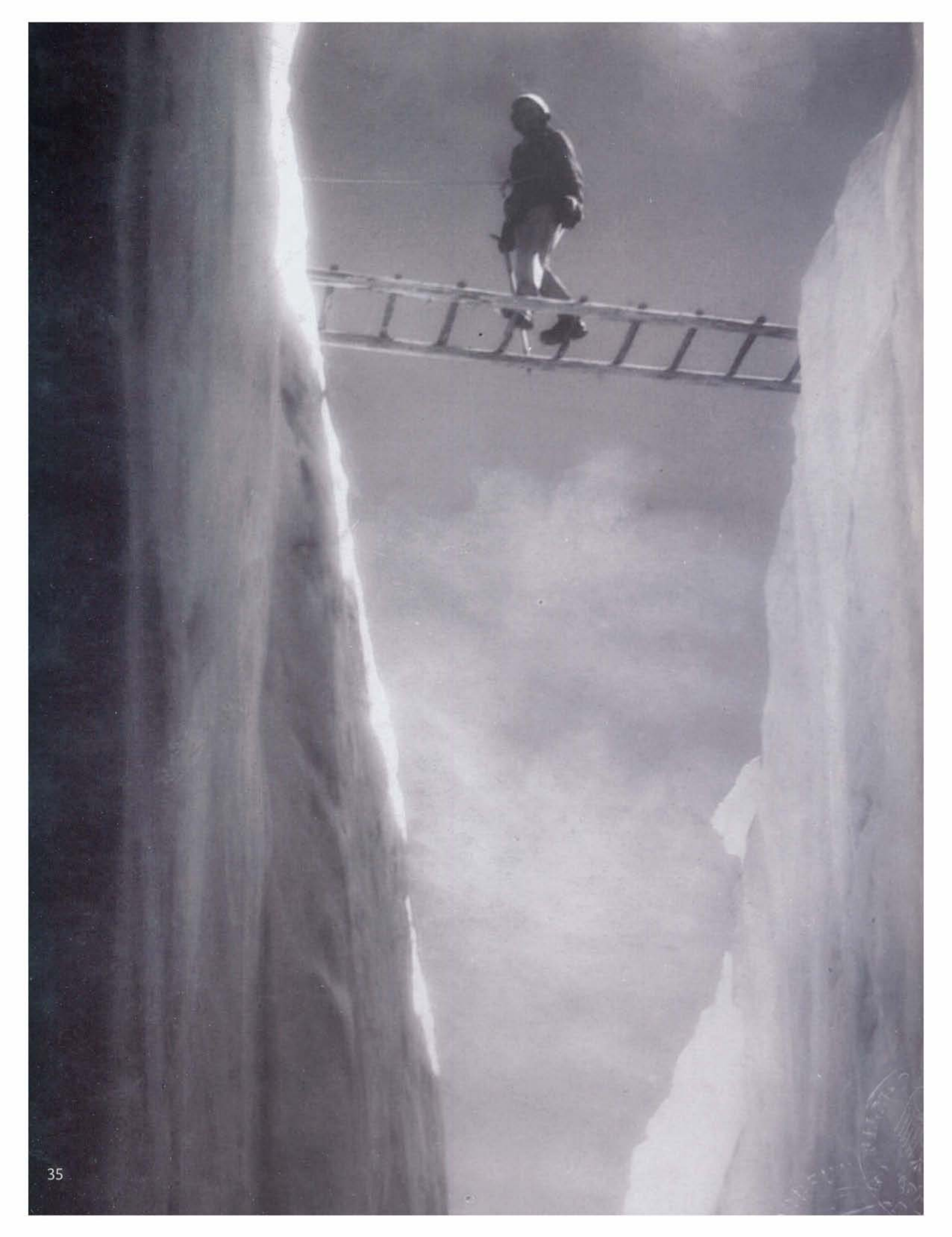
يمرُّ متسلّق الجبال ببعض جسور الثلوج الناعمة على صدع أو ثغرة متسعة. من الأفضل له أن يتوغّل قبل شروق الشمس، وإلاّ ذاب الثلج، فينهار السرَب الضيق لهذا الممر. من لم يحسّ بالدوار الخفيف الذي يسببه قوسه الهش؟ إنه ضيّقٌ في الوسط، وهو العتبة التي تكون فيها الحياة عرضة للخطر في أية لحظة، فينغص الجسد الذي يحاكيه ضيقًا. فجأة، عليّ أن أتخذ القرار؛ يتوقّف وجودي على هذا الحرف. هل أعبر؟ قدَرُنا يتحدّد بهذه الخطوات، هذه الأبواب، وهذه الجسور. أيَقول القرار نعم أم يقول لا؟ أأنا مقبولٌ أم مرفوض، ناجحٌ أم راسب، مرحَّب بي أم مطرود، مصطفىً أم ملعون، محبوبٌ أم مكروه، مُحلقٌ أم هرع... وفي نهاية المطاف أحيٌ أنا أم ميت؟ تختنق الحنجرة، مثلما يضيق الصدع.

تكون الجسور حينئذ أشبه بالأنفاق. لقد ولدتُ أزرق اللون، موشكًا على الاختناق، وحبلُ السّرة ملتف حول عنقي، لم أر الوجود إلاّ وأنا على وشك الاحتضار. لا أستطيع أن أتذكر ذلك، إلا أن حياتي كلها ما فتئت تكرر بلا انقطاع عبورَ جسدي المميث عبر القناة. أحلم بذلك، وأجادل نفسي، لا أستطيع أن أبتلع الأمر، سأموت مختنقًا، مكمَّمًا في هذه العلبة السوداء. حتى وإن كنت محاطًا بجليد براق، فإنني أتمدد في حفرة، وجسمي غارق في الظلمات. لا أتحمل أن أظل محبوسًا، قلقًا، هنا زفير آخر، لا الخبز ولا النبيذ يعبران ممرَّ الحلق الضيق. لا الكلمات ولا الهواء يصلان إلى مدخنة صوتي المختنقة؛ الأضلعُ تحبس الرئتين مثل الحلقة الحديدية التي توضع حول البرميل. لن أعبر، لن أتمكّن من ذلك. في هذه الساعة لا أمل في مجيئها، سوف يغمى عليّ قبل أن أراها، سأموت قبل الولادة، لن يمحو الفجرُ الليل، ولا أمل في رفع هذه المعاناة، لن يندمل هذا الجرح، بحيرةٌ من الدموع تملأ الصدر بلا أملٍ في النّجاة. لن أبصر النورَ أبدًا. أتقبل الأمر. أعلم أنّي سأظل في الممر، وأن الجسر سينهار، لطالما علمت أن كل شيء إلى هلاك. تأكد الدليل من كون الحبل مثبتًا في الفأس المنغرس حتى نهايته. مُتصنّعًا الشجاعة، أتقدمُ متباطئًا نحو الهاوية السوداء للصدع الناصع البياض. نظرًا لمرونتي، وجدت نفسي عند الجانب الأعلى. إنه سباق عظيم وجميل. إنها الفرحة.

يحكي مرشدي جان إيف هوبو، أنه، رغم ثباته واتزانه، فإن أحد زبائنه سقط في شق. اقترب من الهوة ونادى: أجاب صوتٌ من أسفل. وسرعان ما أنقذ هذا الرجلَ من خطر الموت. ولكن، يا للمفاجأة، خرج شخص آخر من الهوة في رأس الحبل، يتلوه الشخص صاحب الحادثة. المجد للمرشد الذي أنقذ شخصًا معزولًا سعيد الحظ، كان يعتقد أنه في غنى عن جسر الحبل.

عاصفة على المون-بلون فيلم لأرنولد فانك
Tempête sur le mont Blanc, film de Arnold Fanck, 1930.

الصفحتان التاليتان: مون هواسكاران، 1995.
mont Huascarán, 1995







ما الأشدّ متانة من المعطى، أهو المبني؟

دعونا نحتفي بانتقام المحتاجين؛ نقول عن هذا الرجل، يا لَلمهارة! نقول عن هذه المرأة، يا لَلابتسامة المليحة! نقول عنهما معا، يا لَلموهبة! واعجباه! صوت الكمان، سرعة الذهن في الهندسة، المرونة في اللعب بالكرة، المهارة في استعمال أدوات الحفْر والجراحة! يا له من حصيف، يا لها من حكواتية، يا له من غاوٍ! كيف لا نحبّ ذكاءً بهذا النضج! آه! إنها نعمة من خارج كوكب الأرض!

بالضبط، في اللحظة التي تودّون فيها العبور، تأملوا منظر هذا الجسر الثلجي أو الصخريّ المنتصب أمامكم، كما لو أنّه أقيم لنستعمله، فمن أهدانا إياه؟

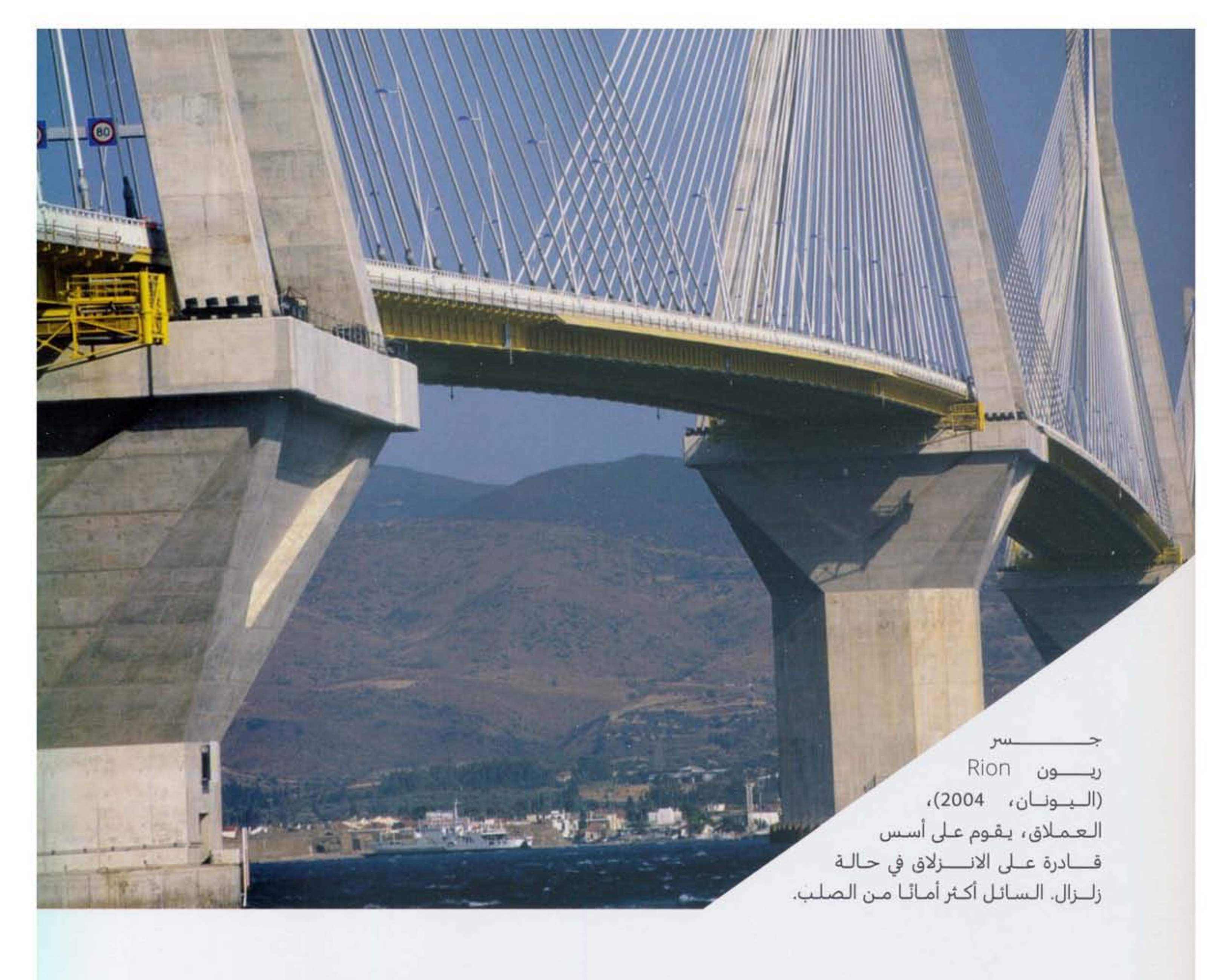
تأمّلوا الآن الضّربَ الثاني من الكدّ: يا له من عمل، يا له من تنظيم! ضعيف الموهبة، متواضع، مثابرٌ، كادحٌ، مرتابٌ في ذكائه، انظروا إليه كيف يكافح! يستيقظ منذ الفجر، من دون أن يشتكي من كدّه.

ضد الزلازل والتسونامي، ورغم الجوار الخطير للمدن المغمورة، يعمل المهندسون والحدادون Les armaturiers (اسم جديد، ألحمت حتّى يُطلق على الحدادين القدماء) والبنّاؤون بمثابرة على بناء جسر ريون Rion.

بالنسبة إليّ، أراهن على أن الصبر يؤتي أكلَه مع مرور الوقت، أكثر مما تفلح فيه الموهبة في اللحظة الراهنة. عند الوصول، تحصل مفاجأة، لقد فازت السلحفاة بالجائزة.

تنهار الجسور الطبيعية، وتتسع الهوات بفعل التآكل الذي لا نتبيّنه، ومن جراء الزلازل التي تقلب كل شيء رأسا على عقب. الجسور التي أطلقها الرومان والصينيون القدماء، ما زلنا نعبرها إلى اليوم.

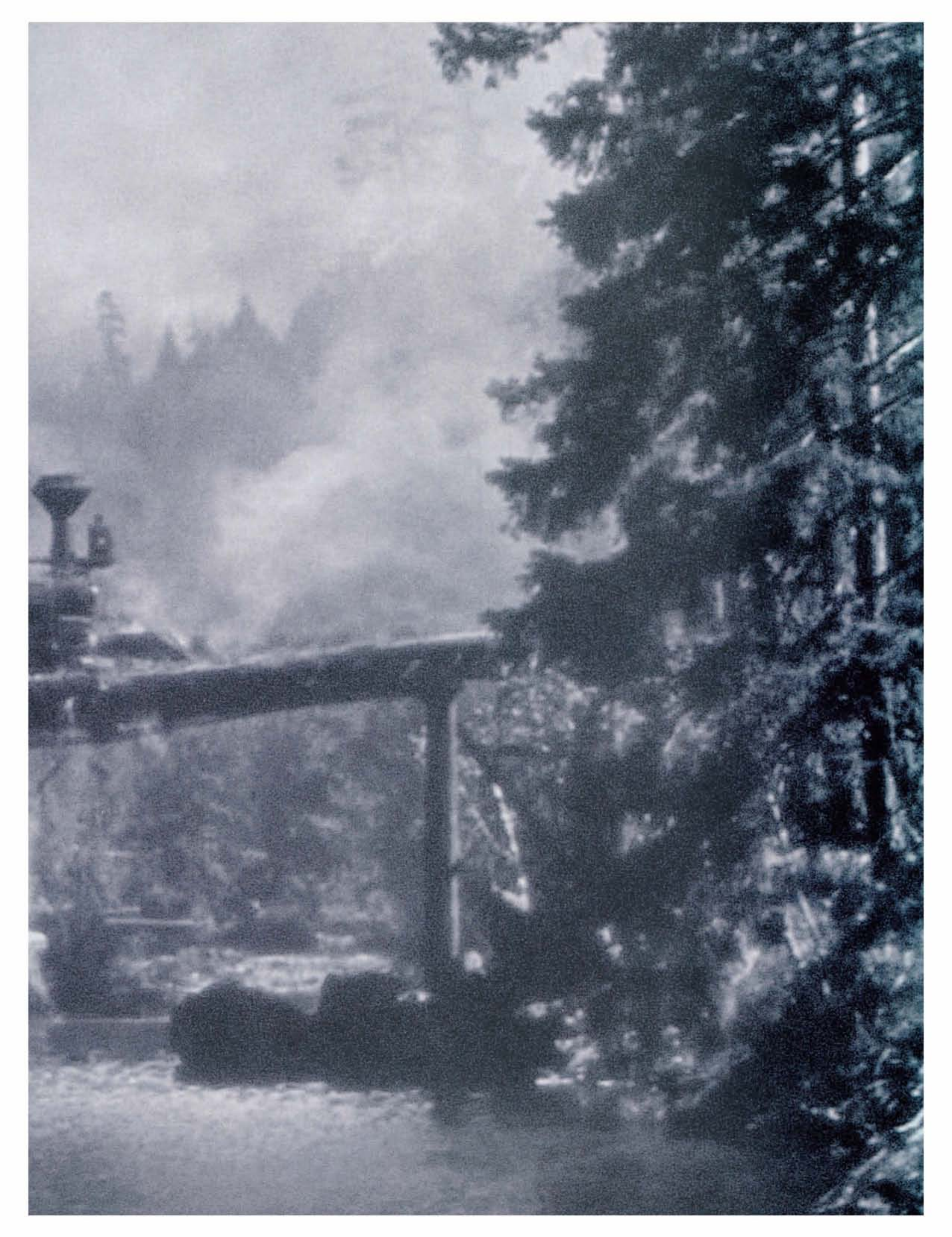
بالتأكيد ينبغي أن يكون هناك معطى، وفي ظروف جيّدة: أن يضيق النهر، وأن تدعّم الصخرة المراسي... إلا أن المعطى ليس كافيًا. حذارِ من ضربتك المباشرة، ينبغي أن تخدمه أكثر من الآخرين جميعهم، ما دمت لا تعرف من أين وكيف جاءك، يمكنه، بين لحظة وأخرى، ودون سابق إنذار، أن يتخلّى عنك. لم تعد لديك ضربة أخرى خلفية، وضربتك المباشرة لم تعد تفيد. تأتي النعمة مجانًا، وكذلك تذهبُ. إنها لا تقاوم الحواجز، والغضب، وآلام البطن، والخيانات، والغيرة، وشقاء الحب. إنها تضجر من اليومي. وهي تتبخر عند أقل معاكسة. حذار من موهبتك، إنها تمثل بالنسبة إليك حليفًا، لكنها ستعمل ضدك خيانةً. النعمة متقلبة، إنها تقفز وتتنحي مثل ماعز، وهي مُفاجئة لا يمكن التنبؤ بها، هي إلهية، وسرعان ما تغدو شيطانية. تجري الأمور على عكسها، ما تبنيه ببطء، يطمئنك لفترة طويلة. بما أنك تعاني عند بنائه، فإن الجسر لن ينهار بين عشية وضحاها. لقد تنبأتَ بالظروف الصعبة، ثم تحمّلتها، تنبأتَ بالأمراض والضربات الموجعة، والخيانات، لقد عملتَ في جوّ من اللاطمأنينة، ومالت

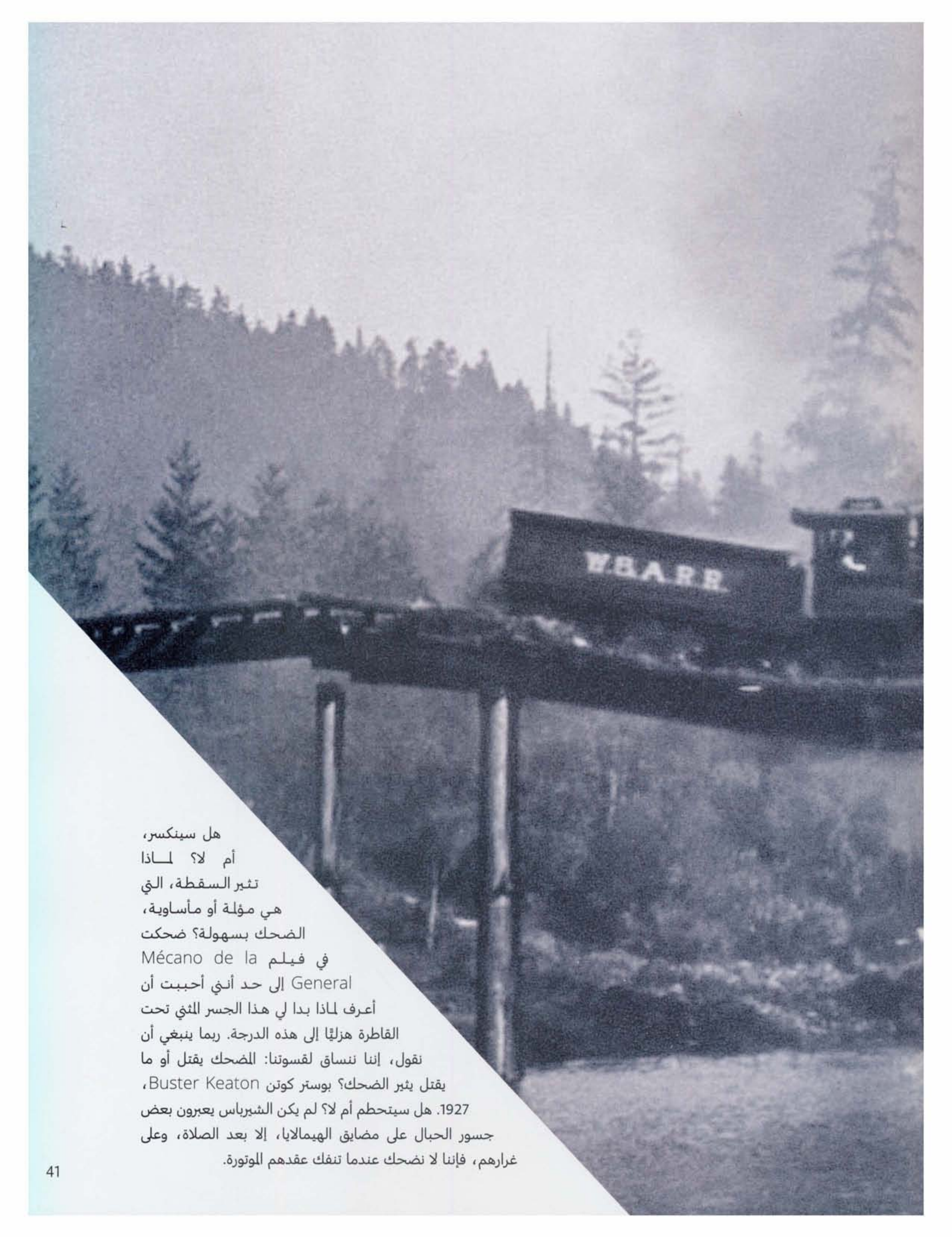


جسر ريون Rion (اليونان، 2004)، العملاق، يقوم على أسس قادرة على الانزلاق في حالة زلزال. السائل أكثر أمانًا من الصلب.

نفسك، في بعض المرات إلى اليأس. كم مرةً قلت في نفسك: يعوزني كل شيء، لكنك مع يأسك تمسكتَ بالعمل؟ تدوم نتيجةُ العمل حسبَ الوقت الذي كلّفه. وسوف تستمر لمدة أطول إذا لم تجد الحياة قاسية. وبالعكس، بما أن النعمة تنزل من السماء، فإنها تتبخر نحو السماء. تقدم لك الشمس هدية، فيأخذها منك السحاب. يسمح لك حبّ النظرة الأولى بهذا اللقاء الجميل، يزيّنه بريق السماء، لقد أخذَتْك تلك المرأة، لكنها ستتخلى عنك. تنتقم المدة الحاقدة مما فعلته في غيابها. بما أنها فتاة جيدة، فإنها ستكافئك لكونك أخذتها بعين الاعتبار. يلمع العشقُ ويُحرق، إنه قاتل. ابنِ شيئًا فشيئًا حبًّا بطيئًا قويًّا، بصبرٍ كبير، أضف إليه كل مساءٍ حبلًا مهتزًا، واثنين من أكوام الورق، وثلاثة قضبان من الحديد، ودلوًا من الإسمنت، وطلاءً ضد الصدأ، ومكابس طويلة في حالة حدوث زلزال، فإن الجسر سيدوم ويخلد.

ثقتي كاملة في جسر ريون Rion.

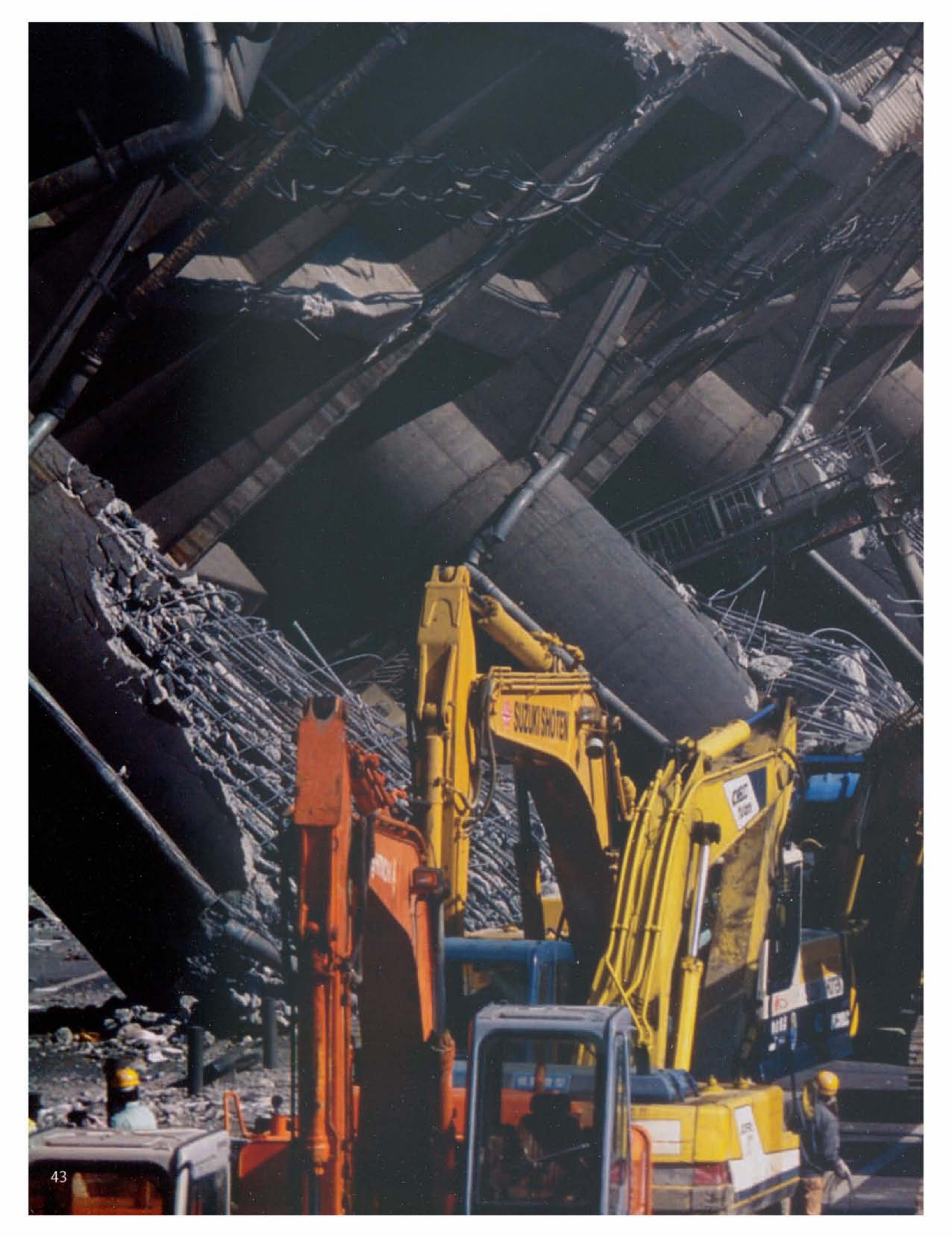




هل سينكسر، أم لا؟ لماذا تثير السقطة، التي هي مؤلمة أو مأساوية، الضحك بسهولة؟ ضحكت في فيلم Mécano de la General إلى حد أنني أحببت أن أعرف لماذا بدا لي هذا الجسر المثني تحت القاطرة هزليًا إلى هذه الدرجة. ربما ينبغي أن نقول، إننا ننساق لقسوتنا: المضحك يقتل أو ما يقتل يثير الضحك؟ بوستر كوتن Buster Keaton، 1927. هل سيتحطم أم لا؟ لم يكن الشيرباس يعبرون بعض جسور الحبال على مضايق الهيمالايا، إلا بعد الصلاة، وعلى غرارهم، فإننا لا نضحك عندما تنفك عقدهم الموتورة.



في الوقت نفسه الذي كان كل ضحية من ضحايا الزلزال يشعر بالكرب،
ازداد حماسي، على العكس من ذلك، بدلالة شدته. كنت محظوظًا
بسماع أرغنات الأعماق، فأرتعش مع الأرض، وأرى المنظر
يرتعش ومشهد القبح المعتاد ينهار. كما لو كان هناك
مطلب بالجمال الكوني يسعى إلى التخلص من
ذلك القبح. رغم أنني كنت أتألم لذلك،
فإنني كنت افتتن برؤية المظاهر
وهي تتفتت، كما لو كانت
ستفصح عن سر الواقع.
.Kobe, 1995


SUZUKI SHOTEN



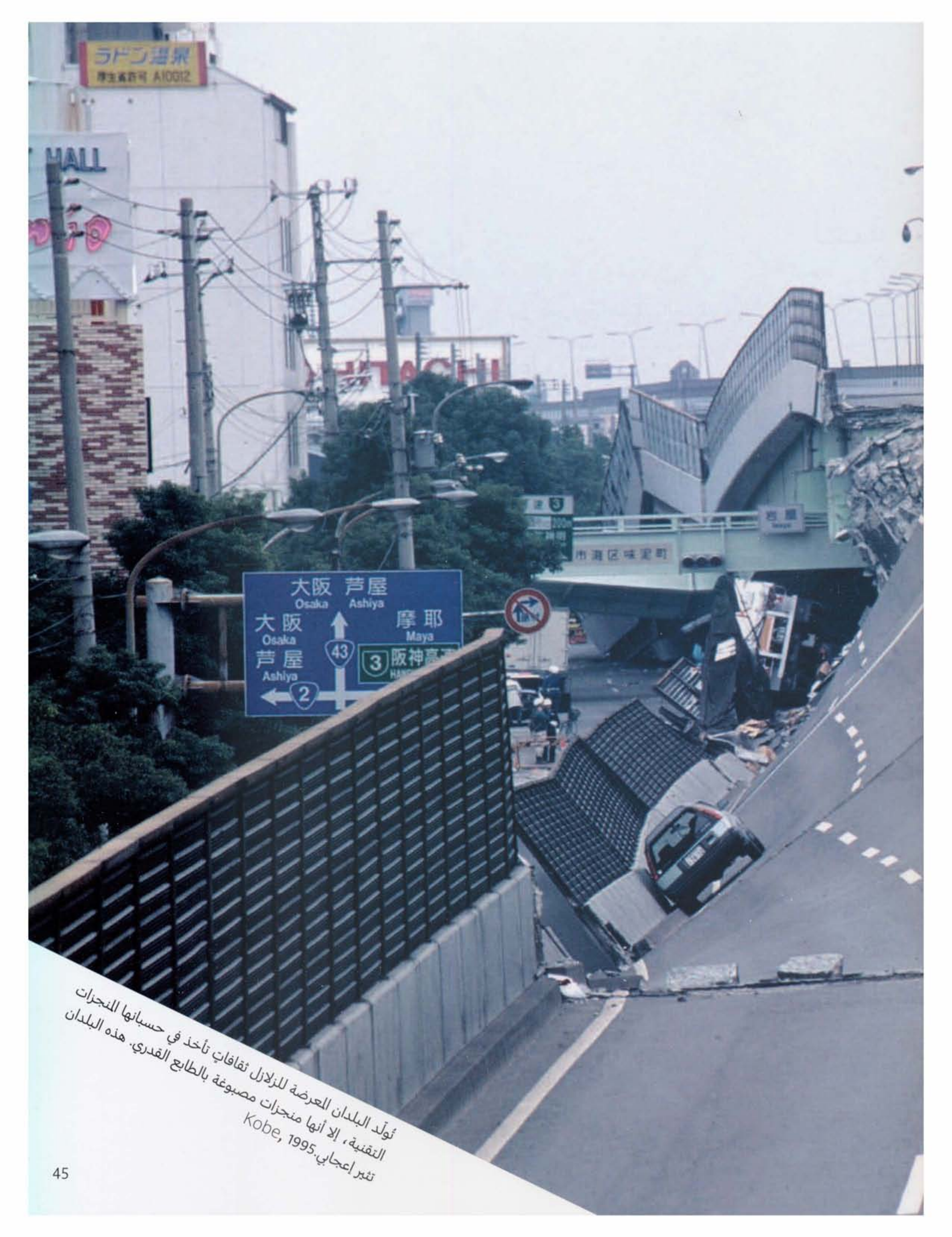
شهرُ عسل ذهبي لم يتمّ.

هيّأ تجيسي وهاري هوتشينسون مسار رحلتهما بعناية. كانا قد تزوجا منذ خمسين سنة، ولم تعكّر صفو حياتهما غيومٌ، تقاعدا في الوقت نفسه. هي توقفت عن التدريس خلال فصل الربيع، وهو ترك مطعمه لابن أخيه. كانا منظّمين، حريصين على الإتقان، وقّعا الحسابات، وصفّيا الميزانية، وصادقا على قرارات التوثيق، فلم يُهملا أية وثيقة. كان الزوجان ميّالين إلى الاستقرار، إلا أنهما كانا يحلمان بالقيام بمغامرات، فكانا خلال حياة بكاملها من الادّخار والعمل، قد قررا مشروع اختراق أمريكا الشمالية، ما إن يتحررا: كندا، الولايات المتحدة، المكسيك، من ألاسكا إلى يوكاتان Yucatân ومن سياتل إلى نيوفاوندلاند Terre-Neuve. متوسلين بأطلس الخرائط، وبكتب الإرشاد السياحي، كانا قد أمضيا مئة ليلة في التخطيط لمحطات الرحلة، وتقرير المواقع التي عليهما زيارتها، بل إنهما ناقشا حتى مسألة الفنادق. كانا ينامان ليلًا مثل طفلين يتحدّثان عن الدّببة الرمادية والحيتان الزرقاء، والهنود والخشب الأخضر وشعاب الجبال.

حلّ اليوم العظيم. في الصباح الباكر ليوم 17 أكتوبر 1989، ركبا منشرحين على متن طائرة يونايتد كي تنقلهما من غير توقّف من سينسيناتي إلى سان فرانسيسكو. قالت تجيسي وهي تشدّ حزام السلامة: هكذا تنتهي حياتنا القديمة يا هاري. ردّ عليها هاري: مرحى للحياة الجديدة. ثم طارا مثل عشيقين حقيقيين. عندما حطّا بعد الظهيرة على الساعة الخامسة عشرة واثنتين وثلاثين دقيقة في المحطة المحلية، على مقربة من المحيط الهادي، استأجرا عند هيرتز، كما كان مقررًا، سيارة بليموث وردية اللون، تتوفّر على أربعة مقاعد، وصندوقٍ متسعٍ، وإطارات شبه جديدة، وانطلقا في حماس، كي يحققا أخيرًا رحلة زفافهما الذهبي. طقس صافٍ، نسيم عليل، حرارة تبلغ 75 درجة فهرنهايت. غرفة مزدوجة محجوزة على الجانب الآخر من الماء. تجيسي أمام القود، وخارطة الطريق فوق ركبتَي هاري، اتجهت سيارة الزوجين الستين الهادئة نحو قنطرة باي بعد الخامسة ودقيقتين بقليل.

هز الزلزال الذي تبلغ قوته 7,2 ومركزه نحو ذروة لوما بريتا Loma Prieta، منطقة الخليج من سانتاكروز في ستانفورد وأوكلاند Oakland إلى لوس غاتوس Los Gatos. اهتز الجسر أقل بقليل من 15 ثانية، وانكسر على الساعة 17,04. انهار جزء من الطريق. شاءت الصدفة أن يهوي بالضبط تحت العجلات الأمامية لسيارة البليموث الوردية. سقطت السيارة فعلقت أفقيًا من غير حراك. شوهدت في اليوم التالي على الصفحات الأولى لكل الصحف، كان يمكن أن تكون نعشًا للمسافرين، لا أحد منهما غرق في الرمال.

لكن، يا لها من بداية جميلة للرحلة حيث اعتقد المسافران أنهما سيتوجهان إلى الفندق، فانتهيا بالسقوط في بئر!



تولّد البلدان المعرضة للزلازل ثقافاتٍ تأخذ في حسبانها المنجزات
التقنية، إلا أنها منجزات مصبوغة بالطابع القدري. هذه البلدان
تثير إعجابي. Kobe, 1995

لعبة

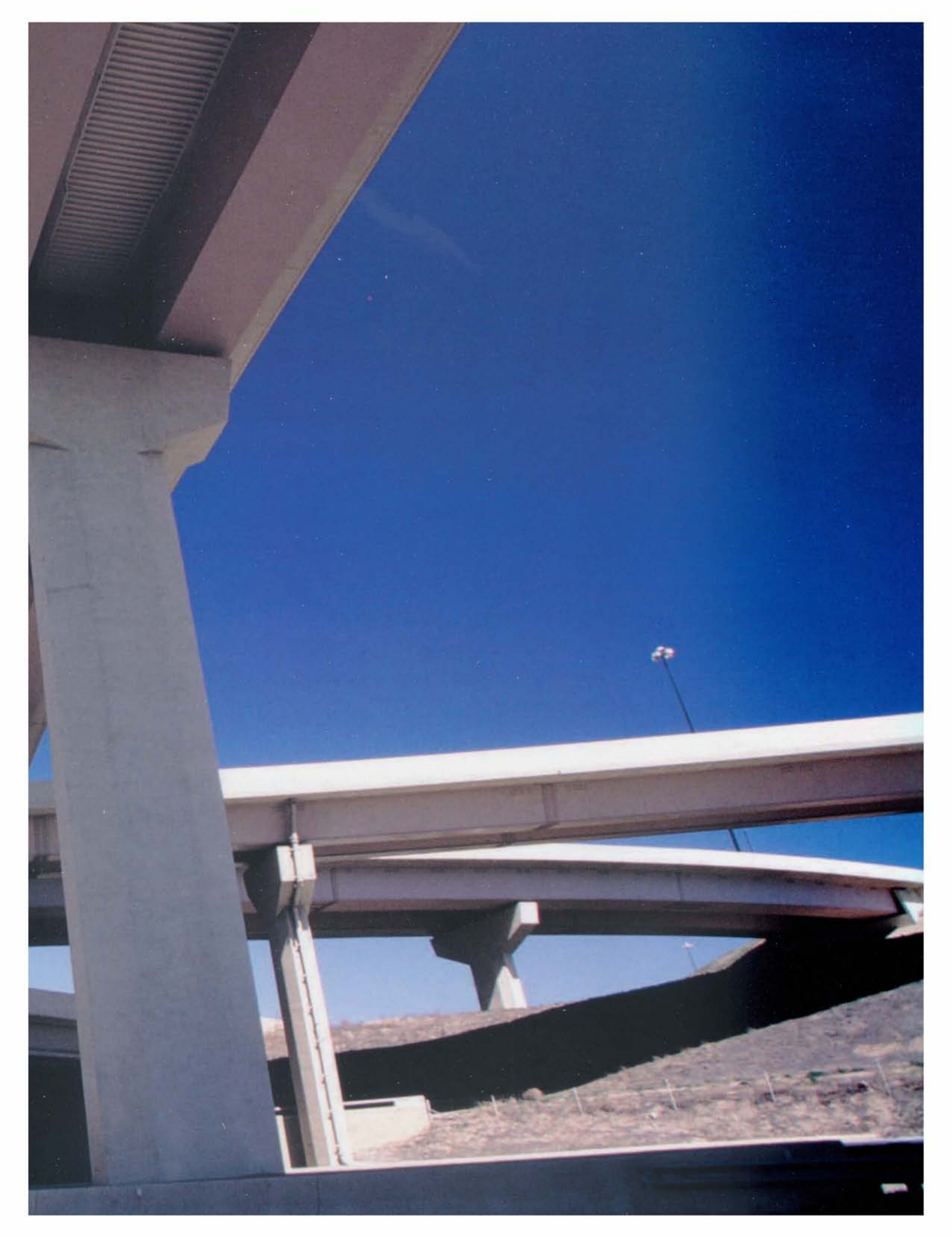
يخترق جسرُ أوروبا السكك الحديدية مباشرة قبل محطة سان لازار Saint-Lazare، ليس بعيدًا عنها تبتدئ رواية إميل زولا **الوحش البشري**. قراءة طويلة لبعض روايات زولا، وربما لها كلها، وتفحُّص الخطة التي تنظم مجموعة Rougon-Macquart ألهماني قديمًا الحدس الحادّ بأن المؤلف قد كتب أعماله وفقًا لقوانين لعبة الإوز وشكلها. إن خطاب رواياته يتّبع رميات نردٍ ترسم عشوائيًا مسارها. من أجل المغامرة، يضيع أحدهم في متاهة، أو يرتاح في فندق، والآخر يقع في البئر، وآخر يشلُّ السجن حركته، وغيرهم يكرر أو يتراجع في نهاية الأمر، في حين أنهم كلهم يسيرون يقينًا نحو الموت. نعبر الجسر مرتين. يتعلق الأمر هنا بجسر أوروبا.

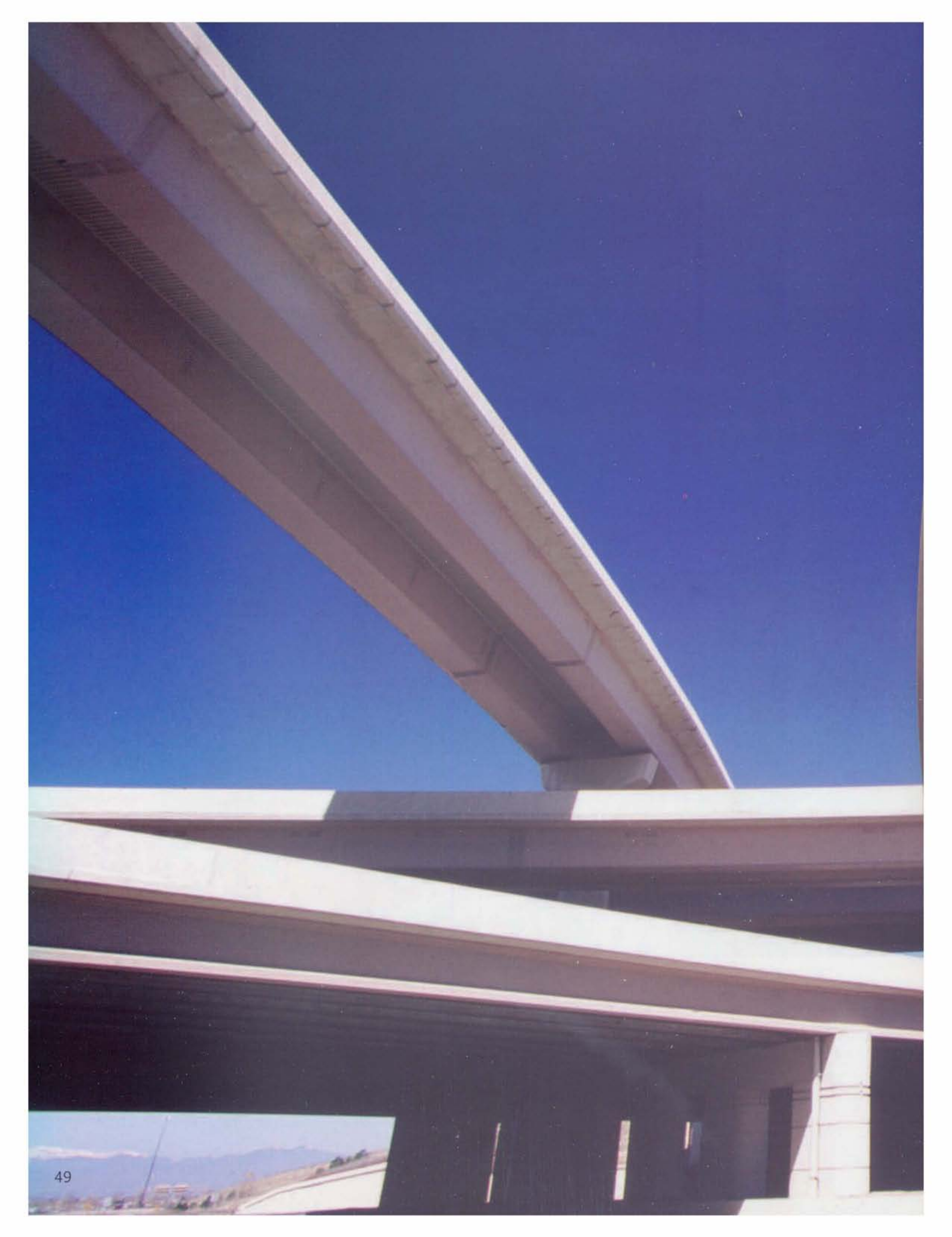
التعداد المناسب لهذه الصعوبات وهذه السهولة الوحيدة، التي تمتزج في السرد، يشبه الفوضى التي تتعرض لها الحياة. قبل اختفائي المقبل، حصل لي في الأماكن التي ضاعفها تيهي القدري، ألاّ أخلد إلى النوم. كنت أتيه بتؤدة في آلاف متاهات العلائق المهنية أو العاطفية التي غالبًا ما تكون عسيرة، ومتاهات أعمالي التي تكون صعبة على الدوام. أهواءٌ لا تطاق تربطني سجينًا بالخبز والماء اللذين لا يُبتلعان، لِمَا كنت عليه من اختناق. مئات المرات، وقعتُ في الخندق نفسه الذي يمتد على طول طريقي، كشيءٍ يجلب الاندهاش والإعجاب. أعاني من محطات طريقي، من غير أن أعرف كيف أرسمها، إلا أن الجسور تسهلها في بعض الأحيان. لم يسعفني السجن ولا البئر ولا المتاهة في شيء، كل هذه الأمور تساعد على الموت، بل ربما حتى الفُندق، مكان الاستكانة الكاذبة. بما أنني لا أنام على فراشي إلا نادرًا لمدة أسابيع متتالية، فقد وضعت حقيبتي في عشرة آلاف مكان جُهّز أحسن تجهيز بسخانات المروحة وأجهزة التهوية الصاخبة، وبالثلاجات التي لا لزوم لها، ولكنها مزعجة الصوت، وبالحمامات التي يتدفق الماء من جدرانها، وأخيرًا بموسيقى متعددة الأنواع، لا تكفّ ترنّ ليل نهار، في الممرات، وعند الجيران، وفي المطعم، وهي من الارتفاع إلى حدّ أن المرء يتساءل ما إذا كان أصحاب الفنادق يحرصون بالفعل على خلود زبائنهم إلى النوم. لو كنتم تعرفون فندقًا صالحًا للنوم، سأبعث إليكم عنواني كي ترسلوا لي عنوانه. وحدها الجسور تأتي لنجدتي كي أنام؟ لم أشعر بالراحة إلا بما توفره أكوامها وسطوحها من سعادة. كتبت هذا الكتاب احتفالًا وامتنانًا بالعمل الوحيد لمسراتي.

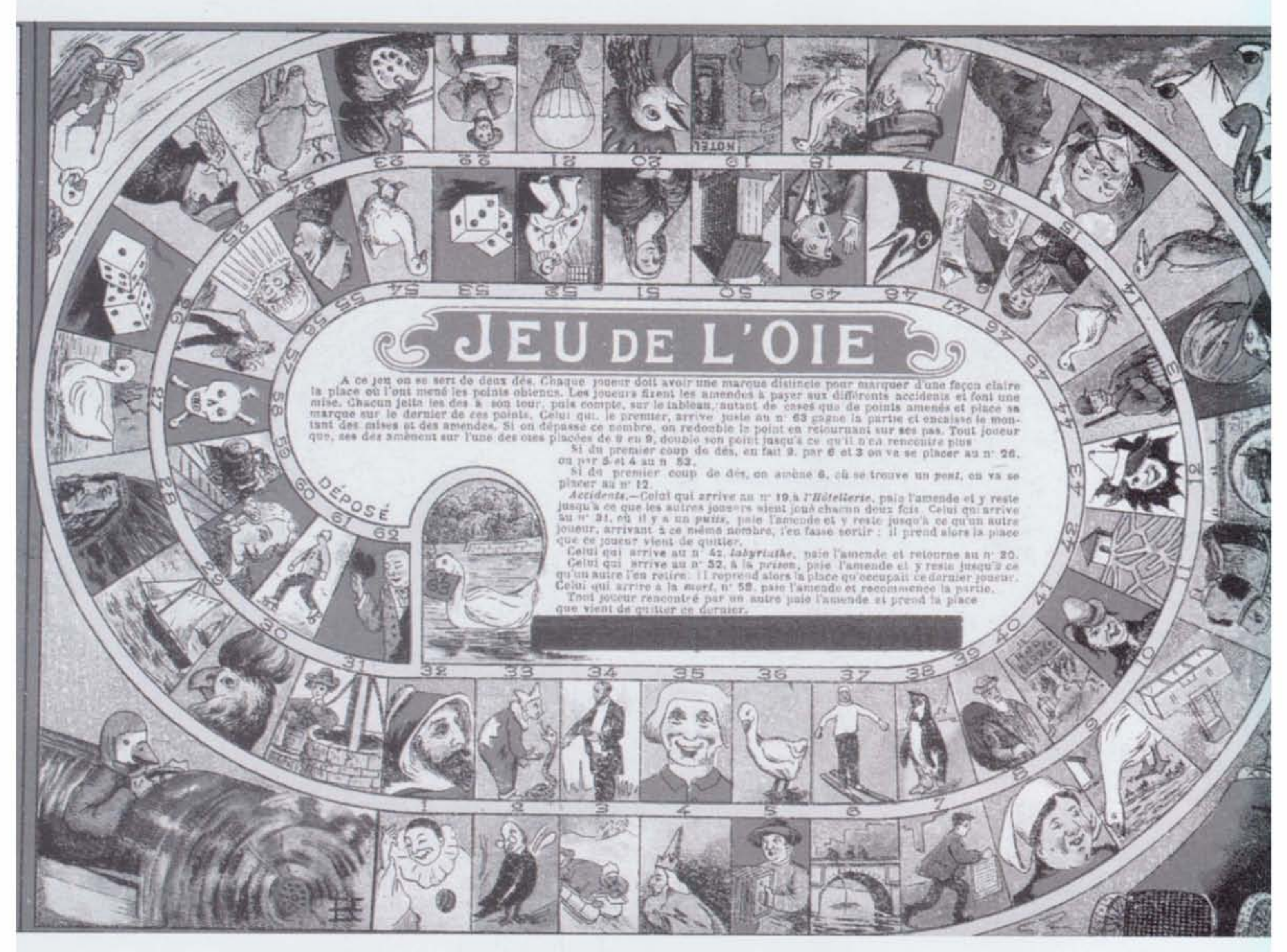
سارت حياتي التافهة وفق لعبة الإوزة. فهل تسير الحكايات كلها
وفق اللعبة نفسها؟ عرف أوليس سجن البوليفيم Polyphème، العملاق
وحيد العين مشبوه بين أغنامه النتنة. اكتشاف النزل الاحتفالي لألسينوس Alcinoos
وبنته نوزيكا Nausicaa، وهي عارية، ساحرة على رمال الشاطئ، يجرُّك عبر المتاهة اللامتناهية،
اللهم إلا إذا تم الأمر صدفة، إلى الاستحمام المتكرر، المسقي بآبار مرعبة، والعواصف والغرق، ناهيك
عن سجون الأوحال المترسخة، وناهيك بالأولى عن المتاهة المحلية للتحوُّلات التي يسببها شراب سيرسي Circé
لأصحابه. أصغوا الآن إلى ما هو أجمل: كان الإغريق يطلقون على البحر نفسه جسرًا. لم يكف أوليس عن عبور الجسر.
يا ليتني وُلدت هيلينيًا! تحكي الأوديسة إذن سيرتي الذاتية، وسيرتك أنت، ومن دون شك، مغامرتنا المشتركة التي تقودها
الآلهة -لكن، أية آلهة- نحو النرد. لكن، من يستفيد من لعبة القدر هذه؟

ألقى إخوة يوسف بأخيهم في السجن، والجبّ، والصهريج. انتظرت رفقةُ وراحيلُ قرب بئر إسحاق ويعقوب، الظمآنين،
فسكبتا لهما الماء. تنشأ المحبة القوية حول هذا النبع الذي تتدفق منه المياه العذبة. بعد سجن مصر، قضى الشعب اليهودي
فيما بعد سنوات في متاهة الصحراء في انتظار أرض الميعاد إلى أجلٍ غير مسمى. فهل سيجيء المخلّص؟ وهل سيعبر اليهود
الجسر الذي يربط التاريخ بالقديس الذي لا يصوّر؟ أم أن المخلّص نفسه هو الذي سيصنع هذا الجسر؟

أيّ حكاية لا تتبع لعبة الإوزة؟ أودّ أن أحكي بدوري، رغم أن مزاجي لا يسمح، حكاية بلدي فرنسا، التي لن نعرف ربما
أبدًا من ذا الذي فيها يحرك نردين ليرميهما على غاسكونيا Gascogne أو اللورين، على بروتانيا Bretagne أو
البروفانس Provence. حينئذ ستظهر المتاهة البغيضة لحروب من غير هدنة ولا سبب، حيث يقتل الآباء
أبناءهم بانتظام كما لو أنهم يكررون الفعل ذاته عند مفترق الطرق نفسه، كما ستظهر السجون المظلمة
للشعب، الذي كان قديمًا مكبلًا بملوكه، فغدا مقيدًا بالإدارة. زوروا هنا الفنادق وقصور لالوار
Loire، وقصر فرساي، والمنازل الغنية في بورج Bourges أو ديجون، تأملوا آلاف
الآبار لكوت روتي Côte-Rôtie وترامي Traminer، وأنجو Anjou،







يمر الوجود بآلاف العقبات: آبار، سجون، سدود وحواجز مصنفة بطريقة عشوائية. هذا هو السبب في أن الحياة تغري مثل ما تغري حكاية مروية. سأتجاوز مع ذلك هذه الإزعاجات، التي تكون جميلة في رواية، وسيئة عندما تباغت. لذا سأغني الخانات 6 و12، حيث يتم فتح أقواس جسرين: كأن الحياة هيأت تحت أقدامي الممر السهل لهوة! بل إنني أحلم أنه في الخانة 63، وهي الخانة النهائية والرابحة -يا للتفاؤل- حيث تسبح الإوزة في بحيرة فردوسية، أحلم أن جسرًا آخر يمتد في الأفق..

لعبة الإوزة في القرن التاسع عشر

الصفحة السابقة: مبادل الطريق، دنفر، كولورادو، 1998

échangeur routier, Denver, Colorado, 1998

وبورغوني Bourgogne أو بوردو، التي يتدفق منها
النبيذ كل موسم... حينئذ، ومن أجل الجسور، كتب مونتيني
Montaigne، في توازنٍ بين القدماء، الرومان والإغريق، وبين هنود العالم
الحديث، كما ألّف فوري Fauré بين الحب ونشيد الأموات، في حين أن موني
Monet انزلق على زنابق الماء الهشة، ودوييل Doyelle ولافيني Lavigne وقّعا بناء
جسر النورماندي. لغة الإوزة بلغة شمال فرنسا ستُترجم بلغة جنوبها لغة اللوك.

أخمن أن السردية الكبرى تتبع اللعبة نفسها. تلعب الطبيعة لعبة النرد سواء في الفيزياء الكوانتية
أم في الطفرات العشوائية للكائن الحي. فهي تستنتج قوانينها وتنسجها، وقد صيغت بدلالة
جواز الزمن وعدم خضوعه للضرورة. إنها لا تعلم أين هي ذاهبة. تتعثر في بعض الأحيان وتتورط،
كما في السجن. تتقدم وتعود لتتراجع، تكرر، تتوقف، تتشعب، وتندفع فجأة في تسارعٍ غير
متوقع، كما هي الحال في متاهة. أهو الموت؟ تذهب الأنواع، والنجوم، والعوالم، والثقافات،
والأفراد... وزورقي، بما فيه من أجسام ومتاع. تتشكّل آلاف الآبار عند الثقوب السوداء. تقيم
السردية الكبرى جسورًا، وهي لا تكفّ عن ذلك، فتربط المادة بالضوء، والجسم العاطل
بالحي، والطبيعة بالثقافة، والقديم باكتشافات هذا الصباح، وعواطف الحب هذه
بدماغٍ في مثل شيخوخة النقاط الساخنة للمحيط الهندي... وتربط كذلك
زمن جسدي، زمن ذرّاتي، بديمومة العالم.

يا لها من لعبة كبرى للمعرفة تربط دمي بكوكبة النجوم!

جدران ومدن وجسور

أعتقد أنني أكره المدن.

أعتقد أنني أكره المدن. أكره البذخ الكنسي القوطي الجديد فضلًا عن المسرح السياسي، المزود بالتماثيل بشكل رتيب: جوبيتر Jupiter، وتفاخر الجدران العسكرية والنصب التذكارية للأموات: مارس Mars، البناء الاقتصادي والمالي: كويرينوس Quirinus... يزعجني كل هذا العرض غير المحتشم للمعمار الهندسي الذي ينشره الطغاة لسحق البشر. هذه الأحجار التي نُحتت على شكل مربعات، أو على شكل نقاط حادة، وهذه الاستقامات المتفاخرة، وهذه الكاتدرائيات القاسية ذات المشابك الحادة، وهذه القلاع المزركشة بالشرفات، وناطحات السحاب المتباهية، كل هذه الأشكال من العنف الجامدة، تطرد حريّتي خارجًا نحو الأرياف.

مدن الموت: هي العواصم الكبرى، إنها مقابر. تحفظ المدن أكثر ذكرياتنا سوءًا: شهداء، مشاحنات، صراعات... سياسات أدت بالأبناء إلى الموت، شباب سقطوا في ساحات الرعب، هيّأهم الآباء لذلك. سجن الذاكرة هذا يقتلني. في المدينة أعيش زمانًا بعيدًا عني، أدخل بين الأعشاب والأشجار.

أكره وزارة الدفاع لشانغهاي الجديدة، أو تلك القديمة لشيكاغو ولنيويورك. يعمل بعض الذكور على إثارة الإعجاب بانتصاب يزعمون أنه لهم: أبراج أجراس عالية، قلاع مدهشة، ناطحات سحاب، انظروا إليّ كم أنتعظ بشدة وعلوّ! أتمنى أن تبني شقيقاتنا الإناث بناءات أكثر رفقًا: يُكثِرن من الأزقة والممرات الأفقية الهادئة، وأنفاق المواصلات، وعريشات مجهزة بالكراسي للمحادثة، وحدائق تخلو من البناءات، وجسور.

أحب جسر ماري، أحسن جسور باريس، أحب جسور بودابست وفيينا الملقاة فوق نهر الدانوب الأزرق، أحب الغولدن غيت Golden Gate، الشبحي في ضباب المحيط الهادي...

أكره المدن،
أنسى عنفها عندما أخلد إلى النوم بقرب المياه، وتحت جسورها.

منزل فقير، قبو ناعم وحماية، قوارب تطفو في حلم ضياء، بيت سعادة.
براساي، حوالي 1935



جسر ماري

أحببت أن أدخل مدينة كيبيك، على نهر سان لوران، تحت جسر الكيبيك.
وسان بيترسبورغ على نهر لينا Lena تحت جسر الملازم شميت Schmidt.
ومونتي فيديو على ريو دو لابلاتا، تحت تصوُّر جسرٍ ينبغي تشييده.
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أحببت أن أدخل لندن، على نهر التاميز Tamise، تحت جسر التاور Tower.
ولشبونة، على نهر تاغوس، تحت جسر 25 أبريل.
وخليج سان فرانسيسكو، تحت الغات الذهبي.
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أيها المارون القساة الذين تطأ أقدامكم الجسور، هل يمكنكم أن تتخيلوا النعومة التي يستشعرها أولئك الذين يمرون تحت؟
الصورة تحت: بيسكاين باي , Biscayne Bay والصورة جانبه: جسر فاسكو دو غاما، لشبونة، 1998
الصفحتان التاليتان، باريس، جزيرة دو لاسيتي، بين جسر نوف وجسر ماري.

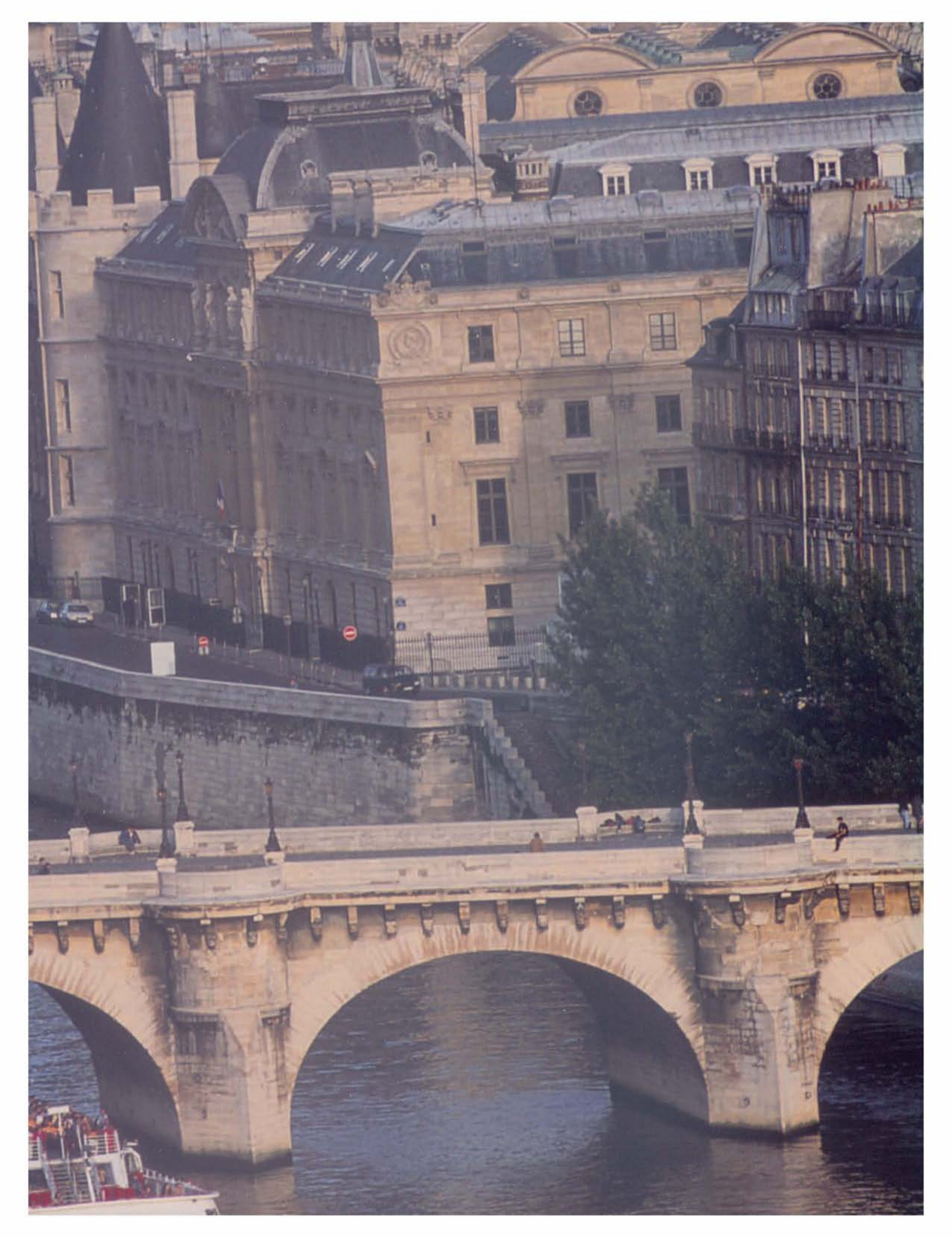


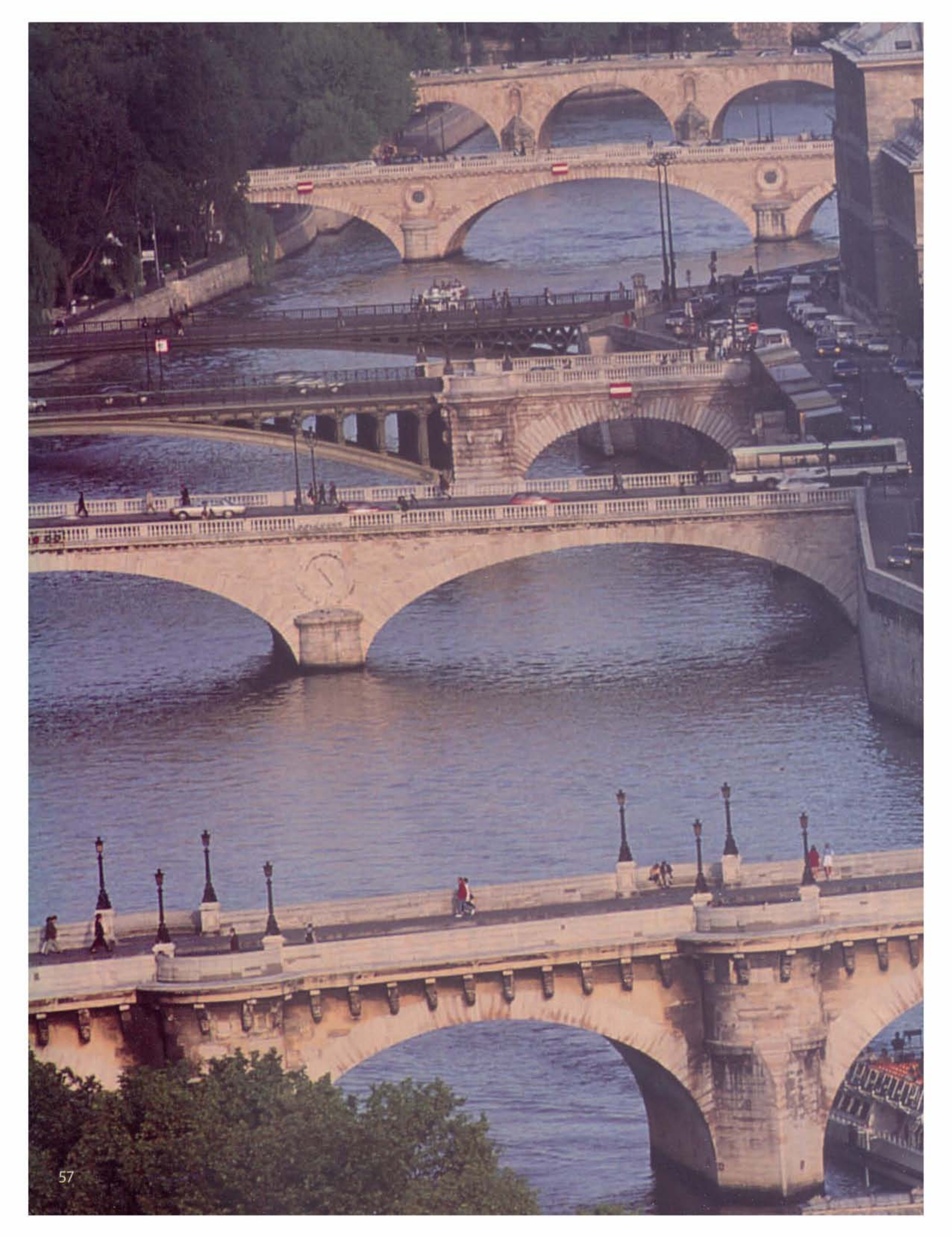


أحببت أن أدخل خليج سيدني، تحت جسر هاربور Harbour،
ونيويورك، على نهر الهدسون Hudson، تحت جسر البروكلين Brooklyn،
وخليج لوساكا، حيث كاد زورقي أن يتيه في فوضى جزره، بين الجسور العديدة التي تمتد عليه.
أحبّ أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أحببت أن أدخل بحيرة بونتشارتران Pontchartrain، على أطول جسر في العالم،
وبوردو، تحت جسر الأكيتين Aquitaine، وخليج آلونغ Along، من غير جسر.
أحبّ أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أحببت أن أدخل بريست، على البونتفيلد Penfeld، تحت جسر الريكوفراتس Recouvrance،
وقاعدة ريو، تحت جسر الرئيس كوستا في سيلفا Silva،
وبوفالو Buffalo، على بحيرة إيريي Érié، تحت جسر السلام.
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.







وحدهم أولئك الذين يبحرون تحت بون-نوف (1604) يرون الوجوه التي تستقبلهم عند الوصول قرب لا سيتي. أنت الذي تعبر هذه العتبة دع عنك كل جدّ وكل مأساة، فأنت تقتحم باريس البهجة لوغي-باريس.

هل حصل أن ارتعشت من شدة الرعب كتلك الأيام والليالي حيث لطخ نوع من الاندفاع لصالح الألعاب الأولمبية -تلك المباريات الخبيثة غير المجدية حيث نستنسخ تحت شكل قفزات ومسابقات، الترتيب الإجمالي لثروات الأمم- جسر ماري بألوان قبيحة؟ بدا كما لو أننا وضعنا على تمثال فينوس كنيدوس la Vénus de Cnide كسوة خارج الموضة اشترتها عاهرة متقاعدة من مبيعات الأثواب البالية كي تحضر حفل الالتئام الديني أول مرة بعدوانية واستياء. هل رأى "الفنان" جسر ماري باريس، أكثر الجسور نبلًا، وأميَل لأسلوب الباروك ولقليل من اللانتظام، والمتناسق مع ذلك بما تتميز به أعمدته من تغيُّرات، والمستقيم رغم انحناءات خزائنه، إنه فعلًا مميزٌ محتشم، يكاد يكون قدسيًّا؟ كم هو قليل عدد النساء اللواتي نعرفهن يقلّدن هذا السلوك في سرّيةِ نبله؟ لا تعطي باريس نفسها لأول القادمين على الفور وباستعجال، مثلما هو حال البندقية أو مدن سياحية أخرى.

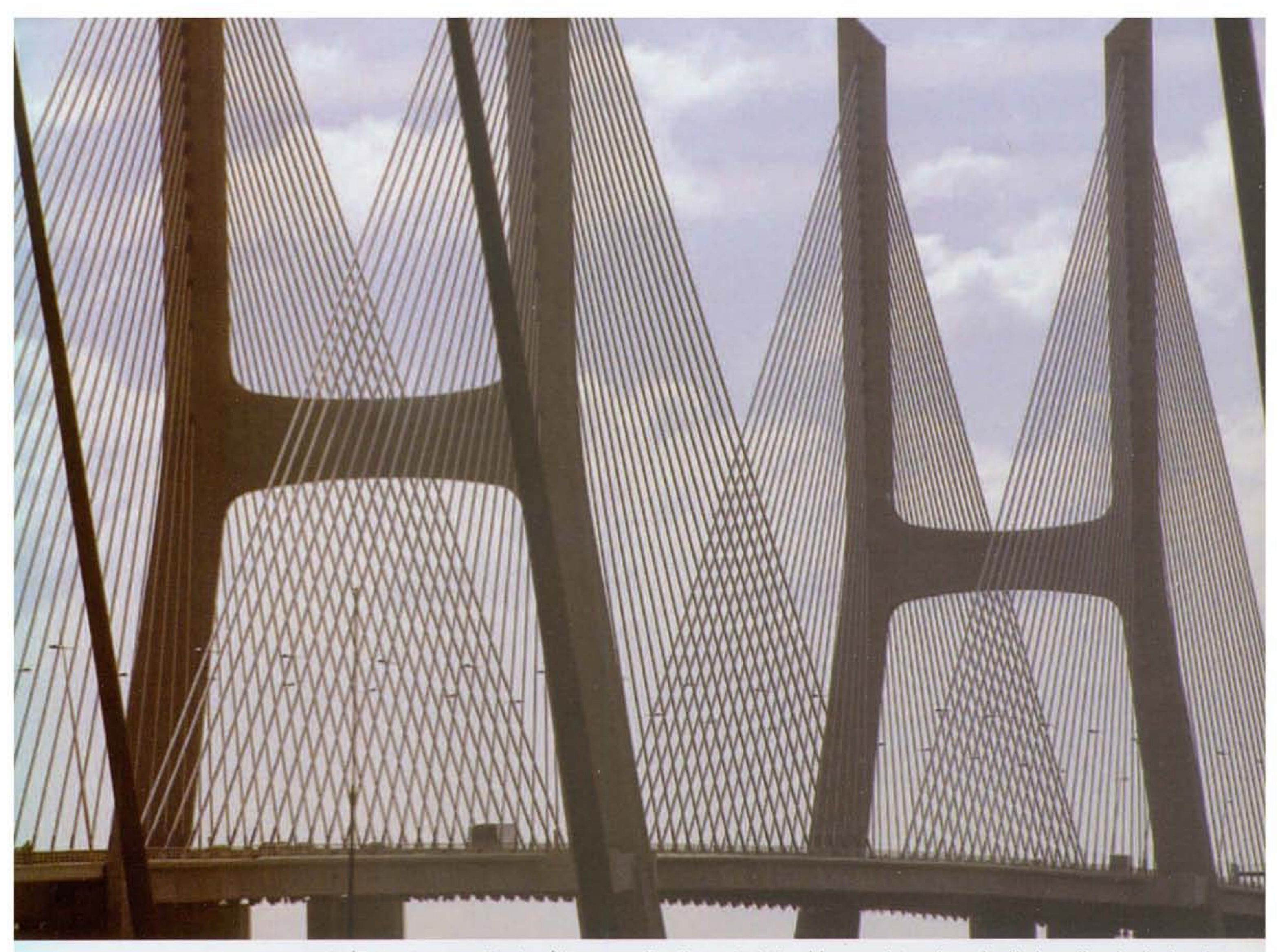
لم يكن عليّ أن أحتفي بجسر ماري، أكثر جسور باريس جمالًا:

لا داعي إلى إشهار الروعة الحقيقية المحتشمة.

أجسام ميتة لإرساء جسر

يحكي ميشيل برنار، وهو يبني، من أجل فانسي، جسر فاسكو-دوغاما، على بحر القش الذي يوسع تاغوس Tage، في لشبونة، أنه اضطر في الأيام الأولى أن يفرض على طاقمه أن يبلّلوا بالماء أجسامًا ميتة كي يتبينوا النقاط المحددة التي يتم عندها إرساء الأعمدة. بما أن العمال كانوا يتشاركون ثلاث لغات على الأقل، الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية، فقد زوّد المكاتب بالعدد نفسه من المترجمين. لحسن الحظ أن اللغة الإنجليزية تطلق عبارة dead men على هذه التجهيزات البحرية. لكن،

ما الحال بالنسبة للبرتغالية؟

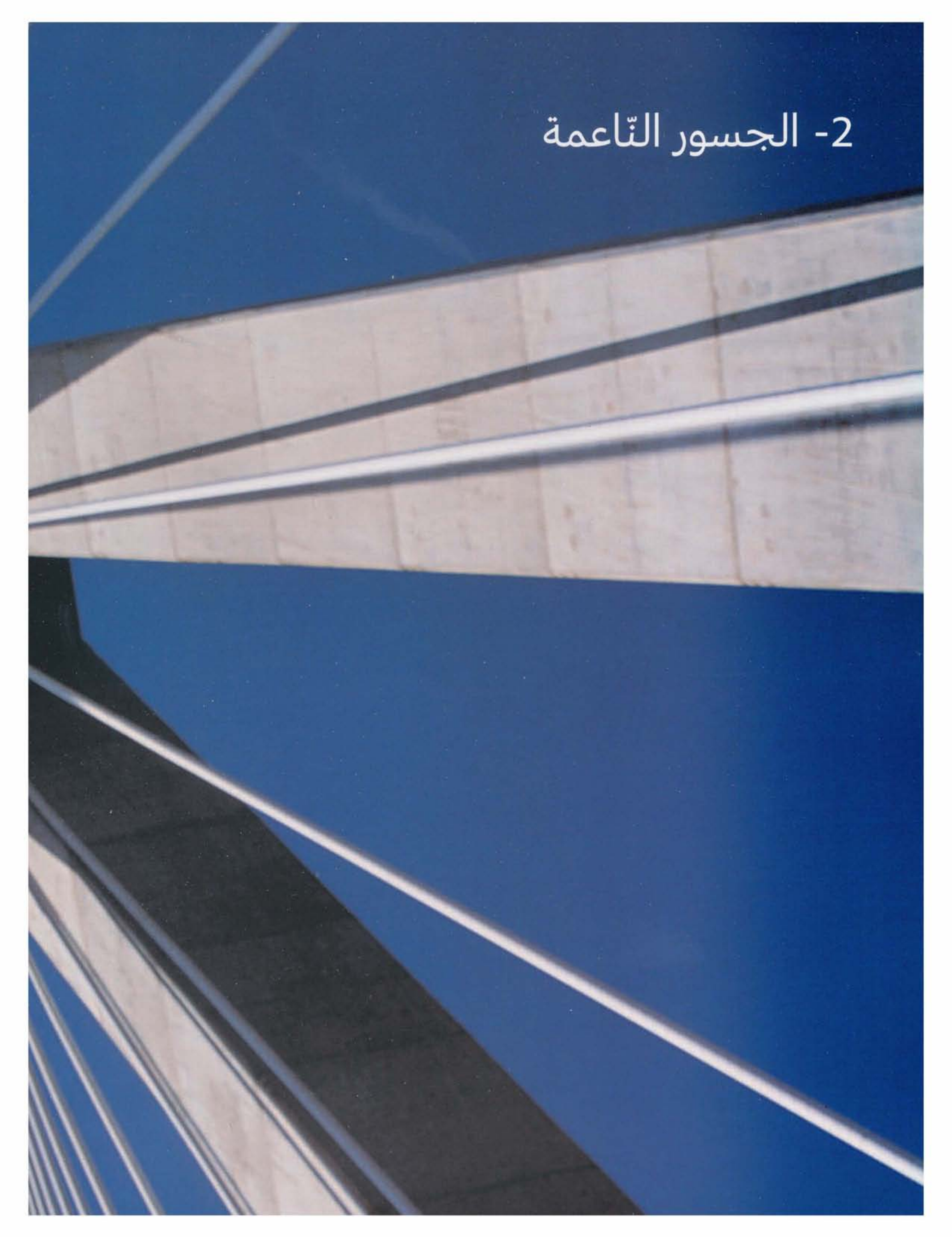


هل تترك الصلابة السوداء للصاري على شكل حرف H ، المكان لخفة الحبال ونعومة الأصوات التي تبعثها هذه الأوتار؟
قبل أن يقوم هذا العمودي، أجسام ميتة دعمت هذا الاهتزاز الحي. غالبًا ما نعتقد أن أمواتًا يرقدون عند أسس الجسور. كثير من الحكايات تروي ذلك. جسر فاسكو دو غاما 1998.
الصفحتان التاليتان، جسر ريون-آنتيريون، اليونان، 2004.

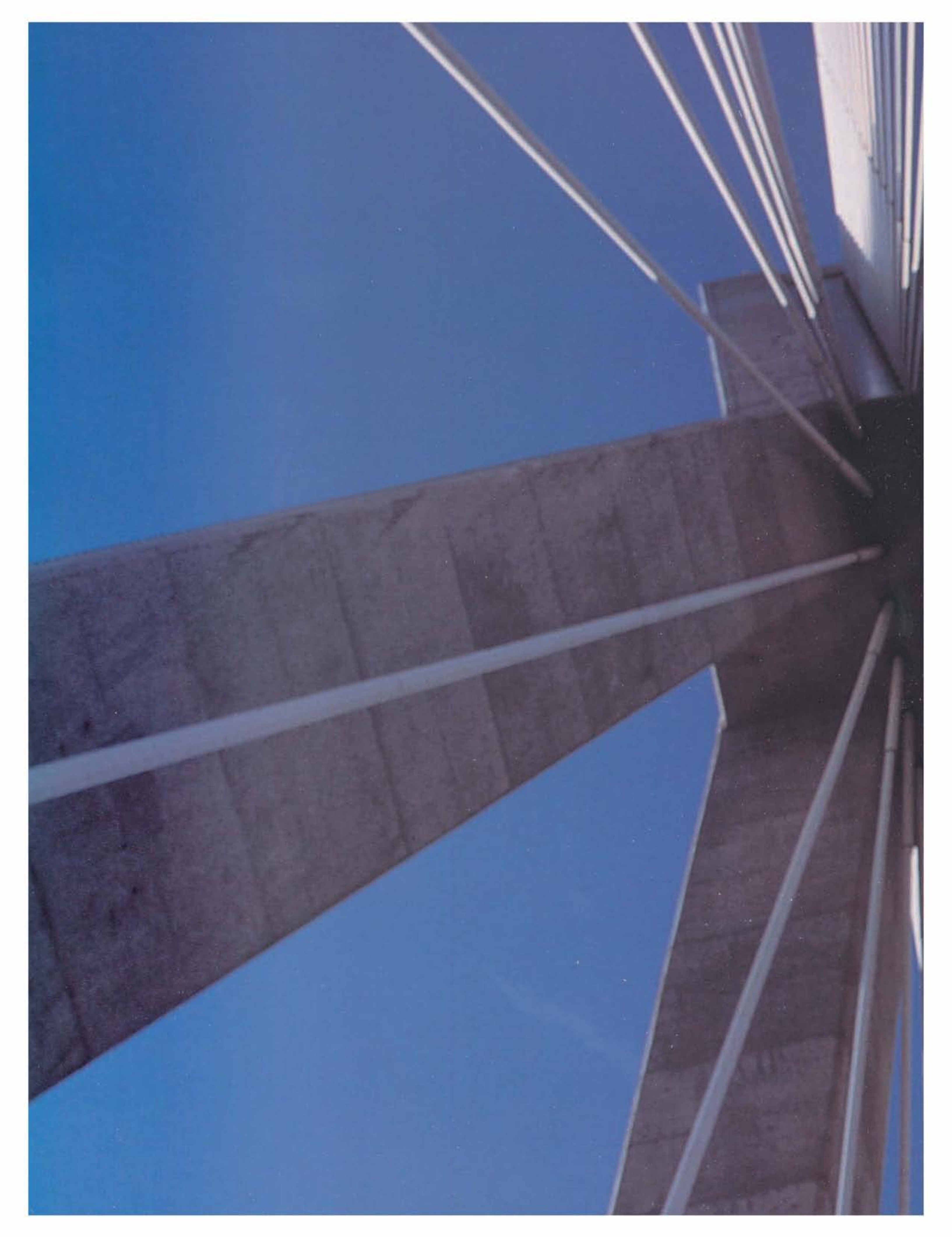
بعد يومين، استقبل ميشيل برنار في مكتبه، زيارة مفوض الشرطة، محاطًا بمساعدين يحملون أصفادًا. سأل رجل القانون، مقطبًا حاجبيه: كم عدد العمال السريّين الذين تُغرقونهم كل يوم؟ غمغم المتهم مستاءً، خصوصًا، وأنه رأى صورته على صفحات جريدة الصباح مرفوقة بالمتهم. كانت الصفحة الأولى تتهم المقاولة بأنها تقتل العبيد. ذلك أن المترجم البرتغالي، عديم الخبرة، كان قد ترجم «أجسامًا ميتة» بالجثث.

ابنوا جسرًا حجريًا أو حديديًا، لكن شريطة أن تبنوا قبله جسرًا بين اللغات.

وهكذا يذيب الناعمُ الصلبَ. من كان يصدق هذا؟



2- الجسور النّاعمة



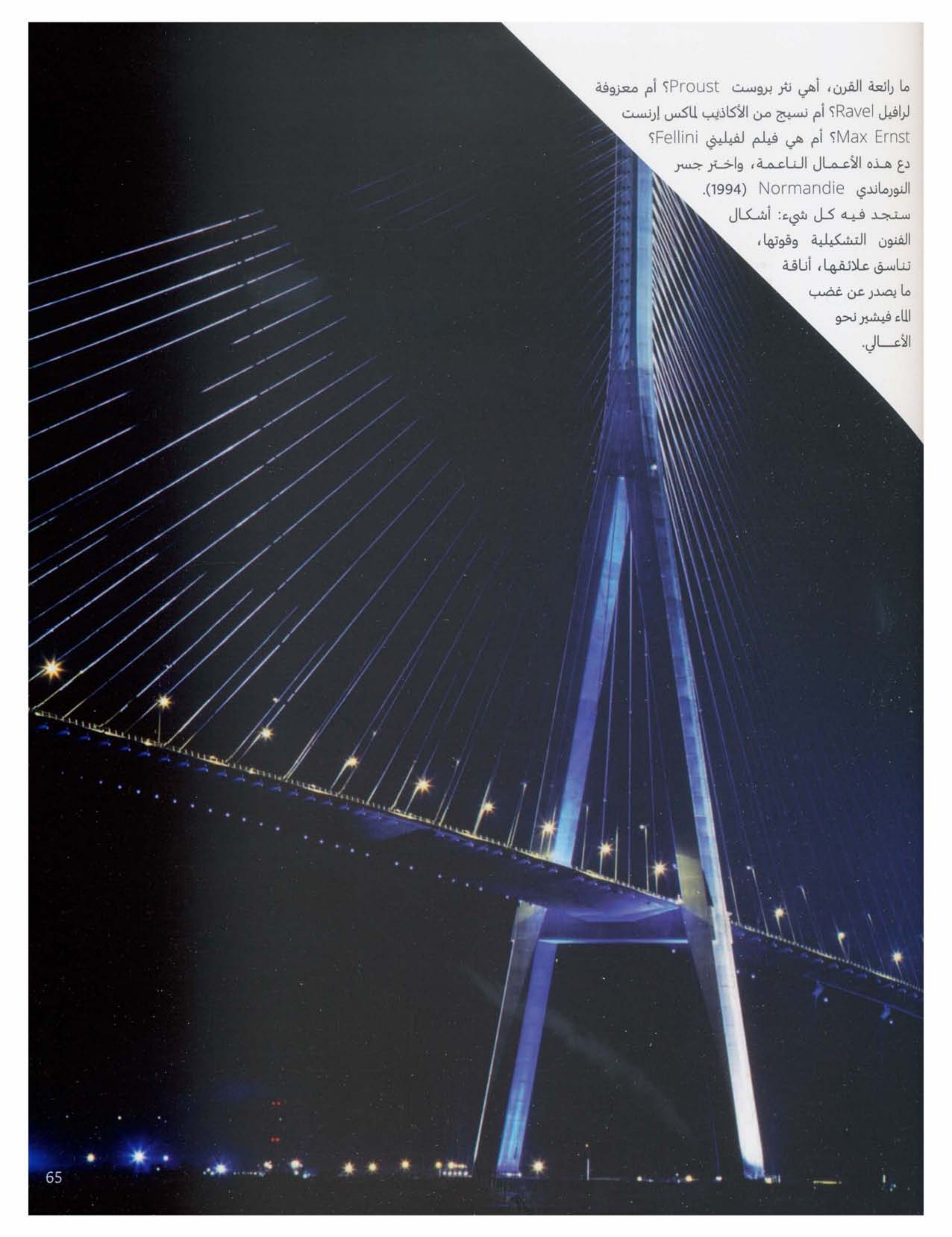
موسيقى وضجيج خلفي: جسر نورماندي

قبل أن تتلاشى أحجار رصيفٍ طويلٍ يسير
مع التيار في البحر، كان جسر نورماندي، ذاك
التمثال ذو المحورين العاليين المزركشين بأسلاك، يقف حاجزًا
ضد مصبّ نهر السين. هل تخفّف هذه القيثارة الموضوعة هنا ضجيج
اضطراب الأمواج وصفعات الريح؟ من يصغِ إلى ما تسرّبه من صخب الرياح والمياه
الفوضوي، فسيُدرك روعة هندستها: تعترض أوتارها مخالب الرذاذ والنسيم العليل كي
تعزفها في موجات منتظمة، مسموعة أولًا، ومتناغمةً فيما بعد. طبيعة في المصب، حطام، غثيان،
غرق داخل البحر، وثقافة في المنبع نحو مدينة رُووان Rouen وباريس وهضبة لانغر Langres.

بالتأكيد، إنها تجتاز النهر من ضفة إلى أخرى، ولكن ظاهريًا فحسب، ذلك أن العبور يتم في الحقيقة
بصعود نهر السين، من المحيط نحو الحقول والمدن المزروعة، ومن الصيحات العنيفة إلى الإشارات
المهذّبة، ومن الموجات المريرة نحو العذبة. إذا رجعتَ القهقرى على انهيار التجمد النهري، ستكتشف،
فيما وراء المياه المتوحشة، فرنسا التي تلقّت تربيتها وثقافتها منذ آلاف السنين. من أجل هذا التحوّل،
كان يلزم جسرٌ-قيثارة.

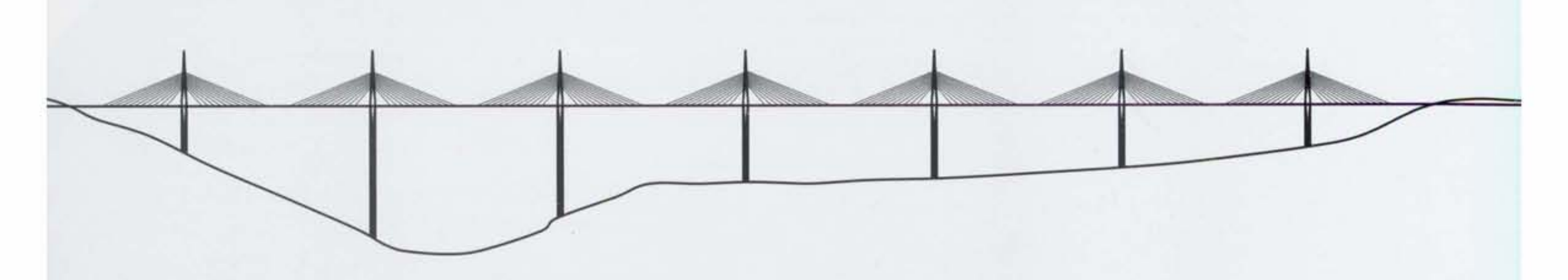
كل فن عظيم أصلُه الموسيقى، لأنها تُحوِّل الضوضاء الخلفية إلى معنى أوّلي. يتخلص قصر العدالة
بمدينة رُووان بشكل مبهج من الدهماء التي تصيح "لتسقط" أمام كومة الحطب التي ستحرق
جان دارك. تغلف نوتردام بناقوسها إزعاجات باريس، ويغطي أرغنها العظيم الالتواءات
القوتية لواجهتها. وأخيرًا، نحو منابع النهر، تلك المنابع التي نعتها بوفون Buffon
بالمتناقضة بين التلال المنحدرة التي تتداخل تداخلًا عشوائيًا، كان ديدرو Diderot
يلقي خطابه أمام الطرش. ولكن، قبل رووان، باريس ولانغر، وضع عبقري
فرنسي البِركة التي سمحت بوجود جان دارك ونوتردام وجاك Jacques،
ذلك الجسر الذي يشكل تحفة القرن العشرين. كل فن عظيم يصنع
آلة موسيقية، آلة الترشيح التي تترجم الضجيج. لسماع شيء
ذي معنى، يكفي عبور هذا الجسر، قيثارة أو رباب، ولكن
بمعنى المياه والرياح.

ألا ليت سطور هذا الكتاب، وأسلاكه، تهتز بفعل نسيم البحر.



ما رائعة القرن، أهي نثر بروست Proust؟ أم معزوفة لرافيل Ravel؟ أم نسيج من الأكاذيب لماكس إرنست Max Ernst؟ أم هي فيلم لفيليني Fellini؟ دع هذه الأعمال الناعمة، واختر جسر النورماندي Normandie (1994). ستجد فيه كل شيء: أشكال الفنون التشكيلية وقوتها، تناسق علائقها، أناقة ما يصدر عن غضب الماء فيشير نحو الأعالي.

قنطرة مِلّو Millau



تحملُ قنطرةَ ملّو سبعةُ أعمدة،
وبالتالي سبع مرات، حزمتين من أحد عشر
سلكًا، لا شيء غير الأعداد الأوّلية. هناك أصحاب آداب،
ثم هناك أصحاب حساب. أنا أحيا وأفكر بصحبة الأعداد، أحلم
بها، وأتذكرها، وأعبّر عنها وأغنّيها، لشدة ما تخدمُ الموسيقى. هل لاحظتم
الوضع العشوائي للأعداد الأولية بين متتالية الأعداد الصحيحة؟ إذا استعرضتم بداية
سلسلة هذه الأعداد، فبإمكانكم أن تنتظروا طويلًا، فهي تأتي دون سابق إنذار. على
طول السلسلة اللامتناهية، تزرع جواهر لامعة، وغير مرتقبة.

وهكذا فهي تقدّم نموذجًا بسيطًا عن العالم وعن البشَر. تيهُوا إذن في الفضاء الشاسع،
سيروا مشيًا على الأقدام، وسافروا بحرًا، برًّا أو في الهواء، فإنكم ستصادفون فجأة إحدى
هذه الكرات من الامتداد الثمينة، والتي يضبط صوتها بشكل عشوائي إيقاع تنقلكم المنبهر هنا.
تزيّن أماكنُ جميلة العالمَ مثلما تدهشكم الأعداد الأوّلية ضمن سلسلة الأرقام. لا تتردد إذن
في أن تشتت الحشد أو أن تلتقي بالمنعزلين. فجأة، ها هي امرأة حياتك، وها هو العبقري، أو
الرجل البسيط الذي يوائم بينكم وبين القدسية. في العالم أماكن أوّلية كنجد ميجان Méjean،
ومرتفع سيرفان Cervin، ومحبوبتي. من النّاس أصحاب آدابٍ، وأصحاب حسابٍ، نساء ورجال

كانت
السماء
تمطر، حين
كان عليّ عبور الوادي.
رافقني جني: كان يحمل في
يديه سبع مظلات، كان
يستبدلها عند كل عمود.
خرجت من الهاوية
بفضل حمايته. من
التكرارات ما يرهق،
ومنها ما يريح
مثل تكراراته.

كونه يذهب للبحث، ضمن
أنقى ما في النقاوة، عن أكثر
البساطات شفافية، والمكونة من
خطوط وزوايا، كي يصنع منها، على
نطاق أوسع، صورة عن واقع يخفيها، رغم
أنه مصنوع منها، فذلك تمثُّل عجيب عن الحقيقة!

ذلك أنني أنوي أن أعثر، في الوادي بكامله الذي يشرف عليه
الصرح، على عشرة فروع من الأشجار، ومئة أعشاب متواضعة،
وواحد وألف شبكة عجيبة من اللمفاويات، والأعصاب والدماء في
الكائنات الحية، وملايين من البلورات، ومليارات الجزيئات أو
الذرات التي يقلد شكلها وزواياها ونسبها وأعدادها، خطاطة
هذا الجسر، أو يعدل منها. أمر غريب وسط البيئة، فهل
يخلقه مع ذلك كمصفوفة رياضية؟

يجسر التجريدُ الواقعَ بكلّيته.

يضاهون الأعـداد في أوّليتها. لا يمكن
لقنطرة ملّو، بما هي معزولة تمامًا عن
البيئة، وبما هي ذات شكل هندسي، متعدد
المثلثات كما الأصل الأفلاطوني للعالم، وبما هي
ملتوية كما النشوة في منتصف عمر قاس، كلا، لا
يمكن لتلكم القنطرة أن تتظاهر بالاستقرار في البيئة،
كما يقال اليوم، وذلك لأنها تمنع الوادي مثل خطاطة
لا علاقة لها به. تصل إلى هذا المكان كما يحصل للرياضيات
أن تهاجم، ذات صباح، الأطفال بعنف يشبه الصاعقة، من
غير تمهيد ولا مقدمات، بفظاظة، تحاكي في غرابتها باخرة ذات
صوارٍ سبع على أرض اليابسة، أو آلة موسيقية ضخمة في وسط ريفي
عادي. هل تتذكرون لوحات هوبير روبير Hubert Robert التي تضع
الحظيرة، بكلئها وأبقارها بين حطام المتحف الكبير للوفر Louvre؟ أحب
هذا الغريب، خبزي اليومي. نعم، إن الفن يخترق الريف من غير أن نراه. نعم،
إن الأمل يلمع كحبّة قش في الحظيرة. نعم، إن الفخامة تطارد التقزم. نعم، بعض
الحيوات البائسة والفاشلة، يمكنها أن ترقى نحو نجاح متفوق. نعم، إن الصوري
النادر، يمكنه أن يطارد الواقعي الثري. نعم، يضم العالَمُ الهندسةَ، التي تعمل بدورها
على تشكيل الكون وصنعه. نعم، إن اللانهائية النادرة للأعداد الأولية، بما هي مشتتة
ضمن لانهائية الأرقام، فإنها تولد جميع اللانهائيات الأخرى. نعم، بما أن المجرد أكثر واقعية
من الواقع، فإنه يبني الواقع ذاته. إن كون مهندس يعمل، على خلفية فال العملاقة، على إبراز
الطبيعة الحقيقية للأشياء، وسط ثرثرة تافهة تكرس يوميًا عكس هذه الحقيقة البديهية، وكونه
يثبت للأشخاص الذين يسرعون لرؤيتها، أنها تتشكل عن طريق الصورة.. فهذا لعمري خبر سارّ! إن



بين زرقة السماء والسحب، وعلى العشب الأخضر، والأزرار الذهبية ومدادات التراب، أراهن أنني سأجد دون صعوبة بلورات وخلايا وجزيئات وبروتينات، وأشكال ذرية، يحاكي شكلها انتشار هذه الخيوط وهذه الأعداد، وهذا السطح العمودي، وهذه الأفقية الدقيقة، ومجمل القول، هذه الدقة العملاقة. نعتقد أننا وحدنا قادرون على بناءات ضخمة لأشكال هندسية، كلا، فإن الأجسام العاطلة تكررها في الجسيمات الصغيرة وفي الأجسام الكونية، أما الكائن الحي، فهو يقلدها في جانبها المصغر.

جسر فيادوك دو ميلو، 2004.

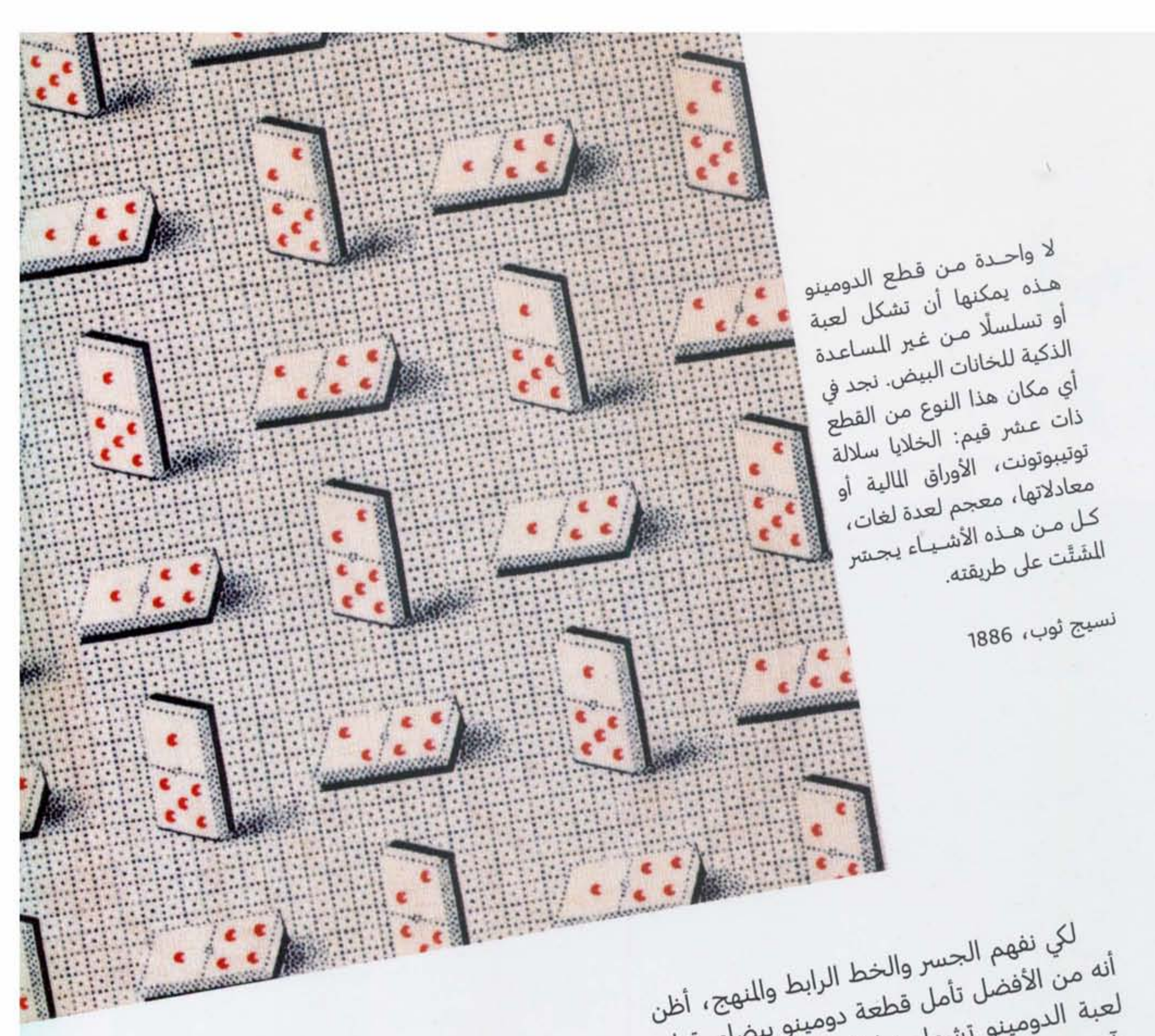


تجسير 1

بأية أخشاب، بأية أحجار وأيّ إسمنت ينبغي بناء الجسور كي تتمكن من الربط بين ضفتين مختلفتين؟ كيف يمكن للمادة عينها، خشبًا كانت أم حديدًا، أن تلمس في الوقت ذاته اليمين واليسار، فرنسا وألمانيا، الدنيا والفردوس؟ سرّ البساطة نفسه في خطوط الربط، وها هي ثلاثة أمثلة على ذلك. إذا كان الكلب-الذئب يجمع بين اثنين من الكلبيات، إحداهما لاترانس latrans، والأخرى لوبوس lupus، الأولى متوحشة، والثانية أليفة، فيبقى أن هناك سلفًا مشتركًا يقرّب بينهما. المثال الآخر إدراكه أكثر صعوبة، فالوضوح-الغامض يمزج ضوءين متعارضين، أحدهما يشع، والآخر يُعمي. مثال ثالث يذهب بغموض الربط وبساطته إلى الحد الأقصى، فيسوع-المسيح يجمع بين اسم ساميّ وصفة إغريقية الأصل. وهكذا فهو يؤسس لعهدٍ ستتخلى فيه شعوب تتكلم الهند-أوروبية عن شعائر أراضيها وآبائها كي تعتنق ديانة ثقافة أخرى، وعائلة لغوية أخرى. إنه لا يكتفي بأن يترجم هذا التحوّل، وإنما يجسّره.

بما أن الجسر خط رابط مجسَّم، فهو يصهر المتخالفين في وحدة. فعلى البوسفور، يربط بين أوروبا وآسيا، لست أدري ما إذا كان يغير، ويترجم، ويحوّل أو يقلّب رأسًا على عقب، إلا أن مادته وجوهره، خشبًا كان أم حجرًا أم إسمنت، يتكيف مع شواطئ لا علاقة بينها. أرى الكلّي سواء في الخط الذي يربط كلمتين، أم الجسر الذي يقارب بين ضفتين. على جسر كيهل Kehl، نرقص في الوقت ذاته في ألمانيا وفي فرنسا، لا في فرنسا ولا في ألمانيا، لا هذه ولا تلك، فيهما معًا. أهو المنطق الشيطاني على جسر الشيطان Diable، في كاهور Cahors، على نهر اللو Lot، أم هو المنطق الإلهي على جسر الملائكة Anges، على نهر التيبر Tibre في روما؟ مرة أخرى أقول: هما معًا. ذلك لأنه إذا كانت المعركة على أشدها في جسر أركولي Arcole أو على جسر نهر كواي Kwaï، فإن الحب يجمع بين الأنثى والذكر في عملية لا يمكن لأيٍّ كان أن ينعتها بالمذكرة أو المؤنثة.

ألا تسخَر الراحة والسلام والسكينة، مثل السعادة والوفاق والافتتان والوجد، من المنطق؟ للقلب أشكال من الدقة لا تعرفها الدقة نفسها. من غير جسر، ما من طريق. أعني بهذا ما من رابطة من نقطة إلى أخرى متميزة عنها تمام التمايز. من غير جسر إذن، ليس هناك منهج، وأعني به طريقًا من الذات إلى الآخر. ولكن، ألا يسخر الجسرُ كذلك من المنطق أو المنهج؟ كيف؟



لا واحدة من قطع الدومينو هذه يمكنها أن تشكل لعبة أو تسلسلًا من غير المساعدة الذكية للخانات البيض. نجد في أي مكان هذا النوع من القطع ذات عشر قيم: الخلايا سلالة توتيبوتونت، الأوراق المالية أو معادلاتها، معجم لعدة لغات، كل من هذه الأشياء يجسر المشتَّت على طريقته.

نسيج ثوب، 1886

لكي نفهم الجسر والخط الرابط والمنهج، أظن أنه من الأفضل تأمل قطعة دومينو بيضاء. قطع لعبة الدومينو تشمل عادةً عددًا على اليسار، وآخر على اليمين، بعض القطع تشمل بياضًا في جهة، ورقمًا في الأخرى، قطع أخرى تشمل بياضين أو بياضًا مزدوجًا. الخط الواصل يلعب دور هذه القطعة المزدوجة، التي يمكنها من جهة أن تعادل عددًا أو رقمًا، وليكن هو العدد 5 على سبيل المثال، ومن الجهة الأخرى يمكنها أن تعادل عددًا آخر، وليكن هو العدد 2 على سبيل المثال. قطعة البياض المزدوج تربط إذن بين 2 و5، يمكنها كذلك أن تربط بين 6 و3، أي رقم برقم آخر كيفما اتفق. هذا هو المكافئ العام، وهذا هو الرمز العام الذي كنت أبحث عنه. إن هذه المعادلة تغمر الخط الواصل الناعم، والجسر الصلب، بحيث يسمح لنا بياضُها بأن نتخيّل منهجًا كليًا عامًا.

والحال أن كلمة منهج تعني طريقًا يمر عبر، وبالضبط تعني معبرًا. إنه جزء من مكان مألوف، يقود نحو مكان مجهول. إنه يربط المشكلة بحلها، يربط المعرفة بالجهل، البحث بالاكتشاف.

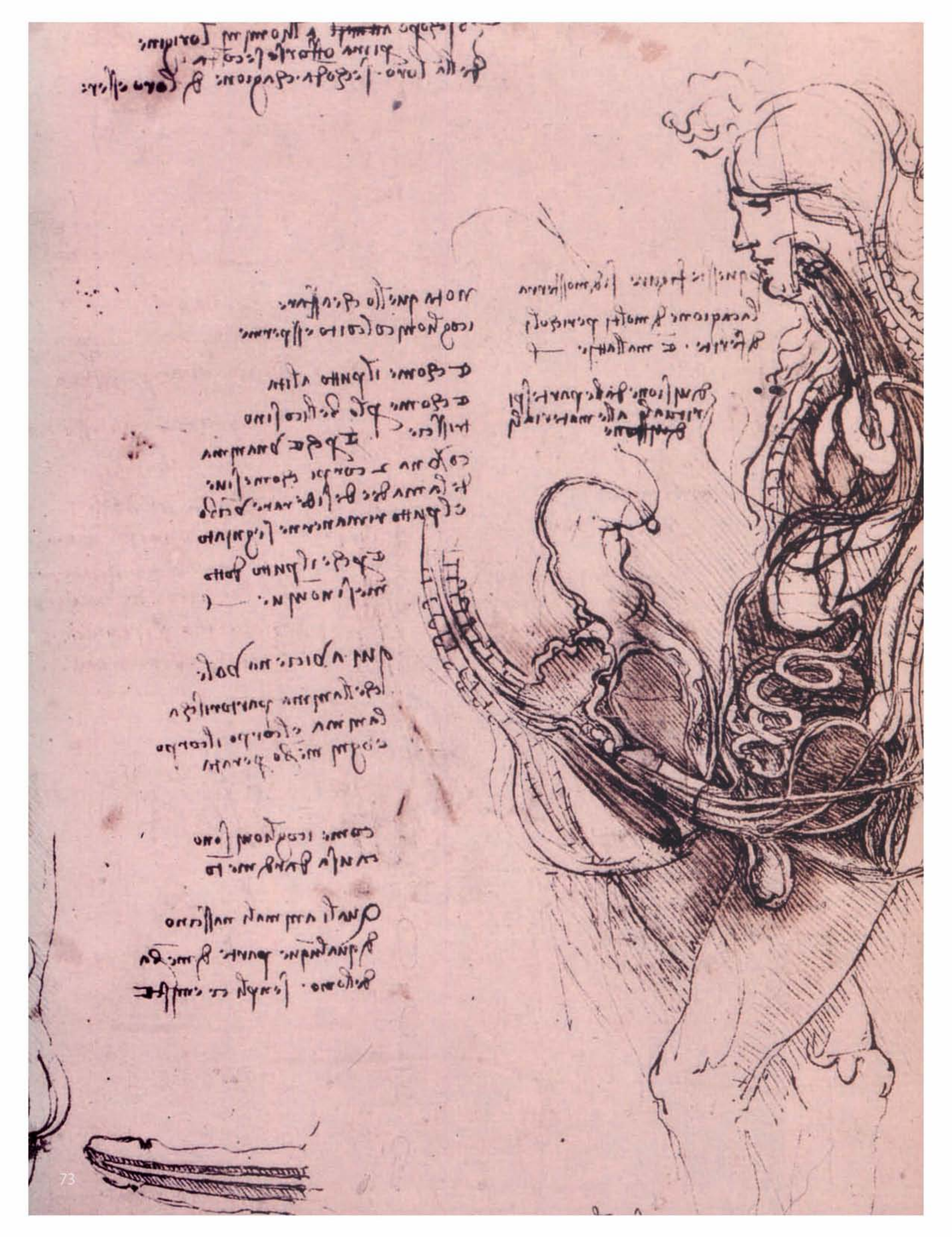
وعلى العكس من ذلك، فإن الجسر يرمز بمعبره إلى منهج، بل إنه يجسده. إنها مفارقة البياض ذاتها، وهي البساطة العامة عينُها، ناعمةٌ في حالة، وصلبةٌ في أخرى. تظلان معًا متناغمتين، في الجانبين معًا، يمينًا ويسارًا، هذا في حين أنهما تربطان فضاءين لا علاقة تجمعهما؛ إحداهما عن طريق الرموز والمعادلات، والأخرى بالأحجار والإسمنت. إنهما يعملان مكافئين عامّين للعلاقة كما يقول الرياضيون.



تحابوا ولا تتحاربوا. إلا أن الحرب تفترض علائق قانونية محددة، وتجسيرات متماثلة. على المتحاربين أن يعلنوا الحرب، وأن يتواجهوا في نفس ساحة المعركة، كما على أسلحتهم أن تتشابه، رماح وأقـواس متشابهة، دروع متشابهة، سيتغنون بأبطالهم وسيرثون أمواتهم. الخلاصة أنه بدخولهما في هذا الصراع، الذي يمكن أن يدوم مئة عام أو التاريخ كله، سيتواجه أرمانياك Armagnacs وبورغينيون Bourguignons على جسر..

جسر يشبه ذاك الذي يحارب فيه الذكور الأمـازون. فعل يحدده القانون، تبتدئ الحرب، وتنتهي بتوقيع اتفاقيات. وهكذا فهي تحد من العنف الجماعي الذي لا يتبع قواعد إذا ما تمت في فوضى الجميع ضد الجميع. فبدل أن يفجر العنف، فإن الحرب توجهه بحيث إن الجيش يساهم في السلم مثلما يساهم في الحرب والمواجهة. نطرح الآن سؤالًا يخص الذكور والإناث: كيف يحد الحب من العنف الفردي؟ وعلى أي جسر؟

فوق: أخبار سان دوني، القرن 14
Chroniques de Saint-Denis, XIVe siècle
جانبه لوحة لليوناردو دا فينشي، 1492



تنتهي خلية سرطان البروستاتا بأن تنقسم. هذا هو الفصل النهائي لهذا الازدواج الخلاق، الذي لا ينتظم ولا يتوقف، يربط التحلل الخلوي الخلية الأولى بمضاعفتها عن طريق جسر سيتوبلازمي. هل يذكرك هذا بميكيل آنج، وهو يجسّر إصبع آدم مع إصبع الإله في لوحة الخلق؟

تجسير 2

المنهج وخط الوصل، هذان إذن جسران ناعمان. القنطرة أو الجسر، هذه روابط أو مناهج صلبة. تنبيه: لقد قمت للتو بإنشاء معبر جديد، عندما أعبر من المادي إلى الرمزي، ومن المجرد إلى العيني، فأنا أجسر الصلب والناعم.

سواء أتعلق الأمر بأحدهما أم بالآخر، فإنني أعثر
على جسور في كل مكان؛ أمثلة على ذلك:
المنهج المتبع في الترجمة يحشد صيغتين
من القواعد النحوية وقاموسًا مزدوج اللغة، إنه
يجسر اللغات.
الطريقة التي
تتبعها
طفرات
الكائنات
الحية تمر عبر
التمازج
الجيني،
إنها تُجسّر
العضويات
الحية،
وقريبًا
ستُجسّر الأنواع.
المنهج المتبع
لتحويل العناصر
يمرّ عبر حساب الأشعة
النووية، إنه يُجسّر الأجسام
العاطلة. وعلى الرغم من ذلك، فإننا عندما
نجسّر بالتتالي اللغات، والأحياء والعناصر، فإننا نجسّر
عبر ذلك، إمبراطورية العلامات الناعمة مع العوالم البيولوجية
والفيزيائية الصلبة. فكما لو كانت هناك جسور صغيرة، محلية، كل في
مرتبته، إلى جانب ميتا-جسور، عابرة، تؤدي من مرتبة إلى أخرى. وهي
تتداخل فيما بينها، كما في مسالك تقاطعات الطرق السيارة.

أولى المهام: بناء الجسور الصلبة، ثانيتها: إعمال الفكر في الجسور الناعمة. رمي جسور بين الأولى والثانية، تلك هي المهمة الأخيرة. حينئذ سيغدو التجسير، بصفة عامة، فعالية من الاتساع بحيث تستغرق المشروع البشري، من حيث إن جسمنا نفسه يجسر الجسد بالروح. الإنسان ابن الجسور Homo pontifex.

ورجل الدين pontife يجسّر ponte البشري بالإلهي، الأرض بالسماء، المحايث بالمتعالي.

حوّلنا الذئاب إلى كلاب، والأروية إلى أغنام، والنباتات الخرقاء إلى قمح. نغير القنب والكتان إلى ملاءات وملابس، والنفط إلى طاقة، والصلب إلى سفن، والشكوى إلى قصيدة، والرغبة إلى ألحان، والأشياء إلى أعداد، والطبيعة إلى ثقافة، والنظرية إلى آلات، والمادة إلى مجردات. بل يحصل أن نجعل من غضب الجمهور رسائل سلمية. نجسّر كل ما يقع تحت أيدينا.

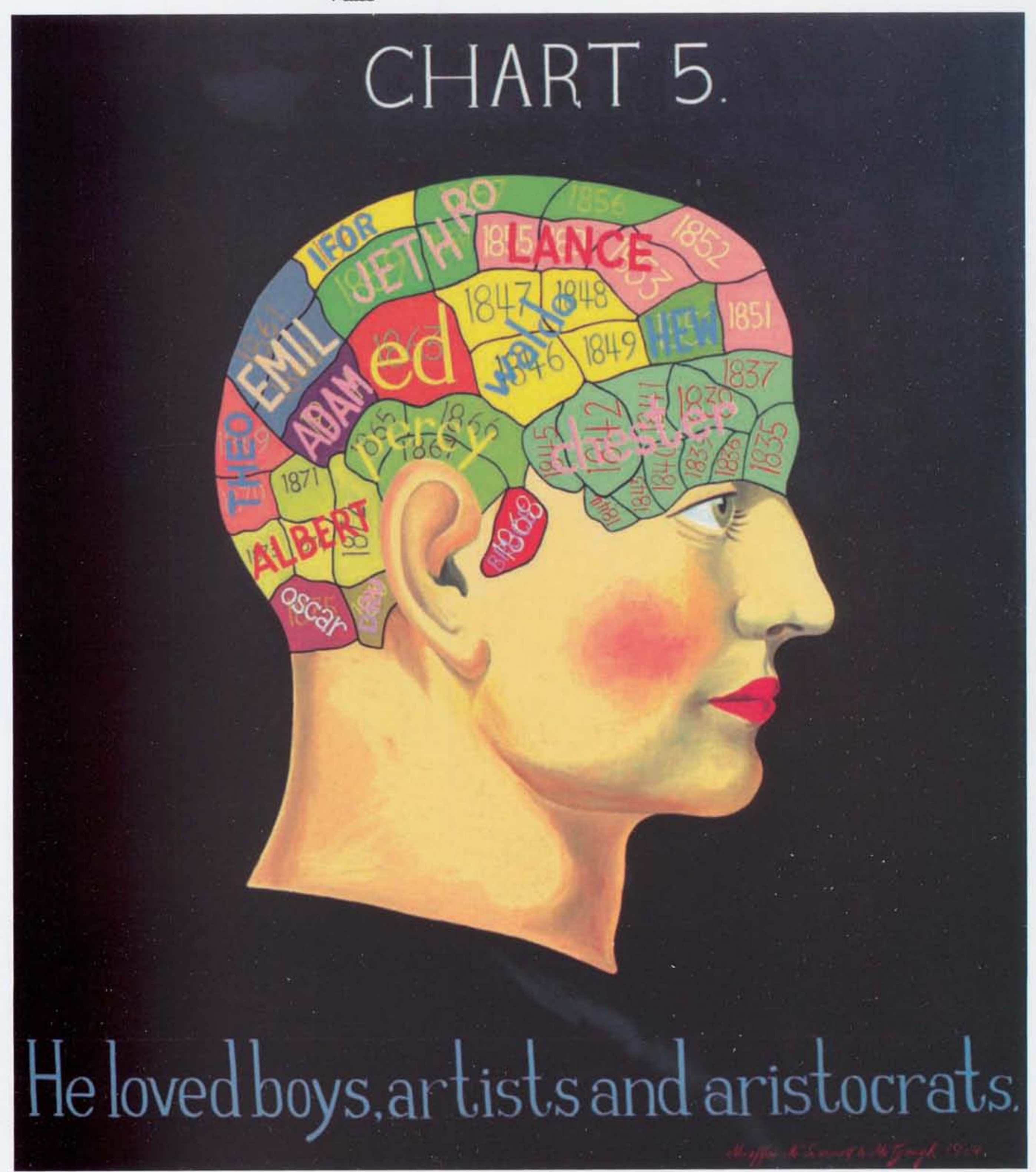
لكن الحياة فينا كان قد سبق أن جسّرت نصفي كرتنا الدماغية،
اليمين واليسار،
ومركزينا العصبيين،
الرأس الواضح والبطن الغامض،
حتى ننجز هذه الأقواس، والأعمدة،
وهذه الأسلاك والقناطر التي تولدت عن مخططاتنا الدقيقة وحماسنا.
ولكن الحياة، خارجنا وفينا، ترغمنا على سعادة تجسير جنسيْنا كي تستمر.

ولكن الطبيعة، خارجنا ومن دوننا،
تجسّر القمم البيضاء للجبال بخضرة البحر الشاحبة بفعل المياه العكرة المضطربة للأنهار،
وبفعل الضغط المنخفض والمرتفع،
وفعل التيارات والرياح،
بل وحتى بالشواطئ القارية بفعل الابتسامة الإلهية لمياه هذا البحر الذي كان الإغريق يسمونه جسرًا.

لستُ إلا الجسور، ولا أصنع، ولا أعيش، ولا أرى إلا هي.

عندما أرفع عينيّ ألاحظ، عبر النافذة،
شجر الصفصاف يتمايل بفعل النسيم العليل
كي يجسّر النور السماوي بالأملاح المعدنية المدفونة تحت الأرض.
إن التفكير في التجسير يتطلب تأمل العالم في جزئياته وتفاصيله،
كما يتطلب بسط وظائف الكون جميعها جملةً.
جميع الأشياء تعبر الجسر Panta pontes.

كيف يعمل رأسك كي يحب إيميل وآدم في الوقت نفسه؟





لطيف ومُكوّر، يقع في حديقة زُرعت أشجارًا ووردًا يسقيها نهر يخترقه جسر صغير: أيها البرج، يا ملذاتي الأنثوية الحيوية! اعذروا حلمي وخيالاتي: فُتح جسرُ ليفيس، الأنثى تنادي...

Le Miroir de l'humaine salvation, XVe siècle

تجسير 3

كلا. لا تعمل جميع الجسور كقِطع دومينو بيضاء. فبعضها، شبهُ الموصل، يمنع العودة: أنت يا من تعبر هذا الجسرَ، اطرح عنك أيّ أملٍ. لكن، لنترك المكان من أجل الزمان: إنّك لن تستعيد صِغرك. بعد الزواج، لا أحد يعود عازبًا: فهو إما أرمل أو أرملة، أو على الأقل، مطلق أو مطلقة، ولن يعود قط ولدًا أم بنتًا. كان الميّت، سواء أكان إغريقيًا أم لاتينيًا، يعبر على متن السفينة نهر ليتي Léthé، يدعى بالفرنسية نهر النسيان Oubli، لا أحد كان يذكره فيما بعد. العذرية لا تستعاد، والسجل العدلي المدنس لا يُمحى. بعد ما يُدعى شفاءً من المرض، فإن الصحة المستعادة لا تعيد بالضبط العافية التي كان يتمتع بها الكائن الحيّ من قبل. آدم وحواء لم يعودا إلى الفردوس. من يستطيع أن يصلح ما أفسدته سنوات من الإهانات التي لن ينفع فيها شيء؟ ما لا نستطيع استعادته وإصلاحه يفوق كثرةً ما يمكن أن نستعيده ونصلحه. هناك مما لا يمكن التراجع لإصلاحه أكثر من العلاجات القابلة للتراجع. لم يسبق لأحد أن رأى حركة خالدة ولا عودًا أبديًا. إن سيل القصور الحراري يجرف العالم والحياة... كم يحصي أولئك من الجسور البيضاء التي تكون العودة عبرها ممكنةً؟ يمكننا أن نرى نظيرَ هذه الجسور في كل مكان، كما يمكننا ألا نراها في أيّ مكان.

معذرة، تبقى هناك المعذرة وطلب الغفران، كما يبقى العمل والأثر. أحبك بما فيه الكفاية لنسيان كل الأذى الذي سببته لي، رجاءً، انسَ الأذى الذي لم أكن لأرغب أن أسببه. لنتجنّبْ السقوط في الانتقام، ولنعاكس سيل النزول. يعمل الحبّ والكدّ على جعل الكرة والزمان يدوران عكس عقارب الساعة. حينئذ يعود السيل إلى منبعه. يعمل المؤلف على الزيادة من براءة العالم وسذاجته، كما يعمل كتاب عظيم، وموسيقى جميلة على أن يعيدا توازن القوى المفقودة، وتجديد شباب الزمن. وحدها الأشياءُ الجميلة إذن هي التي تصنع الجسور القابلة للعودة. وإلا، فعليكم أن تعترفوا بجميل الطريق المزدوجة للجسور.

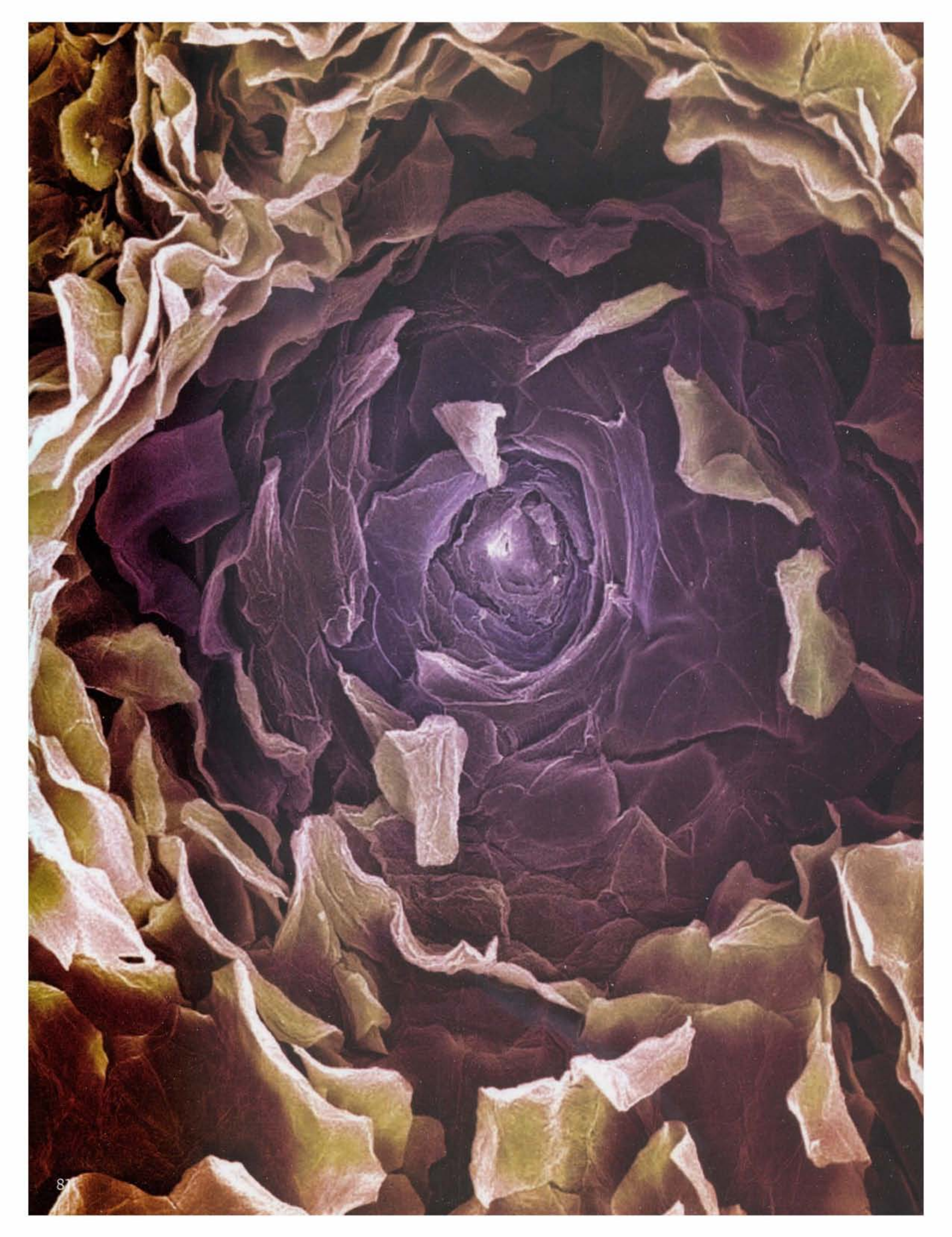
أيها الموت الذكري على جسر ليفيس المرتفع: الصارم، والعنيد، والمحاصر، الذي يدافع عنه علم البوليورسيتيك، والمحاط بالسهام الطائرة نهارًا، المسيّج بثلاثة سلالم، المالئ الصورة الخالية من أي منظر طبيعي، المملوءة أجلافًا مسلحين، المغطاة بالجثث.
Chroniques de Jean Froissart, 1386.



مرة أخرى، كلا. ليس هناك فحسب الأجسام الموصلة، والشبه موصلة، والجسور مزدوجة الطرق، والجسور وحيدة الاتجاه التي تحمل إشارة منع المرور، بل هناك أيضًا الجسور-المرشّحة التي تكشر عن أنيابها التي تخترق رؤوسها لحمَ المرشحين للمرور وتُمزقه. لا يوجد فحسب الخير والشر، والقابل للعودة وغير القابل، بياض التكافؤ وسواد المنع، هناك كذلك الثوب الرمادي والخرق الممزقة. ليس هناك فحسب الخيّرون والمرعبون، منع المرور والسماح به، هناك أيضًا عمليات القسمة، والكسور والخسائر. حيثما عبرنا الجسور، نخلف كسورًا في كثير من الأحيان.

حتى، وإن كنت قد فقدت في بعض الأحيان ذكرى ذلك، فإن جسمي ما زال يذكر أنه اجتاز كثيرًا من العتبات، والقنوات، والأنفاق، والاختبارات، والامتحانات، والجمارك، والسدود... كما يذكر أنه أدّى مكوسًا جزءًا من جلده وعظامه وآثار دم، وأسفٍ، وندم، وأسمال قلبٍ ورفات أرواح. إذا عبرنا هذه الجسور، حتى، وإن عدنا على الطريق نفسها، فإننا لا نعود من المغامرة دومًا بكامل أجسادنا وأرواحنا، فلا بد أن تنهش لحومَنا الأسلاك الشائكة. عبر كل هذه المُرشِّحات الوحشية، زرعتُ الفضاء بأعضاء متناثرة. بل إن في استطاعتي أن أقدر أوزان الجسم والانفعالات التي تركتها هنا أو هناك، بين فينة وأخرى، لهذا الهلاك. ودعت الطفولة نصف ممزق، والمراهقة بالربع المتبقي مني، وفي سني المتقدمة هذه، أجدني سعيدًا، وأنا ما أزال أحتفظ ببعض الفتات. أتعرّف، في بعض الأحيان، أماكن تشير لي فيها بُحيرةٌ في تجويف صدري إلى أنها تمتلئ دموعًا، لأن الحجم الذي ينقصها بعد أن استُؤصِل مني، سيظل هناك في الموضع الذي غادرته بثقبٍ. هل سيفيد هذا العضو المتبرَّعُ به أحدًا؟ أشكّ في ذلك وأتمناه. إن هذه السلسلة من الجسور-المرشّحة تمزق الحياة إلى حدّ أننا سنموت إمّا لأننّا قد قُضي علينا تمامًا، أو لأننا لم نعد نملك ما نهبه للآخرين.

في الجلد، تتيح المسام التدفقات مثلما يعمل ميناء أو جسر. منذ عقود، لم يكن لدينا أي تقدير لتفاصيل الأشياء والأعداد التي يصف انفجارها الكبير الكائن الحي. وهكذا، فالقشرة ترصع ثقوب هذه المسام يمكنها أن تؤول إلى مثل هذه الصورة الورقية الكثيفة، التي يمكن أن تطوى بكيفيات متعددة. قديمًا تخيلنا الجسم آلة. لنصحح هذا الحدس: إنه بالأحرى آلة آلات من الآلات... هل هناك حد لهذا التكرار؟



معظم الجسور التي عبرتها في طفولتي كانت تحتفظ بآثار الرسوم القديمة. إما بقايا عظيمة أو علامات بائسة: كوخٌ متهالكٌ على الممر الهشّ، بناءٌ شبه إغريقي مزود بثلاثة أعمدة في مدخل الجسر الحجري. لا نعطي قيمة لهذه الاستعمالات التي تعود إلى حقبة ماضية حيث كانت السلطات تُقطّع المكان تقطيعًا كي تحصل على ضرائب التنقّل. أما تسهيلاتنا الجديدة، فكانت تتطلب أن تكون أيادينا من غير قيود، وأن تكون أذرعنا محررة حيث نمر عبر مكان سلس من غير عقبات، فنمشي ونهرول أو نطير. والحال أن معظم الجسور التي تخترقها الطرق السيارة اليوم، بين جانبي وادي، أو خليج أو ذراع بحر، تتطلب أداء رسوم العبور، وهذا هو الاسم الجديد لما كان يسمى تعشيرًا. ها قد عادت رسوم الدخول؟

رسوم العبور

لنتفرغ لإعادة قراءة هذه الكلمة القديمة octroi التي نعتقد أننا نسيناها: إن المعنى الحرفي للفعل «il octorise» يعني يسمح autorise بالمرور. كيف ذلك؟ إنّ الفعل اللاتيني augeo، الذي يعني زاد، ولّد كثيرًا من الاشتقاقات، حيث نجد بينها السماح بـ autorisation، ورسوم الضريبة octroi. وها نحن مجدّدًا أمام المؤلف l'auteur. يتعذر علينا الإيمان بذلك. ولكن إذا كانت كلمة octroi قد استعاضت عن الـ au بحرف o، فإنها قد احتفظت بالحرف c الذي فقدته كلمات المؤلف auteur وكلمة السماح بـ autorisation وبقية مشتقاتها في اللغة الفرنسية، هذا في الوقت الذي احتفظت به اللغة الإنجليزية auction. عندما نعبُر جسر اللغات، فإن الترجمة قد تؤدي، في بعض الأحيان، رسوم العبور، متخليّةً عن حرف من الحروف. أتمنى أن تصدقوا ذلك! ها هي من جديد مشتقات الكلمة اللاتينية augeo: ما من كلمة إلا وترفع السّعرَ، ففي auction المزاد الإنجليزي، والكلمة الفرنسية مؤلف auteur تزيد القارئ قيمة، أو على الأقل أتمنى ذلك، والسلطة autorité تضمن وتخوّل... لكن ماذا تفعل كلمة octroi، يا للمفاجأة، إنها تُنقِص ولا تَزيد، وهي تقلّل من حجم حافظة نقودك! صحيح أنها تسمح بالمرور، لكنها لا تفعل ذلك إلا مقابل الأداء. وصحيح كذلك أن هذا الأداء يضاعف من ثروة العبّار، ولكن من يحمل اسم العبّار وقوته، والسلطة التي تسمح لهذا المفتري بأن يأخذ الضريبة التي تحمل اسمه عن حق، والتي يفرضها سواء على شخصي،



في الفترة نفسها، بدلًا من دفع الرسوم نفسها عند جسر إسطنبول على مضيق البوسفور، قام كيرابان Kéraban، الذي يسميه جول فيرن Jules Verne، العنيد le Têtu، بجولةٍ حول البحر الأسود، ما كان القدماء يسمونه جسر أوكسين Pont-Euxin، ثم عاد على حبل توازن. احتراماتي لهذا العنيد. آجان، حوالي 1910.

أم على السلع التي أحمل، على الأموال التي ربحتها، وبعض الحركات التي قمت بها، وعلى الأماكن التي
أتنقل فيها، والعمل الذي أبذله، وعلى الميراث الذي أخلّفه لأبنائي؟ من يسهر على إدارة الجمارك،
ومن يعطي الإذن؟ من يعترض طريقي أو يقطع كلامي؟ بأي حق هناك رسوم العبور؟

ومع ذلك، فأنا أريد أن أعبر بحُرّية؛ أريد أن أمارس حياتي الجنسية من غير وسائط،
وأن أحاور من غير مترجم، وأضع الملح في قِدري من غير أداة، أن أعمل من غير
واسطة، ومن دون أن تضايقني الإدارةُ أو المافيا، تلكما الأختان التوأمان،
هل في استطاعتي ذلك حقًّا، وأنا غارق حيًّا في شبكة من العلائق
التي لا تحصى؟ كلا، عليّ أن أستسلم لهذا القدر: بما أنني
متشرد، فأنا لا أتوجه دومًا بالكلام إلى من أفهم لغته أو
من يتكلم لغتي. يحصل لي أن أشتري بعملة أخرى.
أنا لا أعرف كيفية إصلاح دراجتي النارية ولا بتر
خيط صوف سترتي. عليّ دومًا أن أبادل،
وبالتالي أن أمرّ عبر مكتب الصرف.
ها قد عاد الوسيط، النقال

الذي سرعان ما يغدو مزعجًا لأنه يمكن أن يعكر صفو العلاقة، يعززها بالتأكيد، ولكن كي يستفيد منها ويستغلها. ينبغي إذن بناء جسر ووضع رسوم العبور عليه. يُمكّننا باني الأقواس، ومسهّل الأمور، هيرميس Hermès وحده وعدد من الملائكة، من كثير من الممرات، إلا أنهم يرغموننا على أداء عبورها، مقابل أثمان باهظة في بعض الأحيان. حينئذ، فهم يتحولون إلى شياطين يلعبون دورًا مزدوجًا، فيمنعون الحركة أكثر مما ييسرونها، ويضعون من العقبات أكثر مما يقدمون من المساعدات.

هل تبحثون عن مساعدة؟ ها هي ذي، ولكن ينبغي دفع الرسوم. أنت تسدي إليّ معروفًا، بالتأكيد، لأن بإمكاني أن أخترق الماء، لكن، في المقابل، عليّ أنا أيضًا أن أزيد من ثرائك. هذه المعونة ذات المدخل المزدوج يمكنها أن تحوّل المستفيد الوحيد إلى كفيل أو إلى مساعد. حينئذ سيستغل الفرصة شريكان اثنان. دفع الرسوم إذن: هذا يصدق على الجسور، الالتحام: يصدق على الكائنات الحية، التعاقد: يصدق على الاتفاقيات بين الأفراد والجماعات. من الأفضل أن تكون هناك هذه التعاقدات بدل اللامساواة.

يرمز الجسر إلى العلاقة، وهو يحققها
ويُعلي منها في الوقت ذاته، يمثلها



خشبًا، حديدًا، حجرًا، أو فكرةً ومعنًى: إنه يثبت شموَّها. فإذا سكن كلَّ علاقةٍ عنصرٌ نشاز، فحينئذ ستجدون عند كل جسر مركزَ أداء الرسوم، وفي كل علاقة تعاقدًا. لا علائق جيّدة إلا في ظلّ تعاقد. لن تمروا من غير أداء: فلس واحد، كلمة، دمعة، قطعة لحم. إنّ للجسر حقوقًا.

لكنني ما زلت أتمرد، لفرط ما يبدو لي هذا الجسر الذي يعوقُ عبورَه أداءُ المكس متناقضًا! إذا كنت أنا المؤلّف أنمّي معرفتك، فلماذا أعطي لنفسي حقَّ الحدّ منك، وإضعافك؟ ستَردّ عليّ قائلًا: عند شرائي كتابك، دفعت ثمن حقوق المؤلف، الحقوق المعززة كما تسميها.
أوه، إنّك لعلى حقّ! تلك هي رسوم المرور عبري. سامحني: فأنا تعبتُ كثيرًا في كتابته والتفكير فيه، وتوثيقه، وتأليفه، لأعطيك إياه، بحيث أظن أن ذلك المَكس من حقي...

ستقول لي إنني لا أمانع أن أهديك حبي، وتضيف: إلا أنك ستدفع ثمنه، أنا أقبل أن أحبك، حق شريطة ثمن باهظ. كم مرة سمعتك تغني: لكنني أحبك، فانتبه لنفسك؟ إن العمل الذي يُبنى كي يتم العبور عبره، يحتوي دومًا على حاجز دون المرور. أنا أعطيك وآخذ منك. لا نكفّ عن التبادل. إن العدالة ذات الطريق المزدوجة تتطلب أن ترد لي ما أعطيتك إياه. أنت تفتح لي الممر، لكن أنا أدفع لك الرسوم مقابل ذلك.

كيف نغلق مكانًا، وليكن مدينة على سبيل المثال؟ بأن نعلن أن عزله مقدسٌ أو محرم، وسط الفضاء غير المقدس، أن نُسيّجه بجدارٍ عالٍ دفاعي مليء بالأبواب. القرار الأول يرجع لجوبيتر Jupiter، إله القساوسة والديانات، الثاني يعود لمارس Mars إله الحرب. غيّرنا ذلك في باريس سنة 1860: غاب الجرس من الأفق، ابتهجت الجماعة أمام رسوم حاجز فانسين Vincennes. انظروا إلى السيد الجديد: كيرينوس Quirinus، إله المنتجين والتجار، والبضائع، باختصار إله الاقتصاد... إعلاناته تطوق الآن أطراف مدننا بالقبح. وقوته تخنق أماكن عيشنا أكثر مما فعلته التابوهات والجدران.

ها هي سيقان البريمافيرا Primavera وأقدامها، تخطو الزهور. رسمها ساندرو بوتشيلي Sandro Botticelli سنة 1477، وبعبارة أخرى إنها أعمدة جسر طالما أحببت سطحه الربيعي!

فيما سبق كنا نقضي شهر مايو احتفاءً بمريم العذراء، كما لو أن الرطوبة العذبة للمناخ، على مقربة فصل الربيع، تتيح للكنيسة فرصة الاحتفاء بعذراء كان الموسم قد أبعد عنها رغباتنا. ما زلت أحتفظ بذكرى الزهور المنثورة كما لو كانت تلقى في اتجاه معاكس، لتنثر رائحة العفة.

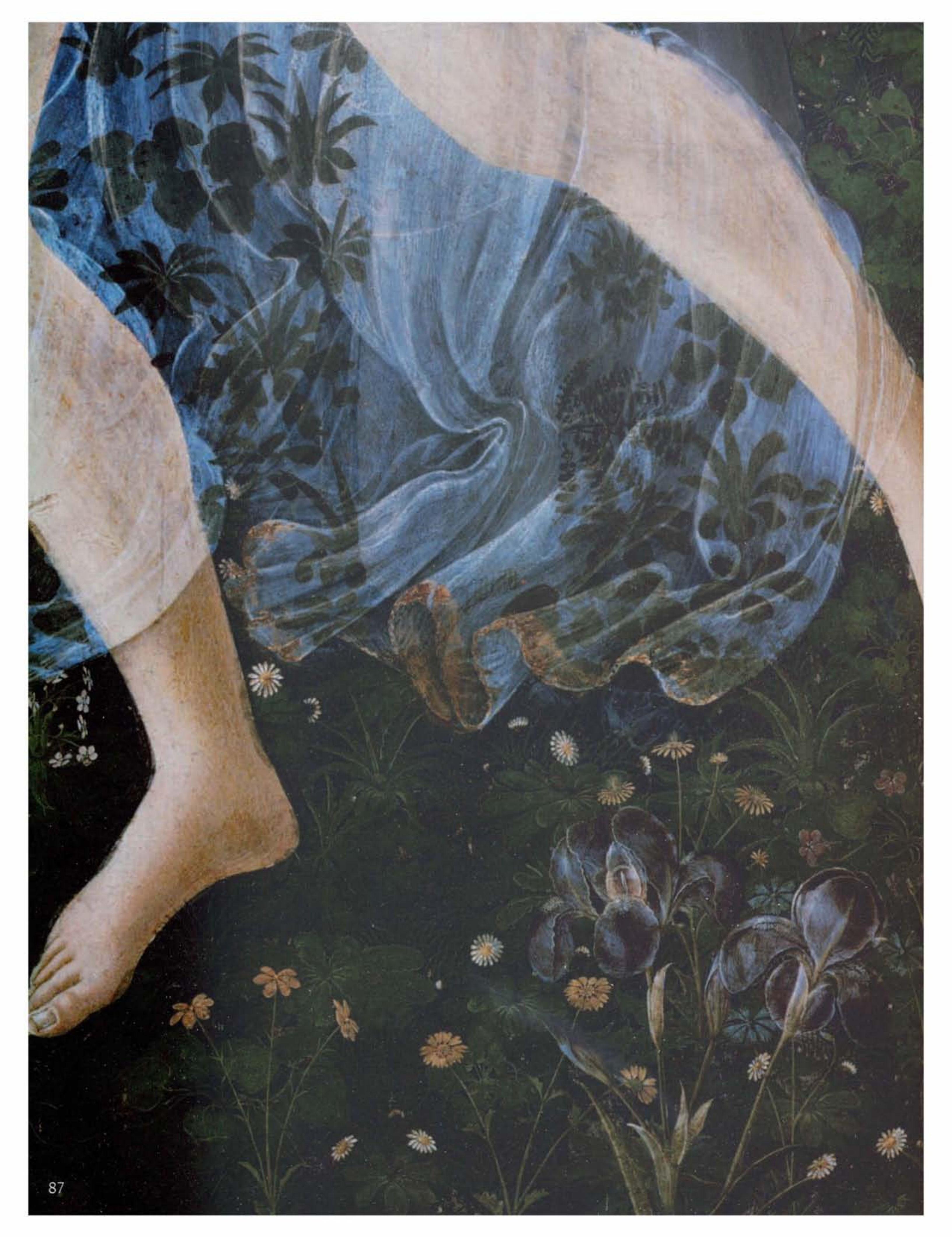
غيّر رجالُ دينٍ جُدد كل هذا. كان يكفي أن يجيء عيد العمال، وعيد النصر، وخميس الصعود، والقديس إميل أو القديسة سولانج، بشكل مناسب كي يخلق جسورًا بين أيام السبت وأيام أخرى سعيدة كاثنين البانتكوت -كنا نشعر في بعض الأحيان بقشعريرة سياسية ونحن نناقش بحدة ما إذا كنا، وأطفالنا، سنأخذ يوم راحة هذا الاثنين أم لا، سواء مؤدى عنه أم لا، وهو نقاش كان يحتدم، ويخلق انفعالات شبيهة بتلك التي كانت تلهب النضال الطبقي، حينئذ كان بلدي بأكمله لا يكفّ عن عبور الجسور.

ينبغي أن نعتقد أن العمل يئنّ تحت أقدامنا، في أسفل الوادي، مثل سيلٍ يُحدث انجرافه ضجيجًا مخيفًا... هل أسمع من أعلى، وأصغي من بعيد، للمرافعة الشعائرية القديمة ضد غضب العشق الربيعي؟

إن جسور شهر مايو العاطلة تحمي الفرنسيين منه.

مثلما كان أبناء بلدتي سنة 1939، وهم يفرون، أولَ من أدرك بشاعةَ الحربِ آكلةِ اللحوم، فهل ينبغي أن نعتقد أنهم يكتشفون اليوم، والأوائل من جديد، مساوئ العمل الذي أصبح يدمر أشياء العالم؟

سعيد مثل كاثوليكي في فرنسا





يستند الجسر على أكوام، وجسر الجموع على أعمدة. بين هذين المشهدين للكرة المستطيلة (الرغبي): بين فريقي راسين وآجان 1953 -Racing Agen عشب أخضر، وصفٌّ من الأشجار، منظرٌ شبه ريفي، رغم أنه في العاصمة.. الثاني بين فريقي فرنسا وإيطاليا، 2004، إعلامات، وتقنية، وكمال الأجسام... قطيعةٌ، من غير جسر، سميتها في كتابٍ آخر: نسيان الإنسان Hominescence.

الصلصة

في بلدتي التي لم تعد مُمَسّحة،
أو، على الأصح التي لم تكن قط موضع تنصير،
تلعب الكرة المستطيلة دور الديانة.
في شعائر تُقام كل نصف شهر،
يجتمع حشد وثني في ضربٍ من المعابد التي تسمى ميادين اللعب،
كي يُقدّس فيها خمسة عشر إلهًا صنميًا،
وثمانية ثيران، وسبعة غزلان،
يضحون بأجسادهم دفاعًا عن سمعة المدينة.
ضد عدد مماثل من الظباء الضخمة والجواميس،
يستعملون كرة مستطيلة يديرونها بأصابعهم ويضربونها بأقدامهم،
في الوقت الذي تقدس فيه قبائل أخرى غريبة،
أبطالًا غريبين لا يلعبون إلا بالأطراف السفلية، بكرة مستديرة.

شعرت بالغبطة، منذ وقت غير بعيد، وأنا أسمع أصدقائي الأمريكيين
يطلقون على هذه الرياضة الأخيرة كلمة soccer،
هذا في حين أننا كنا نسميها أيام شبابي في آجان la sauce،
مترجمين على هذا النحو في لهجتنا المحلية اتحاد كرة القدم.
فيما وراء البحار، كانت اللغتان، وقد جُسّرتا على هذا النحو،
قد توصلتا إلى الترجمة نفسها.
لتخطي حاجز الخصم، يحاول الثور أن يداهمه،
في حين يمارس الغزالُ الفن الرهيف للركلة الموالية. هنا،
عندما ضُربت الكرة المستطيلة ضربة حذاء، طارت فوق رأس الخصم،
فسعى المدافع جاهدًا أن يستعيدها، عن طريق يديه،
خلف ظهره. حينئذ، ومن غير أن تكون الأمور في صالحه،

رمى البطريق الكرة العائدة بعيدًا عن متناول خصومه
محاولًا بلا جدوى أن يستعيدها عن طريق القدم،
بعيدًا عن متناول يده. جسر كبير، جسر صغير،
هذه هي أسماء الاستراتيجيات التي ينجح في اتّباعها أكثر اللاعبين مرونة،
والذين يصفق لهم المتشيعون من غير أن ينظروا إلى الوجوه المذهولة
للاعبين المخدوعين الذين يجهدون أنفسهم دون جدوى كي يتداركوا
ضعفهم.
هل نتبين في الوقت ذاته الفجوات المتجاوزة؟
نادرًا: إننا نرى من فوق إلى الأودية الخضراء والأنهار
الهادئة التي يضيّق التجسير من عرضها. نحن نعجب بالخدع
من غير أن نولي اهتمامًا بالمخدوعين.
بما أنني أعشق الجسور، تأخذني الشفقة على الأنهار.

أضع نفسي في معسكر الدوائر القصيرة.



مهندسو الجسور

ربيت منذ طفولتي على الإعجاب بمهندسي الجسور. كنا نعمل في الأوراش بلباس العمل، أما هم فكانوا يتسيّدون في مكاتبهم خلف رباطات العنق. هم كانوا يرسمون ويوقعون ويخططون، أما نحن فكنّا نكسّر ونحفر؛ كانوا يعرفون، أما نحن فكنّا نجهل. لكن تحديدًا، بما أنهم كانوا يعدّون لنا الرمال والحصى أو يرفضون ذلك، فإننا كنا تحت رحمة قراراتهم من أجل لقمة العيش. لذا فإننا كنا نمتدحهم ونباركهم ونبدي إعجابنا بهم، ونستعطفهم، وندعوهم إلى مشاركتنا حفلات العشاء. علمني والدي ألا أعارض الأشخاص الذين يمكنهم أن يتحولوا في أوقات فراغهم إلى آلهة أوصياء، أو شياطين خطيرين. هكذا تعلمت في وقت مبكر أن هناك أناسًا في وضعية من لا يخطئ أبدًا. قابلت كثيرًا من هؤلاء خلال حياتي فيما بعد، بين الأطباء، وفي الجامعة، في الأحزاب السياسية، في عشرات الأماكن المختلفة حيث تعلمت، على العكس من ذلك، أن أشفق عليهم. أزعم أنني أخطئ بانتظام، وهكذا لم أكفّ عن التعلّم.

هنا، سنة 1886، في سان أندري دي كوبزاك Saint-André-de-Cubzac، لاجتياز الدوردوني Dordogne، يرتفع هيكل كومة. أرى في ذلك انتقالًا بين المخطط والجسر. بل انتقالًا أو تجسيرًا بين المشروع وإنجازه. المسلسل: قرار، تمويل، حساب، الرسومات، الخطاطة، التجريب، حفر الأساس، القوالب، التنفيذ التام، إطلاق الوظائف، الصيانة... هذا المسلسل يجعل من كل مهندس يعمل لإنجاز أشغال، وينسج هذه السلسلة بانيًا لتجسير pontage أصيل: أرفعه إلى مستوى رجل دين pontife.

لم تكن أيدينا الخشنة لتقارن بأيديهم الناعمة. فيما بعد، حين انتقلت من تفتيت الأحجار إلى المدرسة العليا، كان أحد أبناء الأعيان، وكان ماركسيًّا لامعًا أصبح فيما بعد مشهورًا ومحافظًا، كان يلقي عرضًا في الفصل الذي أدرس فيه حول الفرق بين المثقف والعامل اليدوي، كانت نظريته مدعمة بكثير من النماذج التاريخية، ولم تتوان عن تسليط أضوائها على المسألة المطروحة، فاستوقفته لحظة، مفاجئًا الحضور الذي كان يسانده، منبهًا إلى أننا نلحظ هذه المسافة عند صهريج غسل الأيدي، حيث لا يغسل الأول يده إلا بعد أن يقضي حاجته، في حين أن الثاني يعطي الأسبقية لغسل اليدين بالماء والصابون، كي لا يوسخ جسده بالوحل. تعلمت هذا صغيرًا جدًّا من خلال التجربة.



5e feuille

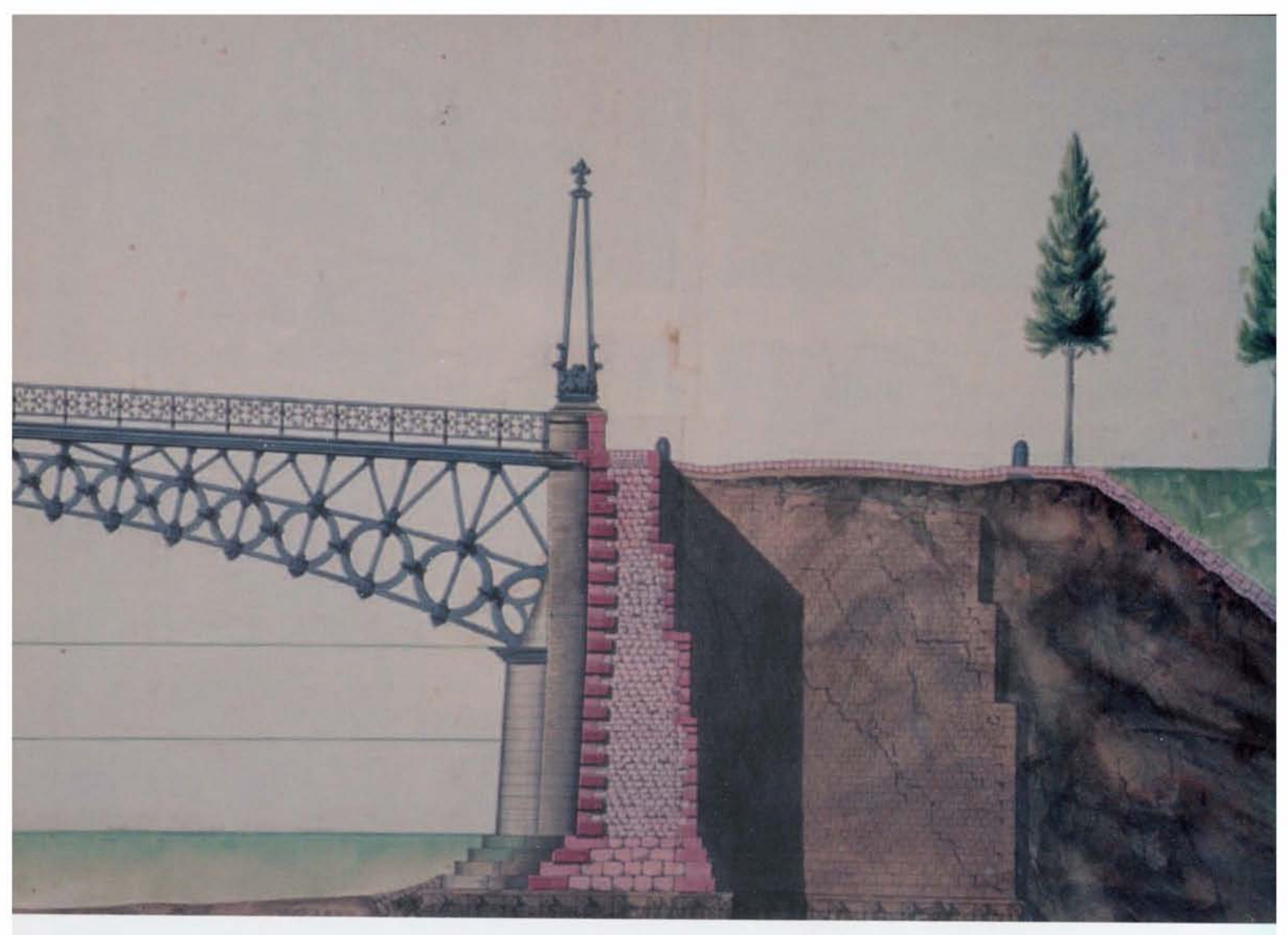
Elevation des fermes qui composent
Les ceintres du Pont a quatre Branches.

Elevation d'une des ferm.s pour le cul de four

لا أمزح. إنّ الجهل مكلف. بسبب نقص التكوين، لا تكفّ الكوارث تنزل علينا. لم نكن نعرف شيئًا عن جيولوجيا الحصى التي نستخدمها، ولا عن مقاومة المواد التي نستعملها، ولا كيف تعمل أجهزة قياس الأبعاد وشدة التيارات الكهربائية. لم نكن نعرف إلا الأمتار المكعبة: كم مترًا من الحفر يلزم لذلك، لهذا يلزم هذا العدد من الأمتار. وكذا فيما يخص علوّ الرافعات: وفق هذا العدد من الأمتار المكعبة للمياه، يتم قطع الجسور. لم نكن نعرف قراءة فواتير المزوّدين بالسلع، ولا حسابات البنوك، ولا بيانات الضرائب، ولا طلاسم الإدارات، ها هنا أيضًا واحدة أخرى من الأمور التي تنال إعجابي، هنا أيضًا فئة من البشر التي لا تحيد عن الصواب... من هذا الفقر المعرفي، وهذه الحوادث المتواترة، تشكّل عندي ميلٌ حاسمٌ إلى المجردات. فأنا لا أكرهها لشدة ما خبرتُ العينيَّ والتجارب الملموسة، كلا، على العكس من ذلك، إنني أقدرها أكبر تقدير، فبما أننا كنا غارقين حتى العنق في هذا الواقع الملتصق والملطخ بالزفت الذي لم نكن نعرف كيف ندير أموره عندما تتوقف سلاسل النقل، فقد كنا في أمس الحاجة إلى نداء استغاثة من طرف أمكنة علاج تلك المشاكل اليومية، وإلى إنقاذ ومرجع، نعم، كنا في حاجة إلى عالم آخر. كلما توقفنا، طلبنا النجدة! من دون تجريد، نظل صُمًا عميًا عاجزين أمام الأشياء المعطلة. أولئك الذين يحتقرون المجرد، لم يشعروا قط أنهم في حاجة إليه.

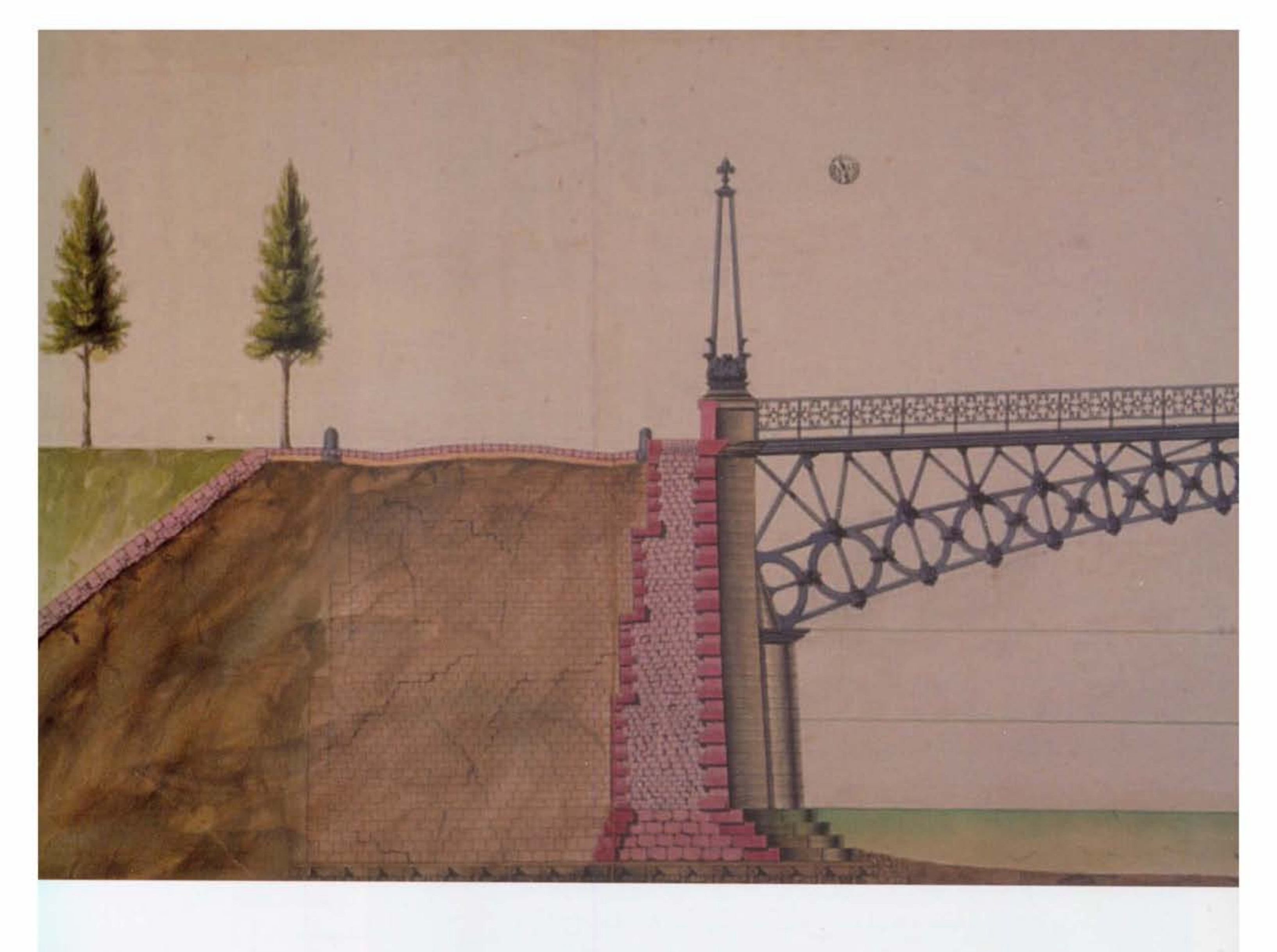
الساهرون على شؤون التربية عندنا ليسوا على حق. فنحن لا ننتقل على الدوام من الأشياء إلى الأشكال، إننا لا نبلغها شريطة أن نمر أولًا عبر التجربة، كما لو كان الأمر يسير في طريق متصل، كلا، إن التجربة تدفعنا إلى الإحساس بالعوز، إنها تزيد من الألم المترتب عن القطيعة. تفصح كلمة تجربة، في عمقها، عن خطر محدق. النجدة! إن الأفراد، والحالات، والجماعات التي لا تغامر البتّة لا تراكمُ أي تجربة. بفعل الخطر، ينقطع طريقٌ في لحظةٍ بعينها، وينفتح جرحٌ ويتسع غوره. حينئذ تظهر الحاجة. لم تكن طفولتي في خصاص للخبز والفاكهة فحسب، وإنما عرفت أساسًا القحط والندرة وصحراء المعرفة. توقفات وحوادث كانت تستغيث بالمجرد، احتماءً من حياةٍ شديدة الصعوبة. فيما بعد، التهمت الآداب والعلوم، بكيفية نهمة، بمئات الأمتار المكعبة، مثل جائع ظمآن، مفتوح الفم محملق العينين. هل سأتمكن يومًا من ملء هذه الثغرة؟ ما يعوزنا في صغرنا، نرغب فيه مدى الحياة، علمًا أكان أم حبًا. أرتعش بكلّيتي من جراء جنون المعرفة، مزيدًا، مزيدًا، وأيضًا مزيدًا. إننا لم نر فُتاتًا واحدًا، ولم نعرفه، ولم نهضمه منذ عشرة، عشرين، مئة جيل عاش في القحط. تداركت تأخري العميق بأن التهمت، من غير تكلف، مائدةَ المعرفة الشاسعةَ.

إذا جزأتم هاتين الصورتين، أنصتوا بكيفية أخرى للكلمات الثلاث نفسها التي تستعملونها. ها هي: سواء أكان خفيفًا أو ثقيلًا، فإن القارب يحتوي على جسر أو عدة جسور عبر نهر أو ذراع بحر، فإن هذه القوارب يمكنها أن تشكل جسرًا من القوارب. هنا إذا ارتبطت مثنى مثنى أو أربعة، فإن بإمكانها أن تبني حزامًا مركزيًا لقوس جسر (يسمى هنا ربع كرة). ها هو إذن جسر في ثلاثة أشخاص، كما الحال في الثلاثية المسيحية.
مؤلفا المخطط، أعلى: باربي، أسفل جيرار دى كودنبورغ.
Girard de Caudemberg, XIXe siècle



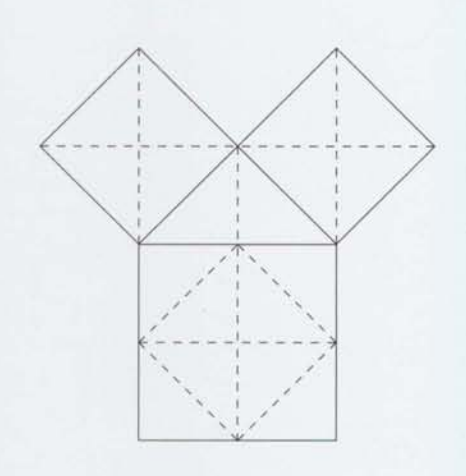
وقعها شارل نورمان دو لامولاتيير. Charles Normand de La Mulatière هذا الجسر الحديدي يرجع إلى سنة 1791. لم يكن برج إيفل قد ولد بعد.

إن الهوة التي تفصل قشرة الجلد المتسخة عن الأيدي الناعمة، والتي نلحظ، في المكتب، جوانبها المنفصلة في سلوكيات يدوية للغسل، تلك الفجوة التي لا سبيل إلى سدها، وحدها القفزة هي التي يمكنها تجسيرها، قفزة هائلة، سلك مذهل، قنطرة عنكبوتية. فجأة، ودون سابق إعداد، كرحمةٍ نازلة، كموقفٍ خاصٍ بالعقل المهذب، ولكن أيضًا كتجلٍّ ملائكي، يمثِّل التجريد، كأمر غريب وحيد، مبهر، مريح، نعم إنه ملاذ النعمة، إنه أكثر عينية من الممارسة ذاتها، إنه انتصار قادر على إصلاح الأعطاب، وعلى أن يعيد تشغيل سلاسل النقل، مدشنًا



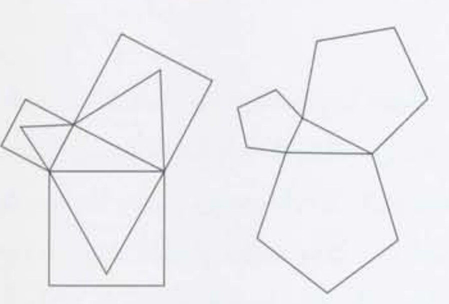
خطوة حكيمة لا يضاهيها أي شيء: إنه الجسر العجيب لحياتي بكاملها،
الجسر اللذيذ لمتعتي، الجسر السحري الذي يربط منذ قرون وقرون،
وعلى امتداد الكون، الحصى بالأرقام.
لهذا السبب، ورغم تقدم العمر،
لا زلت أحترم مهندسي هذه الجسور.

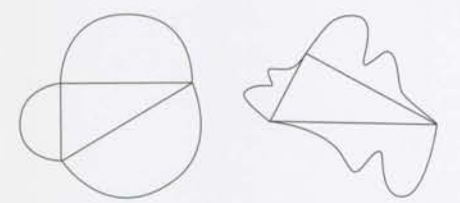
جسر الصعوبات



لم أعبر جسر الصعوبات إلا في وقت متأخر جدًّا. لنفرض مربعين صغيرين، مختلفين، ممدودين على شكل نجمة على ضلعين، منضمين إلى مربع كبير، موضوع على الثالث كي تشكّل المربعات الثلاثة نوعًا من الطاحونة الهوائية، فأنا لم أكن لأرى في هذه المسألة أي شيء يستحق الحذق والمهارة. كنت إذن غارقًا في سبات غبائي إلى أن حلّ يومٌ حاول فيه معلم كبير السن، كنت أكن له كبير الاحترام لكونه كان قادرًا على أن يجعل، حتى باستعمال يديه، أكثر الأمور صعوبة أمرًا واضحًا شديد الشفافية، فحاول أن يقوم أمامي بعملية يضم فيها كل ضلع من مثلث، أو مضلع سداسيّ، أو ثمانيّ أو عشريّ... إلى أن يصل إلى... وفيما بعد إلى نصف دائرة، أو أي منحنى كيفما كان... وكان يتفوق في كل هذا! إذا وضع على الوتَر، فإن أي شيء كان يجمع الآخرين. بالتأكيد أن على الثلاثة أن يشتركوا في نوع من التشابه، وبما أن المضلعات، وأنصاف الدوائر والمنحنيات تخضع جميعها إلى المحاكاة الهندسية، فإن ذلك المعلم الماهر كان ينتهي إلى القول بأن بين هذه النظرية التي تنسب إلى فيثاغورس والتي تعتمد القياس المتري، ونظرية طاليس حول تشابه المثلثات التي تصف الأشكال، ليس بينهما اختلاف حقيقي؛ فكل منها يعبر بطريقته على طبيعة المكان الأوقليدي. كنت قد رأيت فيما قبل الخطوط والزوايا، وقرأت الحروف والأعداد، إلا أنني لم أنتبه قط إلى الامتداد في شفافيته وعريه. خلف مظاهر الرسم، اكتشفت ذلك لأول مرة بشكل-واضح، مثل بحر اليونان منظورًا إليه من الطائرة، وهو يلمع بآلاف القلاع المرصعة بالجواهر والأحجار النفيسة. صرت أومن بالهندسة. حينئذٍ، وحينئذٍ فقط عبرت الجسر مبهورًا كجحش

فيثاغورس أو طاليس رسما نظريات تعبّر عما يخفيه المكان بشفافيته...





صغير.

... ثمّ وضع ملاك
الرب نفسه على الطريق كي يقطع
الطريق على بلعام وقد ركب أتانه، لما رأت هذه
الملاك، حادت عن الطريق، وانطلقت تجري في الحقل.
لم ينتبه صاحبها لما رأته، أخذ ينهال عليها ضربًا فأعادها إلى
الطريق. حينها اتخذ الملاك موضعه على طريقٍ مجوّفٍ كان يمرّ عبر مزارع
الكروم بين جدارين قصيرين. لما رأته الأتان انقبضت، من غير أن يرى بلعام
شيئًا، فأخذ يضربها من جديد. حينئذ وقف الملاك في ممر ضيق، بحيث لا
يمكن تجنبه، لا يمينًا ولا يسارًا. رأته الأتان فانهارت، تحت بلعام الذي أخذ
يضربها من جديد. قالت له الأتان: ماذا فعلتُ لك حتّى تضربني ثلاث مرات؟..

هذا التعداد لتعيين من عليه الدور، في الكتاب المقدس، يعزيني. يمكن
للحمير في بعض الأحيان، أن تدرك الملائكة التي لا يتبينها سادتهم، حتى وإن
كانوا من العرافين. لا تنفكّ الرياضيات تقدم كل يوم أمثلة على هذه التجارب.
أن نرى في الأمر شيئًا أم لا نراه. في حالة نتعلم منها التواضع، الذي لولاه لما
استطعنا أن نفكّر، ولا أن نعشق، وفي الحالة الأخرى، أن نعبر جسر الملائكة
فتدخل الأتان والحمار وأنا في حالة وجدٍ نادرة.



vñ die woner der hohẽ ding arnon. We dir mo-
ab. Du bist vergãgẽ du volck chamos. Du hast
gegeben ir sün in fluch. vnnd die töchter in ge-

Das .XXII. Capitel. wy
Balach seinen botẽ sendet zu Balaam das er
zu im keme vñ das volck israhel vermaledeyet.

VNd sye giengen ausz
vñ satztẽ die herbergen in den felden
moab. das da ist gelegen bey ihericho
yenhalb des iordans. Wañ do balach d' sun se-
phor het gesehen alle die ding die israhel tet dẽ

net auff dem fluß des landes d' sün ãmon dz sy
in voderten vñ sprechẽ. Sih ein volck ist außge
gangen von egipt dz do bedecket das antlitz d'
erde. es sitzt wid' mich. Darumb kum vnd fluch
disem volck. wañ es ist stercker deñ ich. ob ich es

هكذا ترسم رواية الكتاب المقدس كبير الملائكة الذي تخفيه شفافية المكان في بلعام..
مدرسة ألمانية، القرن الخامس عشر.
... هكذا جسّرت المكان الشفاف الذي لا يفصل الهندسة عن عيد الغطاس.

إذا كان إيمانويل كانط Emmanuel Kant قد جسد في عيون الفلاسفة ميناءَ كونيكسبورغ، فإن أويلر Euler قد خلده بالنسبة لعلماء الرياضيات. عبر شتلات من الجُزر، يخترقه نهرُ بريجيل Pregel غير بعيد عن مصبه.

حاز عبقري عصر الأنـوار السويسري ليونهارت أويلر Leonhard Euler، وصديق عائلة بيرنويي Bernoulli في مدينة بازل Bâle مسقط رأسه، تلك العائلة التي كانت تضم بدورها ثلاثة عباقرة سويسريين، حاز منذ صغره شهرة كبيرة حتّى إنّ الملكة كاترين العظمى دعته للتدريس في سان بطرسبورغ. مناخ روسيا القاسي جعله عرضة للمرض حتّى إنّه فقد هناك إحدى عينيه، ثمّ توفي أعمى لاحقًا. أما فريديريك Frédéric، الأكثر تنويرًا كما نعلم، لكن أكثر ملوك ذلك العهد غيرة، فقد حثه على المجيء إلى بروسيا، حيث كان يجتمع من حوله، وبفضله، أحسنُ من تعرفهم أوروبا من علماء وكتاب وفلاسفة وموسيقيين. وهكذا فقد عبر الحلقة التي عرفها موبرتوي Maupertuis أو ديدرو أو فولتير.

ها هو الآن ليس بعيدًا عن المدينة البروسية بالضبط حيث كان كانط يكتب خلال السنوات نفسها، هناك إذن يجري نهر بريجيل Pregel، وهنا على طول جزيرتين متتابعتين. لست أدري كم عدد الجسور في المدينة ذلك الوقت، علماء الرياضيات وأنا، لا نولي الآن أهمية للتاريخ. كان أويلر Euler قد شيّد سبعة جسور، أو أنه كان يفترض ذلك، هل الأمر صحيح أم خطأ، أهو خيال أم واقع، لا يهم، هناك أربعة تربط الضفتين بالجزيرة الأولى، واثنان لربط الضفتين بالجزيرة الثانية، ثم الأخير الذي يتخطى الذراع الثانوي للنهر. والآن لنذهب في نزهة يقول أويلر: هل يمكننا أن نرسم مسارنا بحيث نمر بالجسور جميعها، شرط ألا نعبر كل واحد منها إلا مرة واحدة؟ لقد أثبت، اعتمادًا على نظريةٍ، استحالةَ هذا المسار.

لا يتعلق الأمر بأحجية اقترحتها مجلة أطفال على قرائها. ذلك أن جسور مدينة كونيكسبورغ السبعة تلك ستقود المتجوّل، إن هو انتبه إلى خطواته، نحو عالم جديد، بإدخاله إلى مكان آخر وهندسات غريبة. في هذه المدينة بالذات، وفي الوقت عينه تأمل إمانويل كانط في اتجاه جهات المكان، والجسر الملتوي الذي تحدثه يدانا اليسرى واليمنى المتقابلتان وغير المتطابقتين، وكذا ذلك اللاتماثل العجيب الذي يجعل جزيئين غيرَ متطابقين رغم أن أحدهما صورة الآخر في المرآة، والذي ندعوه اليوم ثنائية الشكل énantiomorphie التي سيجعل منها باستور Pasteur وشرودينغر Schrödinger لاحقًا، مفتاحًا لعلوم الأحياء. إلا أن اكتشاف هذا الجسر الأول في مدينة كونيكسبورغ، ذاك الاكتشاف الحاسم بجميع المقاييس، لم يعمل إلا على إقامة عقبة منطقية في المكان المعتاد، تحديدًا

جولة في سبعة جسور

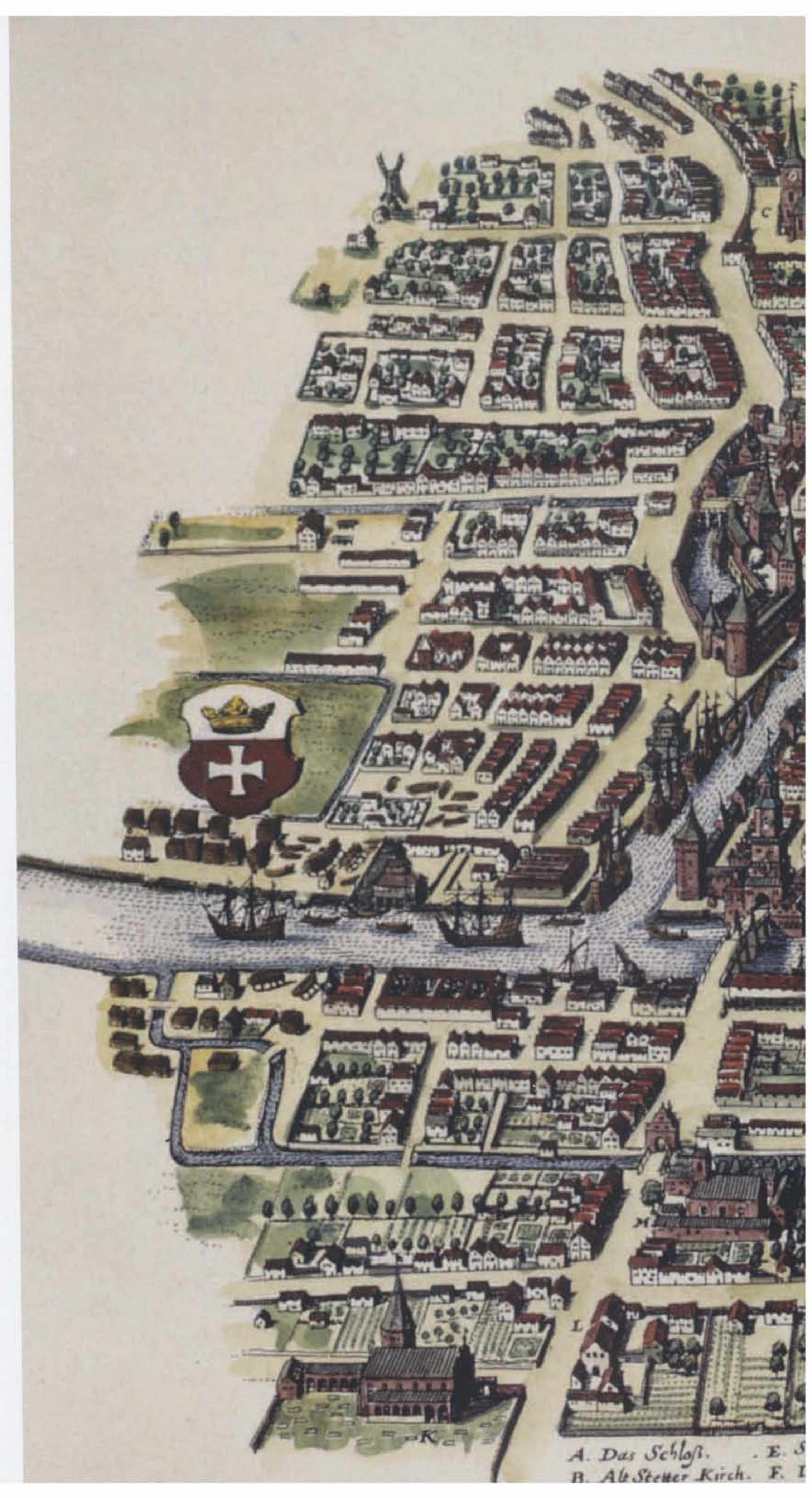
المكان الذي بُنيَ في الجسر الغريب لذلك التماثل غير المألوف. لقد ظل كانط سجين إقليدس، صحيح أنه يجسر بطريقة جديدة، لكنها تظل داخل المكان الإقليدي التقليدي.

أما أويلر Euler فقد خرج ذلك اليوم من مكان إقليدس. ذاك أنه أعلن عن طريق رسم الجسور السبعة، الخصائص الداخلية لهندسة سُميت آنذاك هندسة الوضع، وهي هندسة لا تعتمد القياسات والتكميمات، هندسة شبه وصفية، منها استقى لاحقًا كل من ريمان Riemann وبوانكاري Poincaré الطوبولوجيا. تَعتبِر الطوبولوجيا متكافئةً جميعَ الأشكال التي يمكن رد بعضها إلى بعض عن طريق تغيير متواصل للشكل ومن دون تمزّق. ارسم دائرة على منديلك، اعصُر الثوب، ثم ضعه في جيبك. ستعتبر هذه الطوبولوجيا أن الشكل الأخرق الذي ستتخذه الدائرة حينئذ شبيهٌ بالدائرة الأصل، اللهم إلا إن تمزق الثوب عند خطوط رسم الدائرة. هذه الخاصية التي تقوم عليها الطوبولوجيا، هذا التشابه في الأشكال homéomorphie يفترض أن كل شيء يمكن أن يتغيّر في شكل من الأشكال شريطة ألا نخيط الثوب الممزق.

هذا هو السبب الذي جعل السؤال الذي طرحه أويلر في كونيكسبورغ، فيما يتعلق بالنزهة فوق نهر بريجيل، يستعمل أحسن الصور الممكنة: صورة الجسور. ذلك لأنها تربط ما لا رابط له، وإلغاؤها من شأنه أن يفصل المتصل. أعود فأقول: غيروا الشكل، فإنه لا يتغير، لكنه سيتغيّر إذا، وفقط إذا أنتم جسَرتم الضفاف وقطعتم الجسور. علم المكان، علم الجسور ,Topologie .pontologie

والآن، اذهبوا لتتجولوا في البندقية أو أمستردام.


ONINGSBERGA
Der new
Pregel flu
Pregel fluuius
I Das Closter.



رسم ماتيو ميريان Mathieu Merian (1593-1650) هذا المخطط في كونيكسبورغ قبل ميلاد كانط وأويلر. لا شك في ذلك؛ فقد كانت هناك سبعة جسور أقيمت على ذراعي نهر بريغيل، عبرها تمكن العبقريان الرياضي والفيلسوف من اختراق الماء. لا تعتبروا أن في ذلك نوعًا من الحتمية: كان في استطاعة أويلر أن يتوصل إلى نظريته في مدينة من غير أنهار ولا جسور، كما أنه كان بإمكان كانط أن يكتشف جهات المكان في الريف. التاريخ لا يسمح إلا بالمصادقة على حكايات الاكتشافات.

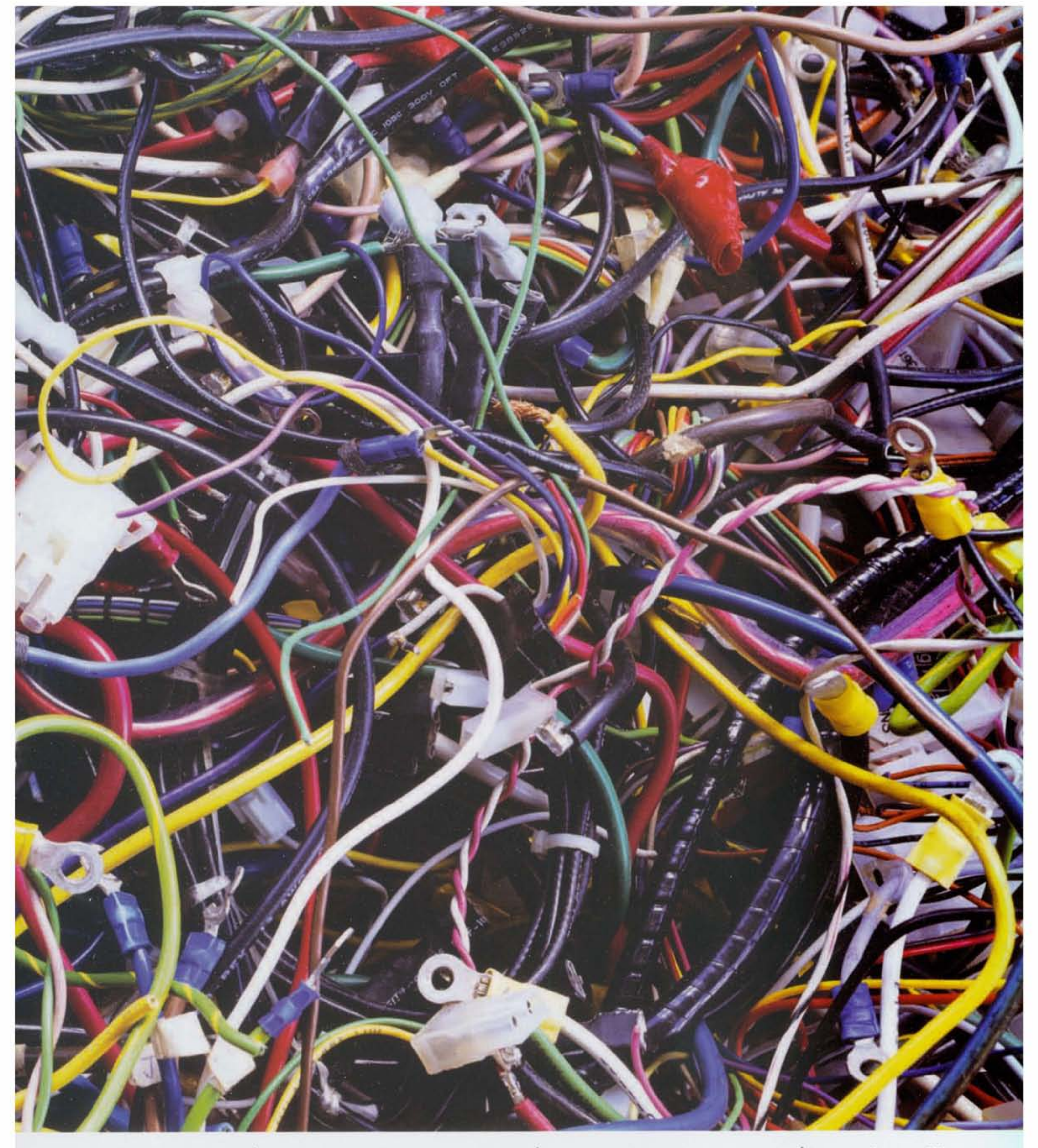
حلمت منذ فترة طويلة ببناء جسر آخر: أن أجمع بين علمَي عصرِ الأنوار، كانط وأويلر، وأوحّدهما، إن جاز لي القول، مدى الحياة. عندما زعم شرودينغر Schrödinger أن الحياة تشبه قطعة بِلّور غير متجانسة، فقد استعاد، من دون تغيير، حدس باستور Pasteur، الذي تلقّى تكوينه في البلوريات، والذي كان يتتبّع في الكائن الحي ثنائية الشكل التي كان كانط قد نبّه إليها. ومنذ ذلك الحين والثنائية ما برحت تؤرق الكيمياء الحيوية.

أما فيما يخصّني، فأنا منبهرٌ بتطور الجنين، الذي يكون مستقرًا بالتأكيد في بعض النواحي، إلا أنه لا يكف عن التحول عن طريق تمزق أنسجته وطيّها، وعن طريق العلائق التي يربطها، من غرز ورتق، وقطع وفتق، كما أنني بالكيفية نفسها، مندهش من تواتر هذه العمليات نفسها من طيٍّ وقطع على مستوى الخلية وجزيئاتها التي غالبًا ما يحدد طيُّها وظائفَها، لذا فإنني أتساءل لماذا لا تُستثمر الطوبولوجيا استثمارًا أكثر وأفضل هذه المجالات التي يتجلى فيها دون انقطاع تشابه الأشكال ويتلاشى.

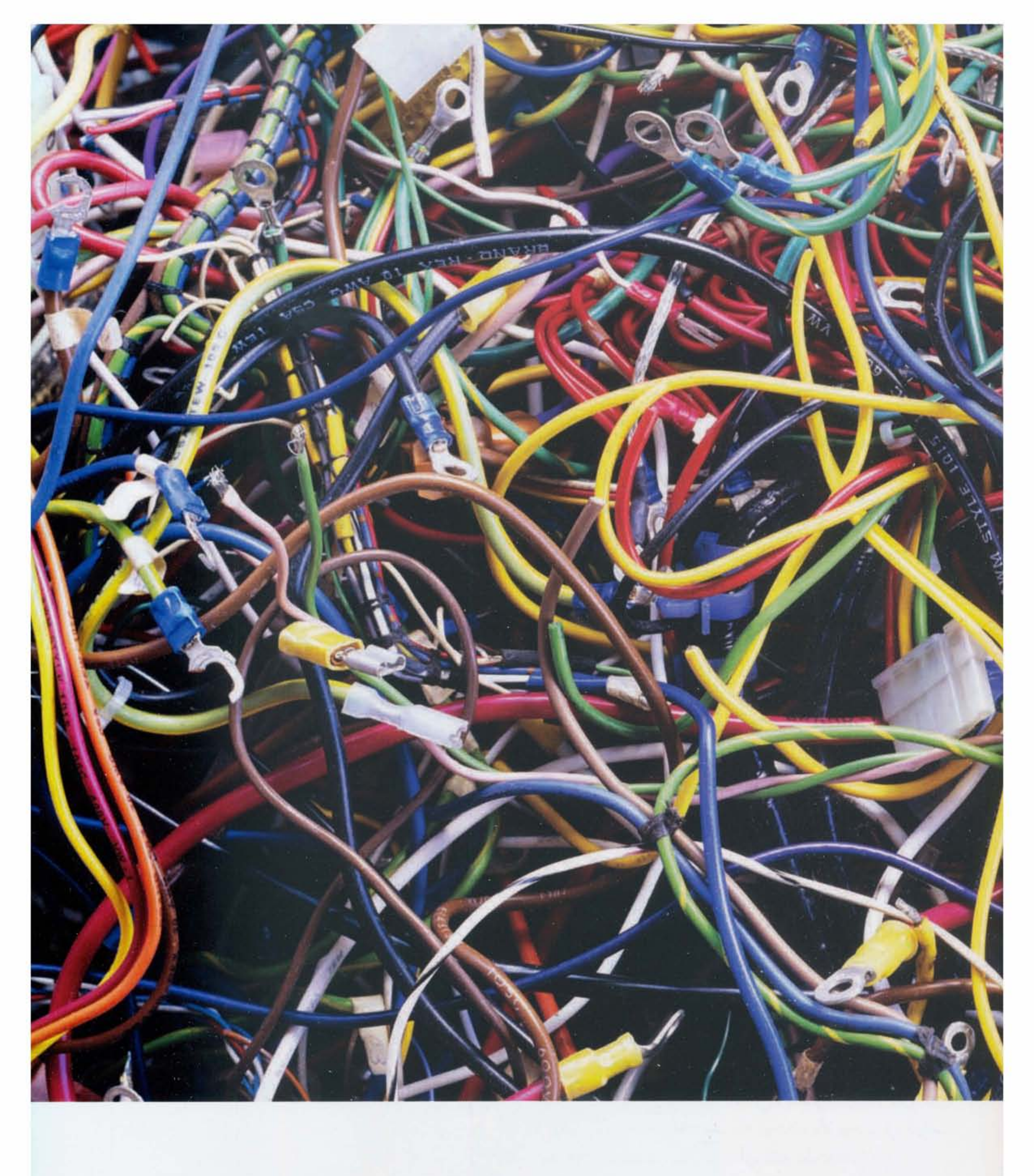
حتى الحياة تمر من جسور مدينة كونيكسبورغ السبعة.

هل تعلم أن ملايين التفاعلات الكيماوية في الثانية تتم في رحم المرأة الحامل؟ المجد للرحم، وللأرقام الخيالية التي تجسر، من البويضة إلى المولود الجديد، وفي غضون أشهر قليلة، مستويين من المقادير لا علاقة بينهما: من الخلية الوحيدة إلى نحو ألف مليار خلية متخالفة ومنظمة ومترابطة. يا لها من معجزة!





ما العبقرية التي يمكنها أن توجه نفسها في هذه المتاهة التي تمثلها أسلاك الكومبيوتر؟ مقارنة بهذا، هل بإمكاننا أن نخمن ما سلم المقادير الذي ترتفع إليه العلائق والتوصيلات والمسارات والطيات والمعابر عند الكائن الحي؟ وبالأخص في الدماغ، حتى دماغي أنا عندما أنام في عطلة.



وأخيرًا تم التقاط صورة للاّشعور

تعلقُ بذهني ذكرياتٌ مؤلمةٌ عن الأشغال التطبيقية في المدرسة الثانوية. كان علينا أن نُشرّح الضفادع، من غير أن نسمع صراخها، كما كان علينا أن نلصق بطاقات بقارورات زرقاء وخضراء، وأن نوصل الدوائر الكهربائية، وكان هناك زملاء يشغفون بذلك إلى حدّ أنه كان بإمكاني أن أسرق محافظهم الجيبية من غير أن ينتبهوا للأمر، بالطّبع كنت أعيدها عند الخروج من غير أن ألمسها، كان عليّ أن أتسلى عما يخالجني من سأم لشدة ما كنت أشعر به من غربة عن هذه الانشغالات التي كنت أنتظر بفارغ الصبر نهايتها كي أتفرغ للَعب الكرة.

باستثناء مرة واحدة. حيّرني بناء جسر يسمى جسر ويتستون Wheatstone. لعل بعض القراء يذكرون جهازًا شبيهًا: وهو مكون من شبكة من المقاومات والمكثفات، والأسلاك، والمعابر المعقدة. كان عسيرَ التركيب، ويحتاج إلى عمل شديد الدقة، لوضع الأجهزة في مكانها المناسب وضبطها.. كل هذا من أجل لا شيء. هللت لانتصاري! ها هي اللاجدوى في أبلغ صورها قد تحققت، نتيجة عمل جاد وشاق! أشغال تطبيقية ألغيت أخيرًا! كنت أقول في نفسي، إنه عمل فني أعزب.

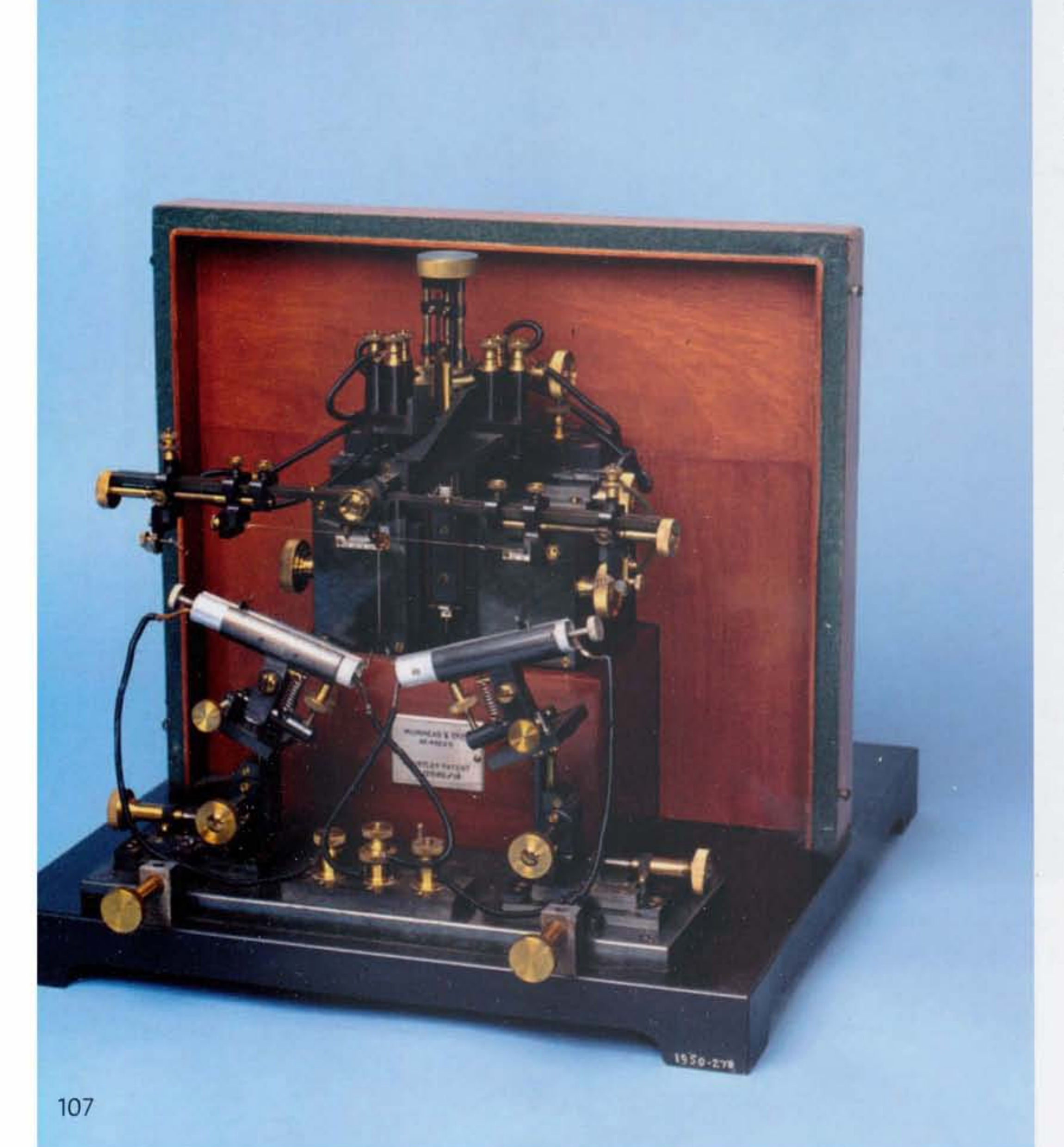
يتطلب هذا بعض التوضيح: فهذا النسيج الرهيف حيث تمرّ تيارات كهربائية ترغم على التباطؤ والتسارع والتقويم والتصفية بكيفيات متنوعة، كل هذا النسيج كان يصل إلى نوع من العقدة أو مفترق طرق، وباختصار، إلى نقطة نهاية حيث، ويا للعجب! يكون فرق الجهد مساويًا بالضبط لذلك الذي كان يمكننا قياسه في عقدته ومفترق طرقه الأول، أي نقطته الأصلية. عند الانطلاق هناك مقدار هو الذي نلفيه عند الوصول. فكما لو أن الشبكة لا وجود لها، كما لو أن التيار لم يخترق إلا الفراغ. كما لو أن هذا التراكم غدا شفافًا، كما لو أننا اشتغلنا من أجل أمرٍ تافه. كل هذه الأشكال من العشق والملذات والفرح الإلهي، صفر يساوي صفرًا. يا له من تقدم. قلتها لكم ما يكفي، من الأفضل لعب الكرة المستطيلة.

كنت سأنسى هذا الانتصار الجمالي وغير المتواضع، لولا أنني اطلعت، بعد فترة طويلة، وعندما أصبحت مؤرخًا للعلم، على كتاب المطول في الكهرباء والمغناطيس لماكسويل Maxwell، حيث عثرت في الصفحة كذا، على صديقي القديم الأعزب، جسر ويتستون Wheatstone. في هذا المكان بالضبط يضع المؤلف أسفل الصفحة الهامش كذا، يحيل فيه إلى عالم رياضي ألماني يدعى ليستينغ Listing، لكن لا يهم الاسم كثيرًا، وإلى هجاء كتبه تحت عنوان Raumlische Complexe، استعاره عنه الفيزيائي الإنجليزي كي يطلقه على هذا الجهاز. عذرًا على التقصير: الجميع في هذا العصر كان يطلق على تلك الشبكة، وعلى ذلك الجسر لفظ معقد Complexe. إنه اسم جيد في الحقيقة، لأن الأمر يتعلق بنسيج ذي طيّات معقدة، وهو اسم ممتاز على الخصوص، لأنه في حدود ما سمي معقدًا، لا شيء يمكن إدراكه، لأن فرق الجهد ينعدم عند تلك الحدود. إنه يوجد، ولا يوجد في الوقت ذاته. وهو يعمل بشدة، لكن دون أي تأثير ملحوظ.

تصوروا الآن أنسجة معقدة من الطاقات مشدودة في جهة ما في نفوسكم، وقد شكلت كومة مزدحمة أو ازدحامًا متراكمًا من مرشّحات وفرامل تغيّر نفوسكم وتقبض عليها، تسحقها وتسجنها. ثم حاولوا فيما بعد أن تتصوروا أن كل اختلاف سينعدم عند حدود هذه الشبكة، الفعّالة، لكن المنفعلة في الوقت ذاته، فإن نفوسكم ستعجز مطلقًا عن تبيّن ذلك.
إنها ستعمل بشدة، وتتعب من أجل ذلك، لكن، دون أن تتمكن من معرفته ولا إدراك جزئياته وتفاصيله. واعجباه! هذه خطاطة شبه شفافة عن اللاشعور، خارجية، مكانية، قابلة للرؤية والقراءة والحساب! كانت متعة صباي تتأتى من كوني، ومن غير أن أعرف بطبيعة الحال، أقتحم حينئذ غرفة سوداء مزودة بنور فيزيائي يفتت ظلمتها أو يفسرها.

فهل كنتم تعلمون إذن أن عددًا مركّبًا يشكل جسرًا؟

ينبغي زيارة متحف تقني حتى نقدر تمام التقدير طرقنا في التفكير. عندما نختزل العضوية في آلة، ينبغي أن نحدد أية آلة، كما ينبغي أن نتعلم أن مخترعي هذا الاختزال كانوا يرون قديمًا في الجسم البشري روافع وبكرات، وفيما بعد قاطرة دافعة، وباختصار، أجهزة تبدو لنا اليوم قد مضى عليها الزمن، مثل هذه الآلة التي تزيد في العمر، والتي تعود إلى ما قبل الإلكتروني (1919): فكما لو أنها ديناصور. كيف سينظر أطفالنا غدًا إلى أجهزة الكومبيوتر التي نستخدمها نحن؟





لدينا ثلاثة أفواه: الفم الذي يسلم، حبًا، والذي يشرب، من شدة العطش، ثم ذاك الذي ينطق، الفم البشري. من بئر المرأة السامراتانية la Samaritaine ينبع شراب الخلود الذي يجسر تلك الأفواه الثلاثة.

المسيح والساماراتانية، منسوبة للفنان لازارو باستياني.

Le Christ et la Samaritaine, attribué à Lazzaro Bastiani (1430- 1512).

الكتابة، الكلام، الإصغاء

أتحدث إليك فتجيبني. يخرج من فمي جسر سيرتمي في أذنيك، وسينبثق من شفتيك آخرُ سيغرق في أذنيَ أنا. انظر إلى الآخرين يتحدثون فيما بينهم، فهل يعون بأن أجسامهم تشكل أعمدة يمتد عليها جسر آخر بينهم؟ إننا لا نتبين قط جسر التنهدات هذا، جسر الرباط، هذه القنطرة القديمة للمعلومات البشرية، الشفافة، الصوتية، الموسيقية، التي من دونها سنكون صمًا بكمًا، فنعيش حياة أقل جودة، مرتبطين فحسب بالإشارات، والهمهمات والصرخات، بجسور منهارة. واقفين كأعمدة، عبر وجوهنا تمتد جسور.

تُجسّر اللغة فضاءنا.

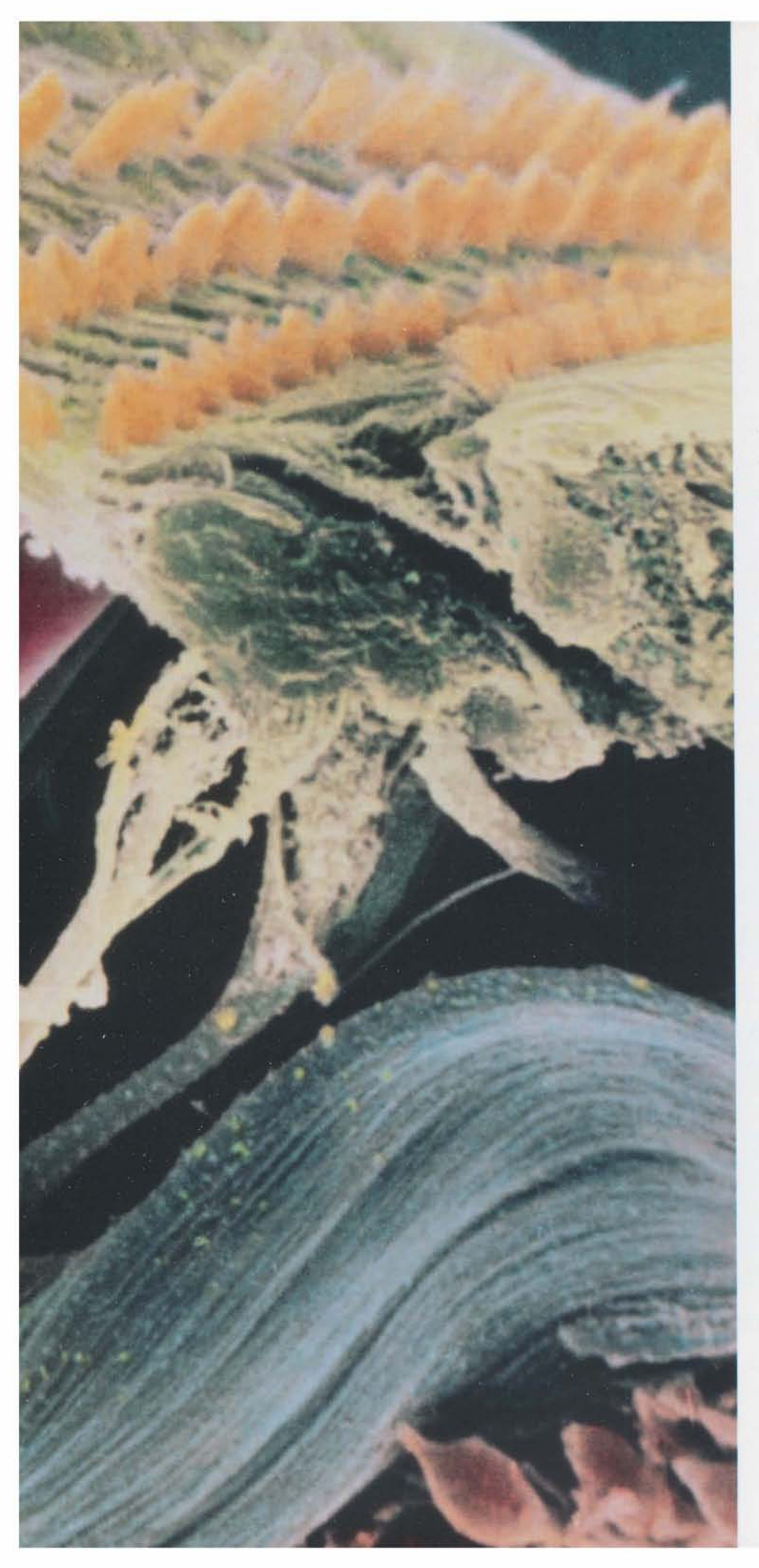
والأشياء التي نتبادلها تمر أولًا عبر هذا الجسر.

أكتبُ إليك، فتجيبني. يخرج من يدي جسر سيغرق في عينيك، سينبثق عن أناملك جسر آخر سيضيء عينيَ. انظر إلى الكتب المطبوعة: فهل نعي أن هذا النص لم يتحرك، وأنه ظل ثابتًا منذ أن كتبه مونتيني أو مجهولٌ آخر، منذ أربعة قرون أو عشرة أيام؟ وأن جسرًا معلوماتيًا امتد ليكمل حمولته اليوم في قصدي، وضغينتي أو حماسي؟

إنّ الكتابة تجسّر زماننا.

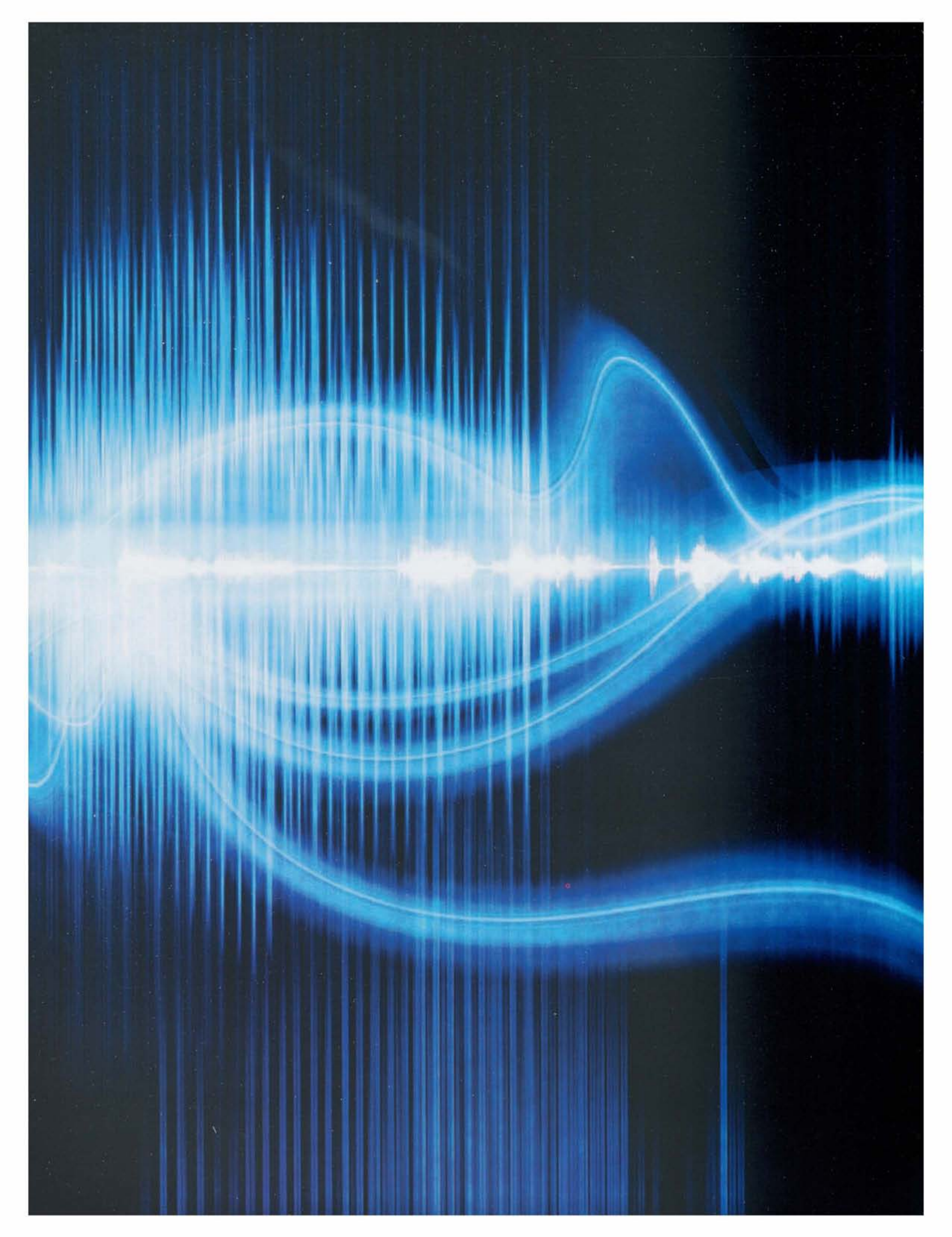
ألامس البيانو، فتستمع. يصدر من أوتـاره جسر، كـان بلا شـك، قد صـدر قديمًا من فم فريديريك شوبان وحباله الصوتية، وهو سيمتد بعيدًا بفضل أناملي، تلك الأعمدة التي تتوسطنا، محدثًا اهتزازات، مالئًا الفضاء، حتى يبلغ التجويف الصدري لمستمعيّ، وينفذ إلى أحشائهم. فهل نتفرغ اليوم إلى نقل صوت خرج من النسيان، كما لو خرج من الجحيم، وتصاعد من أعماقه، مثل شبح عائد، بفعل النداء السحري للضرب على الصندوق ذي الملابس البيضاء والسوداء، كما لو كان على خشبات نعش؟

إنّ الموسيقى تجسّر زمَكاننا.



تجسّر الأذنُ النفسَ والجسد. ما ندعوه أذنًا خارجية يلتقط الإشارات: الأصوات الشائكة، الموسيقى العذبة، مقاطع فكر، خطأ وحقيقة، ضغينة وحب، اهتزازات عاطفية. إذا كنت أصم، فأنا معرض لتضييع المعنى. أما الأذن الباطنية، فهي تساعد على التوازن، واختلالها يؤدي إلى الدوار، والغثيان، وفقدان المرجعيات المكانية. إذا كنتُ أعرف المكان المضبوط الذي تتجاور فيه الأذنان، الخارجية والباطنية، فإنني سأتذوق سر الارتباط بين استقامتي في العالم وفهمي القلق للأشياء والآخرين. عضو ذكورتي في الأذن الباطنية: اهتزازات الشعيرات تنقل كهربائيًا الحركات الميكانيكية.





أبـرهـن أمامـك
على نظرية فيثاغورس،
التي تسمى في بعض الأحيان
جسر الصعوبات. ينبثق من العصر
القديم الجسرُ العظيم الذي كان ضائعًا منذ
عهد بعيد في تفاصيله، لرسالة لم يلحقها تغيير منذ
ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة. لا يحصل هذا قط. يكاد مغزى ومرامي ذلك
الذي اكتشفها يصلنا اليوم من غير ضجيجٍ ولا حذفٍ ولا تكرارٍ ولا حاجز، عاريًا شفافًا، مثل مولود جديد خرج من قناة والدته، لحظة يظهر فيها. إننا نتلقاه الآن، وهنا بالضبط، كما صدر قديمًا هناك. جميع الرسائل الأخرى، بدون استثناء، من سياسية ودينية واقتصادية وثقافية، تمرّ عبر جسور تحبسها مصافٍ وحيل، وأكاذيب، ورجال ضرائب وشرطة وكل ما ينغص المرور. كل القصص ترشح، مثل صهاريج مخترقة بعشرات الثقوب، مثل برميل الدنايد Danaïdes المنفصل الأعضاء الذي يسيل ببقايا نسيان (بنات الملك داناووس Danaos اللواتي حُكم عليهن بأن يملأن في الجحيم برميلًا مثقوبًا). دائمًا وفي كل مكان، تنهش ألف من الطفيليات المعلومة التي لا نلتقط منها في النهاية إلا الفتات. لا يمكننا أن نحافظ على الثقة إلا بهذه الرسالة.

وحدها الرياضيات تجسّر الذاكرة، ووحدها تجسّر التاريخ.

هذه رياضيات أصواتنا: تجسر الصواب والخطأ، الضغينة أو اللطف... المنحنيات تهتز، إنها عالمية.

الكاتب يجسر اللغة المشتركة

نسمع في مراكز الأشغال عبارات من قبيل؛ La culéecontre-bure المهندسون وعمّال البناء والحدادون، يفهمون هذه العبارة. إلا أن عليّ أن أترجمها إلى معظم القراء بهذه الطريقة: ينبغي بناء هذه الكتلة لاحتواء الدفعة التي يحددها ضلع هذا الجسر ودعمها. عن طريق هذا المثال، نتبين أننا نتكلم لغتين على الأقل: لغة حرفتنا، بنّاء جسور، إسكافي، طبيب توليد، سبّاك، نائب برلماني، نجار، محامي، ثم اللغة التي نستعملها مع جيراننا وحفيداتنا في الحياة اليومية. المزج بين اللغتين تتولد عنه نتائج لا تخلو من جمال وهزل. وأنا ملّاح صغير السن، أطلعتُ طبيب السفينة على الأوجاع التي تسبّبها لي السفينة. إن اللغة التي تتكون من متون مختلفة، متنِ الرياضيات والجلد أو الخشب، والجراحة أو الإعلاميات، كل متن موجه لتخصُّصٍ بعينه، تعمل على خلق الوحدة بين المتحدثين بها عن طريق هذا المعجم المشترك الذي يستعمله الجميع. عندما نتكلم الإنجليزية، والفرنسية والأردية والصينية. نسمع هذه اللغة المشتركة، ما كان الإغريق يدعونه koinè، ذلك المفصل ذا المئة لهجة الخاصة التي تشتمل عليها كل لغة. إنها تعمل جسرًا يعبره يوميًّا كل متحدث.

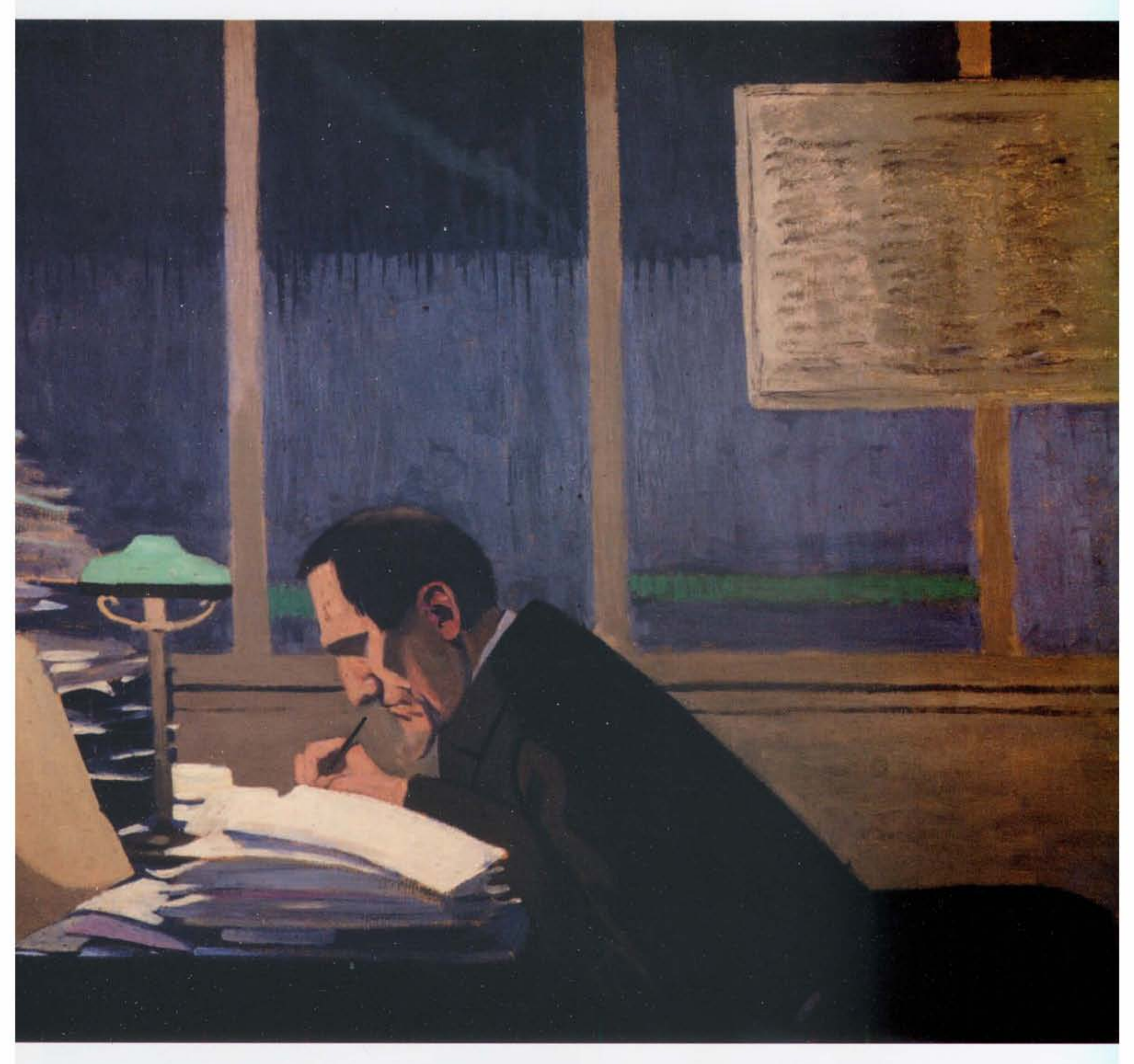
بشكل عام، وبالنسبة لعشر لغات مختلفة، فإن العالَم والتاريخ لم يخلوَا قط من لغة تواصل يمكننا أن ندعوها لغةً عالية. لقرون، تحدث البحر الأبيض المتوسط اللغة المشتركة الإغريقية koine التي جعل رسوخُها اليهودَ يستعملون لفظ synagogue، والمصريين لفظ pyramide. استعمل العالم المأهول اللاتينية خلال ما يقرب من ألفي سنة، قبل أن تصبح اللغة العربية، لمدة طويلة، والفرنسية لمدة ثلاثة قرون، والإنجليزية اليوم، بالتتابع الوسيلة المناسبة للتجار والملاحين والأطباء وعلماء الفلك. كل هذه اللغات استخدمت وتُستخدم وستُستخدم جسرًا يعبره كل يوم من يسافرون من ملاحين وبحاثين في العلوم، وملحقين بالسفارات وسياح... لن نستطيع أن نخمن من سيحمل المشعل غدًا. توشّح السماء الليلية تاريخ لغات التواصل هذه: نجوم بأسماء هيلينية، تلمع فيها أنتاريس Antarès وآركتوروس Arcturus بعيدًا عن السيريوس Sirius اللاتيني وعن الرجل Rigel أو بيتلجوز Bételgeuse العملاقين الأزرق والأحمر اللذين أطلق عليهما العرب تباعًا رِجل الجبار ويَد الجوزة. لم تكفّ الإنسانية مطلقًا عن التحدث بهذه اللغة المشتركة، التي أصبحت تُسقَط على السماء، وخصوصًا اليوم، حيث نطير من ندوة إلى مؤتمر، في جميع خطوط العرض، وحيث يلاقي مئة سائح عشرة آلاف مهاجر.

مثل بقية اللغات الأخـرى، فإن لغتي، الـ la koinè التي نتحدثها يوميًا، تتألف، بالإضافة إلى ذلك، من عشرة متون أخرى. هي المشتركة، تعيش بفضل اللغات الأخرى الخاصة. نعم أنا أحدد اللغة على أنها اللغة المشتركة Koinè الباطنية لكل هذه المتون المتعددة والمتفردة والمتخالفة. إنها تستعمل، بطريقة فضفاضة، الألفاظ الدقيقة المضبوطة، التي تستخدمها العلوم والفنون والحرف. مثال على ذلك: إذا كتبتم poutre et câble (جسر وحبل)، فإن الجميع سيفهمونكم، إلا الملاحين الذين يقولون aussière، والنجارين، الذين يقولون arbalétriers، والحال أنكم إن كتبتم هذين الكلمتين فلا أحد سيفهمكم. أما إذا ملتم إلى استعمال الكلمة الفضفاضة وردة للدلالة على myositis، أو cyclamen، أو كلمة حبل للدلالة على bitord أو fil de caret، فإن أهل الحرفة سيقولون لكم إنكم لا تعرفون عمّا تتكلمون. يتمخض عن ذلك، التعريفُ الحاسم لمهنة الكاتب: إن دوره، بل واجبه، هو أن يفتح، في الـزمـن الفـعـلي، سبيل الـتـواصل بين هذين الخطابين، أعني أن يبني، حَجرةً حجرةً وكلمةً كلمة، جسر اللغة المشتركة koinè داخل لغته هو. إنها تعيش حقًّا هذه الحركة المتواصلة التي أبدعها الأسلوبيون الكبار، وهـم يجـتـرون هذه المتون ويربطونها مع اللغة المشتركة.

الكاتب الجيد هو حَبر pontife اللغة.



الحزام الكتفي، الذراعان، والسيقان المفتوحة بالزاوية نفسها... تحوّل الجسم وهو يعمل إلى قوس جسر.
Homme taraudant le bois de la Croix, Albrecht Dürer, 1518.



صار مقص الخشب وشفرته هو القلم ونقطته. تحوّلت الخشبة إلى صفحة ورق، والشق إلى أثر. تحوّلت العدة الثقيلة إلى أوراق طائرة، والنجارة إلى خدش، والنجار إلى كاتب. لكن، سواء انبعث من المصباح أم من الهيكل، فإن النور نفسه يضيء هذين العينين، واليدان اليمنى واليسرى تسندان القوس نفسه للكتفين على زاوية الظهر نفسها. بواسطة العمود الفقري المائل، والرأس المنتبه والأصابع العشرة الماهرة، فإن جسم العاملين يجسر العمل والتجريد، وهما معا يدويان على النحو نفسه.

Félix Fénéon à la Revue Blanche, Félix Vallotton, 1900.



عندما كنت أقتحم قديمًا غرفة، فأرى تنورة بيضاء ملطخة، أصرخ: هذا كيميائي! وعندما أرى سترة رمادية، وملاقط ومطرقات: هذا نجار! وعندما أرى شابًا شاحبًا، يحمل الطباشير في يده أمام لوح أسود: هذا مهندس. وعندما أرى تنورة من جلد أمام موقد: هذا حداد! وعندما أرى امرأة في خزانة كتب: مؤرخة!... كيف يمكننا اليوم أن نصنف هذه الحرف، عندما أدخل الأماكن نفسها، فأراهم جميعا أمام كومبيوتر؟
معمل السيد باكون، القرن العشرون.

جسر الوفاء

يقترح كلانا ميثاقين ممكنين، ضمانًا للوفاء؛

الميثاق الأول، بقسمه باليمين، يضمنها مدى الحياة، مهما كانت الظروف. هذا القسم يفترض أن التغيرات الحتمية الناجمة عن الزمن والشيخوخة والتجربة... لا تغيّر في شيء لا القرار ولا نفس من أدى القسم. إن حدثت هذه التغيرات، فإن الطرفين يتشبثان بكلمتهما. قد يحصل أن يرقى هذا الوفاء إلى مستوى البطولة أو القداسة، الأمر الذي تؤكده مئة حكاية نموذجية. هذا الميثاق الأول، القريب من روح القانون الروماني، الرسمي، والمؤسَّس على مبادئ أو الشبيه بالاستدلال المنطقي، يُوقَّع الآن وهنا وإلى الأبد: إنه خالد كما لو كان محفورًا على قطعة رخام. لا نتراجع عنه قط.

أما الميثاق الثاني فلم ننفك نوقع على أحرفه الأولى في الزمن الفعلي. والعلاقة التي نربطها معه، لا ننفك نتكلم عنها كل لحظة، بالنسبة لكل مشروع، وعند كل مناسبة. لا مبدأ لنا إلا الاستمرارية، إلا مواصلة نقاشنا، إلا المتابعة العنيدة لاتفاق لحظي. نُقسم، اعتبارًا من اليوم، أنه عند كل فرصة، ومناسبة أو حدث، فإننا سنأخذ بعين الاعتبار من غير أن نخفي عن أنفسنا شيئًا، رغباتنا وتصرفاتنا واحتياجاتنا المتتابعة. هذا القسم القريب من روح القانون الأنجلوساكسوني، الشبيه بالاستقرائي، الفقهي والمؤسس على تدبير الحالات الخاصة، يتكيّف مع التغيرات المحتملة ويتبعها. نتّفق حتى على ما لا نتفق عليه. لا ننفك نرجع لميثاقنا الذي نعتقد أن بإمكاننا حتى أن نشوهه إلى حد أن نجعل شكله الأول لا يمكن تعرّفه، إلا أننا نسعى إلى الاتفاق حول أي شكل جديد.

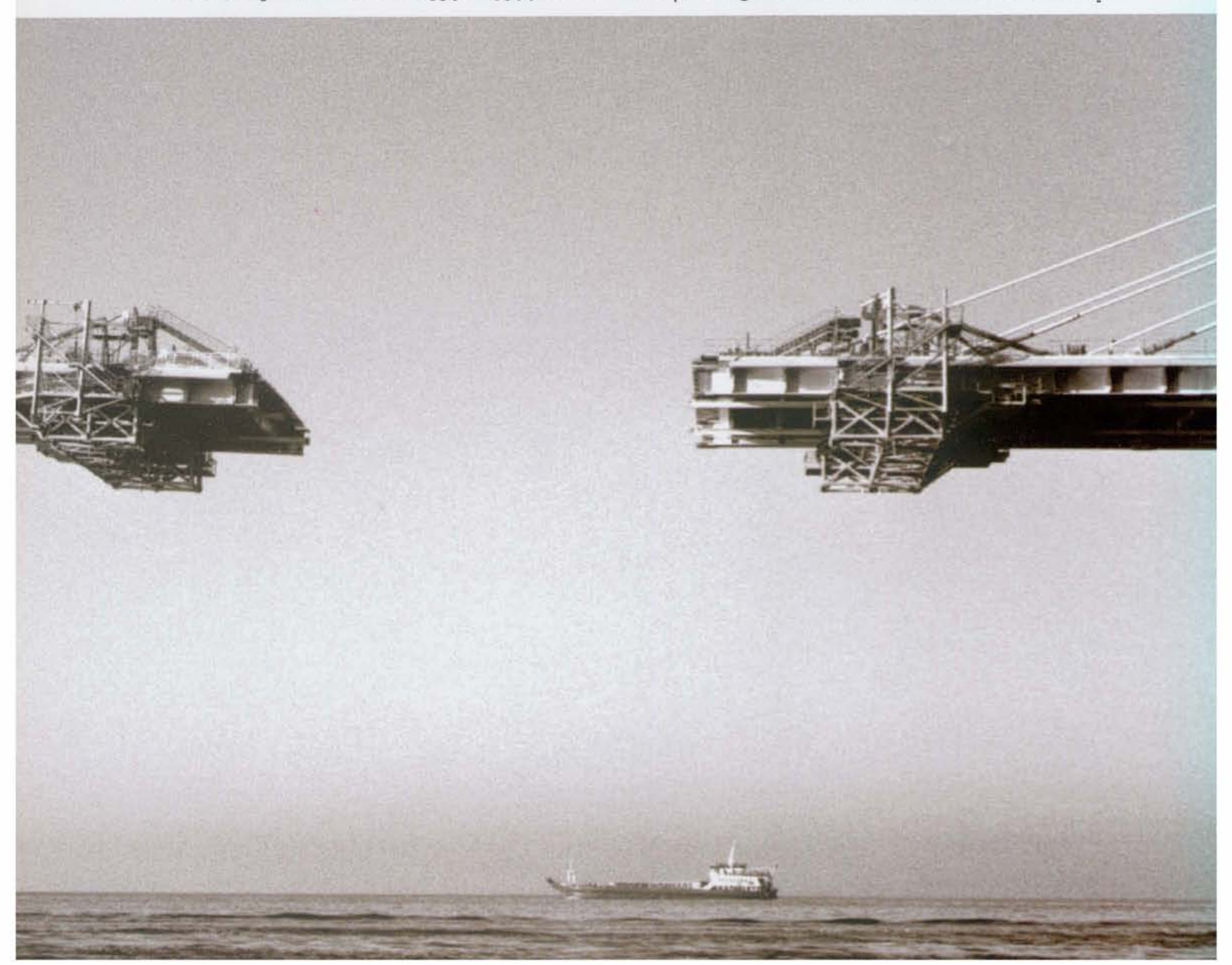
ولكن، كيف كانوا يعملون من غير GPS، كيف يلتقي بهذه الدقة هذان الذراعان اللّذان يرتمي الواحد منهما نحو الآخر على هوة تحفه الأخطار؟
قنطرة فيور Viaur، المرحلة النهائية، أبريل 1902.



بينما يسعى الميثاق الأول إلى ضمان الخلود، فإن الثاني يحيا مثل شجرة. الأول يمكنه أن يكسر، أما الثاني فيتحول ويتبدل. أحدهما يعرض نفسه للخيانة، ولا ينفك يخون نفسه، أما الثاني فيترجم نفسه بالأحرى. إما عدم التغير بفعل الزمان، أو اللامتغير بفعل التغيرات. إما صلب، أو سائل. إما ثابت، أو متحوّل. إما عنيد، أو قابل للتكيّف. إما خالد، أو متجدد. كل واحدة من أشكال الوفاء هذه تعبّر عن فكرة حول طبيعة الزمن، حول ما يتغير، وما لا يتغير. إما أن نحافظ على الاتفاق الأصلي، أو لا ننفك عن الحفاظ على القرار المشترك لتحرير اتفاق جديد.

كل واحد من هذين القسمين يدّعي أنه يقتصد الطاقة والزمن: يتهم أحدهما الآخر بتبذيرهما، والآخر يتهمه بعدم التمييز بين الزمن والخلود. أتوقع، إلى اليوم، أن يكون هناك ميل إلى تفضيل الجسر المؤقت المرن والحيّ على الجسر الحجري: ومع ذلك، فإذا كانت الأجسام الصلبة تنكسر، فإن الأحياء يموتون أيضًا. لكم أن تختاروا بين جسر روماني وبين جسر ينبغي إصلاحه دون انقطاع! وكيف تتأكدون من أنكم ستجدون غدًا مصلحين؟

الشيء نفسه مئة سنة فيما بعد، يحرص GPS على انسجام شديد الدقة. جسر ريون-أنتيريون Rion-Antirion، وضعيته سنة 2003.



أفضّل بطبيعة الحال، الحديث عن الحب. لكن، ضمن الحركة التي يدعوها البعض عولمة -كما لو أننا، ومنذ خروجنا من إفريقيا، لم نعبُر، ولم نغزُ، ونحتل العالم بمجموعه- تهيمن مسائل القانون. إذن، يُطرح في البداية السؤال حول معرفة على أيّ نوع من القوانين سنؤسس مواثيقنا. فحسبما إذا اخترنا النوع الأول أو الثاني، فإننا سنقتحم زمانًا أو آخر، بل إننا سنبتدعه. فهل توفَّر للإنسانية، مثل اليوم، الفراغُ والحق في اختيار زمان التاريخ الذي سينمو فيه مستقبلُها؟ من سيجرؤ على عبور هذا الجسر؟

قطع الجسور 2

من بين لغزي العشق، لا نتحدث حقًّا إلا عن الأول. إنها غيرت حياتي بمجرد أن رأيتها، كما تقول. كيف حصل أن هذا الكمال الغريب قد أصبح، في لحظة بعينها، الجسد الوحيد الذي يهمّ، الشخص الوحيد الذي بإمكانك أن تبني معه حياتك، والذي لا يمكنك أن تتنفس من دونه. يتحدّث ستاندال Stendhal وعلماء النفس، والجميع عن الحبّ من أول نظرة، الذي يقال عنه أيضًا، إنه لا يحصل دائمًا. بناء الجسر يثير الدهشة، ونحن نرغب في التمكن من الطريق إليه.

كيف حصل، على العكس من ذلك، أن هذا الجسد، هذا الشخص وهذا الكلام، الذي لم يكن بإمكانك منذ سنين أن تستغني عنه، كيف حصل أنّ عنوانه اختفى، فتبخر كل تدفق الدم والكلام الذي كان يهدى؟ كنتَ تسكن فضاء ذا مرجعيات محددة، ينتسب إلى قطب، إلى وجهة نظر، إلى مركز ثقل، إلى بئر جذاب، نعم، إلى سرة العالم هذه، وها هي ذي كل خطوط القوة الموجهة نحو هذا المكان، مثل حزمة على شكل مروحة، لم تعد تترك أي أثر على مشاعرك.

هل يمكننا أن نعبّر عن لغز هذا الاختفاء؟
لا شيء يفنى ولا شيء يُستحدث، الكل يتحوّل كما يقال. ومع ذلك، فيظهر أن تفسير قطع الجسور أكثر صعوبة من بنائها في هذا المضمار الذي نحن بصدده. لا أحد يبني الأعمدة، ولا الأقـواس في أي مكان وكيفما اتفق، ينبغي أن يكون هناك تقريبٌ بين الضفتين، وتضييقٌ للسيل، وخنقٌ للمضيق، وأن يتوفر اللباس اللازم لحفر الأسس، والصخور المحيطة، والأمل في ممرّ كثيفٍ كي تعوض مداخيل العبور المصاريف، والموافقة على الاستثمار... بكيفية ما، فإن الجسر الذي ينبغي بناؤه موجود بالفعل، على الأقل افتراضيًا أو كإمكانية بالأحرى. بناؤه يحقّق هذه الشروط: لا يمكنه أن يمتد إلا هنا أو هناك. لكن، هل يمكننا أن نتصور اختفاء جسر الجار Gard اختفاءً نهائيًا، ومحو جِسرَيّ الطاج Tage أو الكلايد Clyde من الخريطة، و ذوبان جسر الملائكة Anges أو جسر الشيطان Diable؟

نريد للحب إذن أن يبقى دائمًا. وعلى ذلك يكون السجع بين amour و toujours في محله.



هل هو فيلم كوارث أم هجوم إرهابي؟ أم هي نهاية فيلم الاندفاع نحو الذهب؟ أم هو انفجار الفقاعة الإعلامية؟ أم أنه محاكاة لزلزال تحت البوابة الذهبية Golden Gate في مختبر عباد الشمس Tournesol؟
The Core, film de Jon Amiel, 2003.



صيغة



أحلمُ بإعادة كتابة كتاب "جماليات كارباشيو" Esthétiques sur Carpaccio،
الذي تقطّع صعوبة كتابته، ليس فقط جسر السانت كونفيرساسيون La Sainte
Conversation (القرن الخامس عشر)، وإنما أيضًا جسر الفهم. في انتظار ذلك،
أرجو من القارئ أن يسامحني ذلك الغموض اللاأرمي لنزوة الشباب.

الصفحتان التاليتان: قنطرة شافانون. Chavanon, Puy-de-Dôme, 2000

كل شقاء البشر يأتي من أمر واحد هو كونهم لا يعرفون البقاء مثنىً في غرفة.

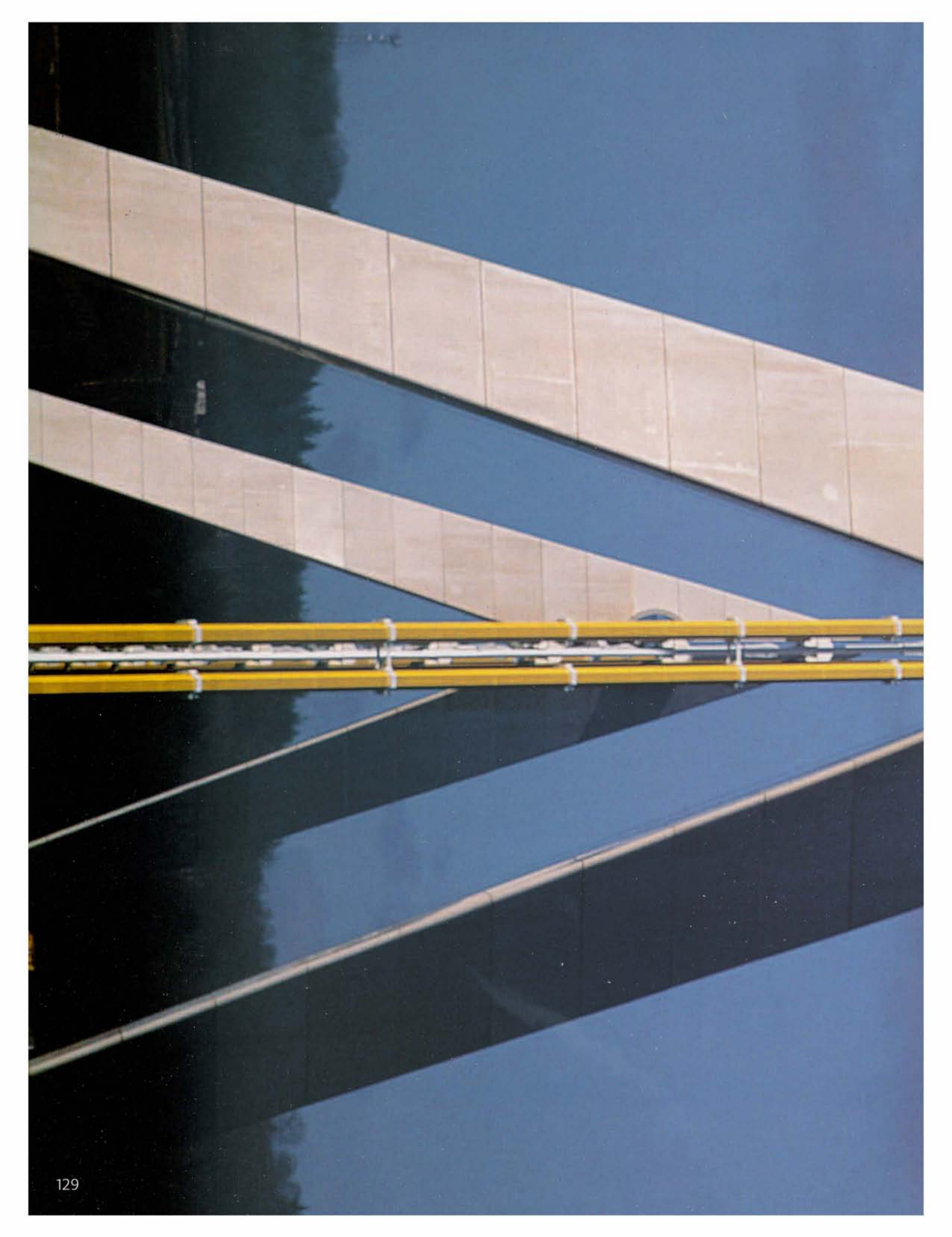
كانت ماريا، جدّتي من والدي، رشيقة نشطة، تزوجت أوغسطين، وكان كسولًا قويًا، هو جدّي بفعل الأمر الواقع. يبدو أنني أشبهه. شلل نصفي أقعد الأولى، أما الثاني فقد أمضى عشرين سنة شاقة وهو يدفع زوجته من الفراش إلى الكرسي المتحرك، ومن الكرسي إلى الفراش. بقية الوقت يقضيه في قيلولات عديدة، بينما جدتي، التي كانت غير متعلمة، شأنَ جميع أفراد عائلتي، لكن حيوية، كانت تتدرب مندهشة على القراءة. تركتْ لي خزانة كتب نورماندية مليئة بحيوات القديسين. كان الاثنان، القارئة والنوّام، يقطنان غرفة صغيرة بجوار غرفة والدي من غير أن يغادراها. خلال عشرين سنة كان والديَّ يسمعان همهمة الصوتين اللذين لا يتوقفان أبدًا منذ فجر الصباح إلى نهاية الليل. ماذا يمكن أن يقولا لبعضهما؟ هكذا كانت أمي تتساءل متعجبة، بينما والدي لا ينبس بكلمة.

فهل كانت تشتبه في أنهما يتحابان؟

لماذا يحب المرء لهذه الدّرجة أن يخلد إلى الصمت؟ لأنه يقدّس الحوار. لماذا يكره ضجيج الصراعات؟ لأنه يقضي على الحوار. لماذا يهيِّئ للسلم؟ تمجيدًا للحوار. لماذا تحمي نفسك من الأكاذيب؟ حفاظًا على الثقة في الحوار. لماذا تنتقي كلماتك؟ خدمة للحوار. لماذا تُتقن جملك الموسيقية؟ كي يزيدها الغناء جمالًا. لماذا تراعي الدقة والوضوح في أفكارك، لماذا تصيخ السمع؟ كي يكون الحوار أكثر سلاسة. لماذا تباعد بين العلاقات الحميمية، ولماذا تظل مستلقيًا على الفراش بعد كلّ علاقةٍ؟ حبًا في الحوار. لماذا الغسل في حوض الحمام نفسه، واستعمال المنديل عينه، والشرب من الإناء ذاته، والاستلقاء على الأريكة نفسها، لماذا إغلاق النافذة؟ كي يتنامى الحوار ويتزايد. لماذا هذه المكالمات المتواترة والطويلة عبر الهاتف؟ كي لا ينقطع حبله أبدًا. حبل الحياة يتوقف عليه. لماذا تريدان أن تشيخا معًا؟ كي تجعلا جسر-الحوار la pont-versation خالدًا.

على جسر التحول هذا، يغدو جسدانا كَلِمًا، ويصبح كَلِمُنا جسدًا.


3- الجسور الحية





جسر بناه الجنيّ

ليت السماء تجعل قطرة من الإكسير الذي خرج من هذه القارورة تتيح لي يومًا الفرصة كي أتمكن أخيرًا من سؤال الجني عن رغباتي: فأن أعرفها، يا لها من معجزة! أن يجيبني فأبلغها، أنا لا أطلب سوى ذلك. تجسيد لألف ليلة وليلة. إدموند دولاك.

Illustration des Mille et Une Nuits, par Edmond Dulac, XXe siècle.

كانت كثبان رمالٍ تحجب عن عينيّ رفاقي في الجولة. من غير أن أنتبه، تأخرتُ عن المجموعة، فوجدتني وحيدًا غارقًا في التفكير، وسط الصحراء. كنا قد بدأنا السير في الشمال الغربي للصحراء منذ أسبوع. هناك ينتابك الحلم، والتأمل، بل وحتى الوجد، وأنت غارق في صمت أكثر كثافة من أيّ مكان آخر. لا أعلم كم من الوقت، وأنا أسير على هذا النحو، كأنني غائب، إلى أن اصطدم حذائي بقارورة. أرضُ هذه الأماكنِ المعزولة مليئة ببقايا تنحدر من عهد كانت فيه الأنهار جاريةً هنا، والغابات مخضرّة. بالتأكيد، لم تكن القارورة آتية من هذه الطبقات قبل التاريخية أو الجيولوجية. انحنيت، فالتقطتها وأخذت أتفحصها. كانسداد لم أتبين طبيعة مادته يغلق القارورة الخضراء الفارغة على ما يظهر. وضعت حقيبتي أرضًا، وفتحت سكيني، وأخذت أحاول فك عفريت. انفجر كل شيء محدثًا صوت جحيم. من عنق الزجاجة المفتوحة خرج خليط من الدخان الأبيض الذي سرعان ما ملأ حجمَهُ الفضاء المجاور. أهي قنبلة! سقطت ُجالسًا بالقرب من حقيبتي. رفعت ناظريّ مرعوبًا، فرأيت زوبعة تتكون، وتصعد نحو السماء مثل عمودٍ عملاق، أخذتْ تنحتُ ببطء، وهي تدور، طيفَ إنسان، جذعًا ضخمًا علقت عليه إحدى البدلات الخضراء التي نراها عادة على الدراويش، وفي الأعلى، رأيت رأسًا، نعم رأسًا تخرج منه لحية رمادية وشعر كثيف. شيئًا فشيئًا استقرّت الرؤية. لم أكن قد شربت إلا الماء، فألفيتُ نفسي بالأحرى في هذه الحال من الوجد التي يعرفها مشاء المسافات الطويلة. كان ذهني يتبين الأمور جيدًا، حتى، وإن كان بعض السراب، كما العادة، يهتز أمام ناظريّ في الأفق المشمس. عن هذه الرؤية الغريبة صدر صوت يضاهي ذاك الذي يصدر عن الأوتار الغليظة في الكاتدرائيات الأرثوذكسية.

خاطبني:
أيها الشاب
المسافر -أحسستُ
أن عشرة أصداء ترسل إليّ
موجات إغاثة كأصوات أرغن- أيها
الشاب المسافر، كيف لي أن أشكرك؟ حرّرتني
من سجن لا يُحتمل حبسني فيه انتقامٌ بغيض، منذ ثلاثة
آلاف شهر وشهر. حتى الجنّ يعيشون المكائد! ثمّ استطرد بعد توقف، أيها
الشاب المسافر أريد أن أقدّم إليك هديةً اعترافًا بالجميل. أضع بين يديك قواي التي حرّرتَها، وقد
تجددّت، وأنعشتها أعوام من العزلة. ماذا ترغب؟ خبّرني بأكثر أمانيك إلحاحًا، وأكثر أحلامك جنونًا، فأنا على استعداد لتحقيقها.

أخذت أتلعثم، وقد أزعجتني المغامرة، فلم أعثر على كلماتي. فتأتأتُ: سيّدي الجني، أنا أسكن جزيرة مانهاتن، وصديقتي تعمل في أرصفة بوردو Bordeaux. نحن بعيدان عن بعض، وليس لدينا ما نغطي به تكاليف السفر، فلا نرى بعضنا إلا قليلًا. تلطّف، سيّدي الجني، وابنِ لنا جسرًا فوق المحيط الأطلسي، فنحن نمتلك دراجتين، بإمكاننا أن نضرب موعدًا وسط البحر، فنتجه نحو بعضنا فوق الرذاذ. أوه! لقاءاتنا الجميلة عند مكان بين جزر الأزور وجزر الباهاماس، مئة متر فوق الماء! وزيادةً في الإقناع، أضفتُ: سأجعلك تقتصد، ما دام أوّل الأعمدة مبنيًّا جاهزًا عند منارة كوردوان Cordouan، وآخرها عند تمثال الحرية!

الصمت من
جديد. كان التمثال العملاق يداعب لحيته
وهو غارق في التفكير. وانتهى إلى القول: أيها الشاب المسافر، أنت
تفتقر إلى وعي بيئي بشكل خطير. دعنا نرى: كل هذا الركام من الحديد فوق الماء،
وكل هذا الإسمنت الذي سيُلقى في الحفر البحرية السفلى، إضافة إلى سطح قنطرة طويل، كل
هذا من أجل دراجتين صغيرتين...؟ بالتأكيد أستطيع بناء الجسر.. إلا أنني سرعان ما سأرى سفينة غرينبيس
Greenpeace راسية بين أعمدة موقع الأشغال... وسأفاجأ بخُضر العالم جميعهم... قادرين على أن يعيدوني إلى القارورة... عليك أن تبدّل أمنيتك، أيها الشاب المسافر... ثم، أضاف بنوعٍ من التوجس: ما الذي تفعله هنا بعيدًا عن فتاتك؟

أصِبتُ بخيبة، بطبيعة الحال، فحاولت أن أبحث عن حل. واصلتُ بعد إلهام مفاجئ: سيّدي الجني، أنا لا أفهم ما تعانيه صديقتي، وما ترغب فيه أو ما تخشاه، وما تراه. أتألم أحيانًا لدموعها وعتابها المباغت. أنا الذكَرُ الذي تنقصه الحنكة، يأخذني اليأس من نفسي، لعجزي عن اختراق مشاعرها الأنثوية. نعم، لنتخلَّ عن هذا الصلب الذي لا يُرضي البيئيين، أنا لا أطلب إلا الناعم. أتوسل إليك سيّدي الجني، اجعل نفسي المجروحة تفهمُ النفس الأنثوية. لكي تخفف من أحزاني، وتجفف دموع ضجري، أرجوك سيّدي الجني، أن تنسج من أجلي، جسرًا طائرًا، من خيوط عنكبوتية، جسرًا افتراضيًا، روحيًا، يضاهي في خفّته خفّة دخانك، جسرَ موسيقى عذبة بين الجنسين.

ساد صمتٌ ثقيل لا يُحدُّ حتى الأفق. كنت أنا أيضًا مثل تمثالٍ أنتظرُ في شرودٍ ومن غير حراك. مع اقتراب الغسق تناهَى إلى سمعي نداءٌ بعيد، بالكادّ يُسمع، ضربٌ من النوتة الشاكية، سمعت الجني يهمهم باحتشام: إذن، هذا الجسر الحديدي أو الحجري، عبر البحر، هل تريده ذا طريقين أو أربع طرق؟

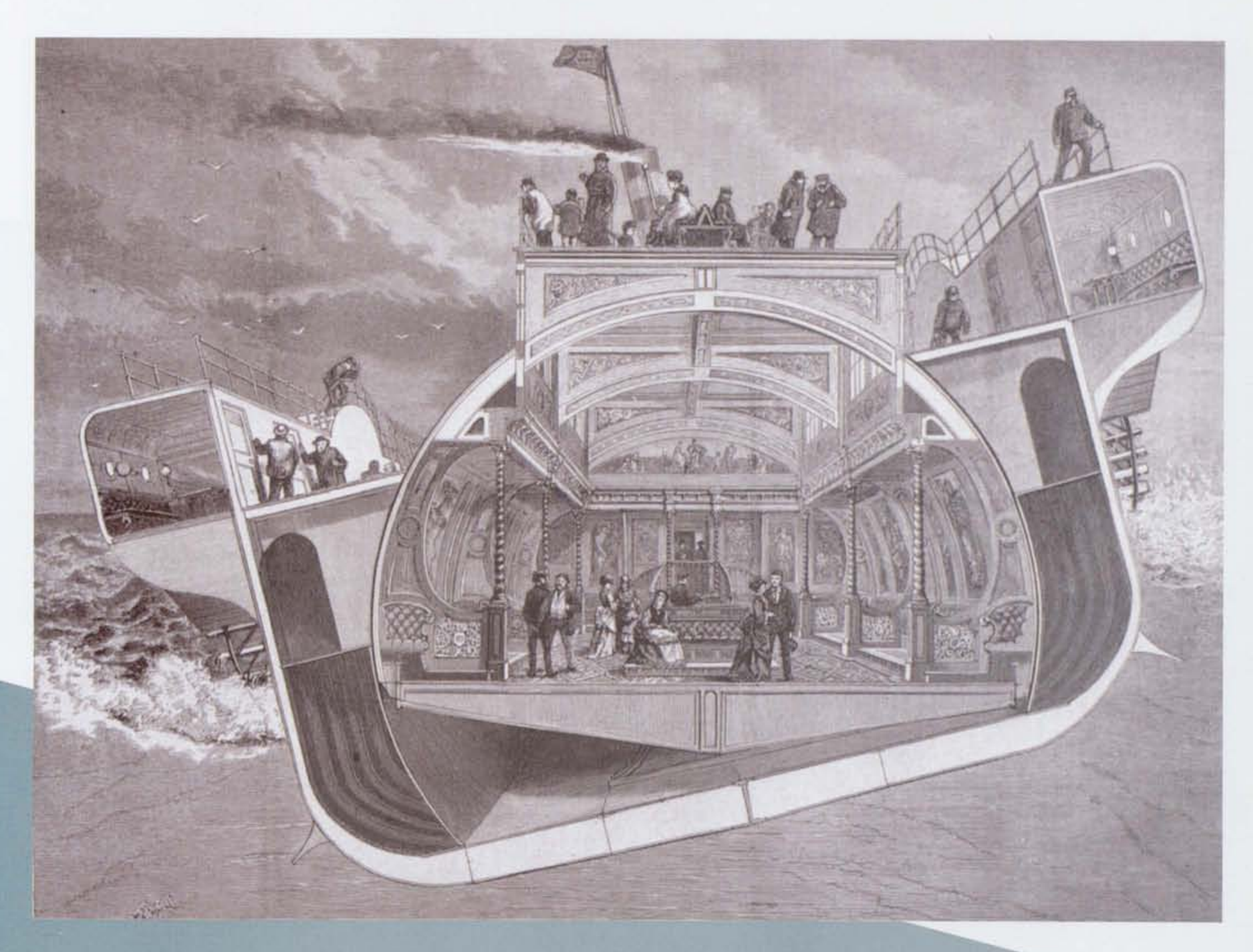
قارب صغير

من شدة ما أحببت الجسور أبحرت. لأن السفينة تعبُر كثيرًا من الجسور. القوارب الصغرى لا تعبر إلا جسرًا واحدًا، أما البواخر، فإنها تعبر أكثر من عشرة، منها المرتفعة، والأساسية والمنحدرة، منها ما يصلح للنزهة، ثم تلك التي تحمل المدافع أو انطلاق الطيران. أبحروا من بوردو إلى فالباريزو Valparaiso ستتأكدون من أن جنيّ أحلامي، في درج الصحراء، قد عرف كيف يصنع هذه المعابر العملاقة. لقد بنى، بالفعل، مئات الجسور فوق أكثر المياه هيجانًا، ومن غير أن يقيمها على أسس عميقة. وجدَ الحل. قطّعها وجعل أجزاءها تطفو متحركة فوق حركة الماء. إذا أبحرتم من الجيروند Gironde إلى المحيط الهادي، لن تكفوا عن عبور جسر مشيًا على الأقدام من المؤخرة حتى المقدمة.

هل حدث أن فكرت يومًا، وأنت تقود سيارتك، أو عندما تكون ساكنًا جالسًا لمدة ساعات في الطائرة، بين رواسي Roissy وسان فرانسيسكو، في أنك تعبر نفقًا معدنيًا مكونًا من هيكل سيارتك أو من جسم الطائرة الذي تتمدد بعض أمتاره عند الحركة على مئات أو آلاف الكيلومترات من الطريق؟ تطير أو تسير عبر أنبوب ضخم تستعيد بنيتُه بلا نهاية الشكلَ الأسطواني للسيارة أو الطائرة. هذا الأنبوب يشكّل سفينةً بين فرنسا وأمريكا، أو لنقل إنه يتمدد كتنّين صيني بواسطة منعرجات الممرات الجبلية. عند وصولك تختفي السفينة أو يتبخر الوحش.

أبحِر في المحيط، يتمدّدْ جسرُ سفينتك بالمثل، إنه ينتفخ ويتمدد من ميناء إلى آخر، يستطيل ليضم ضفة الانطلاق إلى ضفة الوصول. عند الوصول إلى اليابسة، أرى الانتفاخ قد زال. الجسر الذي أوصلني إلى هذا المكان على مسافة شديدة الطول، كم هو صغير يا إلهي! أباغتكن سيداتي وأنتن تضحكن وتهمهمن بالأنشودة الفرنسية القديمة: يا إلهي، يا له من رجل، كم هو صغير! كم هو صغيرٌ الزوج الذي مدتني به أمي! إنه جميل، يا جميلتي، لا تنسَيْ أنه سيأخذك إلى مونوموتابا Monomotapa.

أشبِهُ جسرَ قاربي الصغير. أحبُّ أن أسافر بحرًا.



متطلبات تنم عن جهل صادرة عن ركاب لا يحسنون الإبحار أدت مرارًا بمهندسي السفن البحرية إلى أن يخططوا، ثم يجربوا أجهزة ضد التمايل، وذلك فوق أو تحت الجسور العابرة للمحيط الأطلسي. حسب تجربتي، أشهد أن التمايل الناتج عن الإبحار يسبب دوارًا أقل مما تسببه السطوح شبه الثابتة حيث نرفض عناق الموجات والأراضي. حوالي 1875.

إنقاذ الكل، مثل نوح، أم إنقاذ الأساسي: المرأة. من قاعدة البيانات أو القارب الضعيف الذي يحمل شراعه القديس جورج والأميرة التي أنقذها، اختاروا الطريقة الحيوية -العدد أم الجودة- التي من شأنها أن تولد أكبر ذرية. ربما تردد داروين نفسه في المراهنة. بما أنني فيلسوف، فأنا أختار الطريقة الأولى، وبما أنني ذكر، فأرغب في الثانية.

أنطونيو بيزانو الملقب بـ بيزانيلو، حوالي 1435/1430
Antonio Pisano, dit Pisanello, vers 1430 /1435.



يعادل سفينة نوح: تجارة المرتزق والمجموعات، مخازن النبيذ، حدائق الحيوانات، حدائق النباتات، المتاحف، القواميس، الكنوز، المجلات والمختارات، الخزانات، الموسوعات، شبكة الإنترنيت، غوغل... الكل فوق الجسر!

سفينة نوح، مونيكا كرونشاغن، 1972.
L'Arche de Noé, Monika Cronshagen, 1972.



عشتُ في البحر، وطاردتُ أعاليَ البحار التي ليست أقل قابلية للسكن من أعالي الجبال، أو الجليد أو الصحراء. خارج ذلك، تظل السكنى ممكنة. لكن، في هذه الأعالي اللاإنسانية غير المضيافة، ينكشف الكوكب. ومع ذلك، فعندما أُحرَم من البحر، تغدو الأشياء كئيبة على اليابسة.

عند نهاية وجبات غذائنا، في البحر، كنا ننتظر الفواكه بتلهُّف، عندما صاح أحدنا، متخليًا عنها: ماذا لو ذهبنا نحو البحر؟ كنا نستعجل مدة تناول الغذاء، لحاجتنا إلى البحر، وعندما نبحر، فإننا بالكاد لا نغادر. كنا أكثر جوعًا وتعطشًا للبحر مما كنا عليه بالنسبة للخبز والنبيذ. كنا عشاقًا مغرمين، متصوفين. كان أفقنا هو البحر. كان عشيقنا هو البحر. كان إلهنا هو البحر. ومأوانا، هو البحر. طريقنا وحديقتنا ومائدتنا، البحر. حبنا، البحر. اهتزاز وتمايل ورقص عشاق وعاشقات بإيقاع متنوع. كان رفيقنا هو البحر.

... ولكن كان أيضًا عدوًّنا الذي كنا نحبّه إلى حدّ أن غضبه كان يبعث فينا الرجفة، البحر المدمّر الذي لا يبالي بآلامنا كأنّه عشيقة قاسية. البحر الذي يمكنه أن يقف فجأة أمام مقدّم السفينة مثل جرف صخري مرتفع أو مثل جدار جبل، فينهال مثل تسونامي متحطمًا على الكيانات الحية، البحر الذي يرغمك، في بعض الأحيان، على الوقوف متصلبًا على جدران المقصورة أو الممرّ عندما ترتفع أرض السفينة عموديًّا، البحر المرعب الذي يطارد ليالي الأرق تحت نعيب قرن الضباب، البحر البغيض، زوج النسيم وابنه، الذي يقف سلبيًّا أمام الرياح، البحر الذي يحمل ويأخذ، ويبتلع حيوات، البحر المُميت...

... البحر الحي، الحيوي، النشيط، الأم الأولى للأنواع الحية، بحر الأمومة، الناعم، مثل بشرة طفل، من غير تجاعيد ولا تموُّجات، النائم في هدوء، الثدي المزهر، الرحمُ المثمر، منبع الخصوبة السخي، المرضعة حتى الامتلاء، المليء بالوحوش والعجائب التي تجعلنا أشكالها نتقلب ليلًا في صناديقنا وقد خدشتنا مخالب كوابيس الأعماق، حوّاء البحر البدائية التي خرجنا من حضنها جميعًا، أعشابًا بحرية ونباتات وحيوانات وبكتيريا وثدييات وزواحف وحيتانًا، بل حتى بشرًا، منذ مليارات، ثم ملايين السنين...

البحر الذي يدنّسه الرّعاع، مغتصبو أمّهم الأولى La mer (البحر)، هيا بسرعة، لتقم معي ولتبحر أساطيل من القراصنة لضبط هؤلاء المفسدين قتلة أمّهم mère، كي نقبض عليهم ونلقي بهم، عراة، في الدهاليز.

... البحر الذي، وا أسفاه، أولئه بلادي فرنسا التي تزيّنها سواحل فاخرة، ظهرَها منذ مدة طويلة... فهل تحتقر أمّي أمها؟

البحر امرأةٌ جميلة، ثغرٌ منفتح، أمٌّ عزيزة، عاشقة حلوة، أختٌ طيبة، فتاة جميلة تفاجئ بأهوائها، عشيقة مهيبة متقلبة، زوجة أبٍ ذات رأسٍ ينبت أفاعيَ، ساحرةُ مدهشة، منتجةٌ لرحيق المحبة واليأس.

أبكي البحر الذي يفوق جماله جمال كلماتي المفرطة في الإنسانية. فأنسى جمال الحيوات. سرعان ما ترقى الحياة في البحر إلى العمل الفني، لأن شكنى الكوكب غير القابل للسكن تتطلب تحوّلًا للجسد والروح في استطاعته أن يجعل من الملآح كائنًا إلهيًا.

أتذكّر الشفق حيث كنت واقفًا فوق الجسر، وآلة قياس ارتفاع الأجرام في يدي، أنتظر أن
تبزغ نجمة كي أحدّد القياسات. كان يحدث لي أن أغوص في الماء، وأستبدل بنظرتي المتنبهة
نظرة البحر نفسها، البحر الذي تتأمل عينه الوحيدة، تلك الحفرة الكروية الخضراء،
الغارقة في دموع المرارة، الغياب الأزرق للإله.

على اليابسة، كانت بقية ساعاتي المملة تجد تعويضها الوحيد
في الحنين إلى تلك المحبوبة التي كنت أعيش في حضنها،
وأنام وأفكر وأقطن. ما زلت أحملها معي
مثل حب غارق.





يحرص حراس المنارة، ملائكة الساحل، على تتبّع أخطاء ملاحتنا. غالبًا ما يكونون وحيدين، يعملون بانتظام على توفير الإنارة عند الغسق، كانت لنا معهم علائق نادرة، ما دمنا لم نكن لنقتحم صخرتهم المعزولة. كانت أبراجهم تتلحف بموجات تكون من الارتفاع بحيث تغطي الفانوس. ما زلت أذكر السنة التي عطلها فيها البحر. عندما أصبحت الأضواء آلية طردت منها طيور الليل. فكما أن آلات المراقبة عوضت بـ ج. ب. س، وكما أن الحساب البحري قد أصبح من غير جدوى، فإن حراس المنارات يشكّلون جزءًا من شبابي البحري. وداعًا للّوغارتمات، وداعًا للنجوم، وداعًا السيد آران دو كرياش، في أويسان. لقاؤنا في جنة الملاحة.

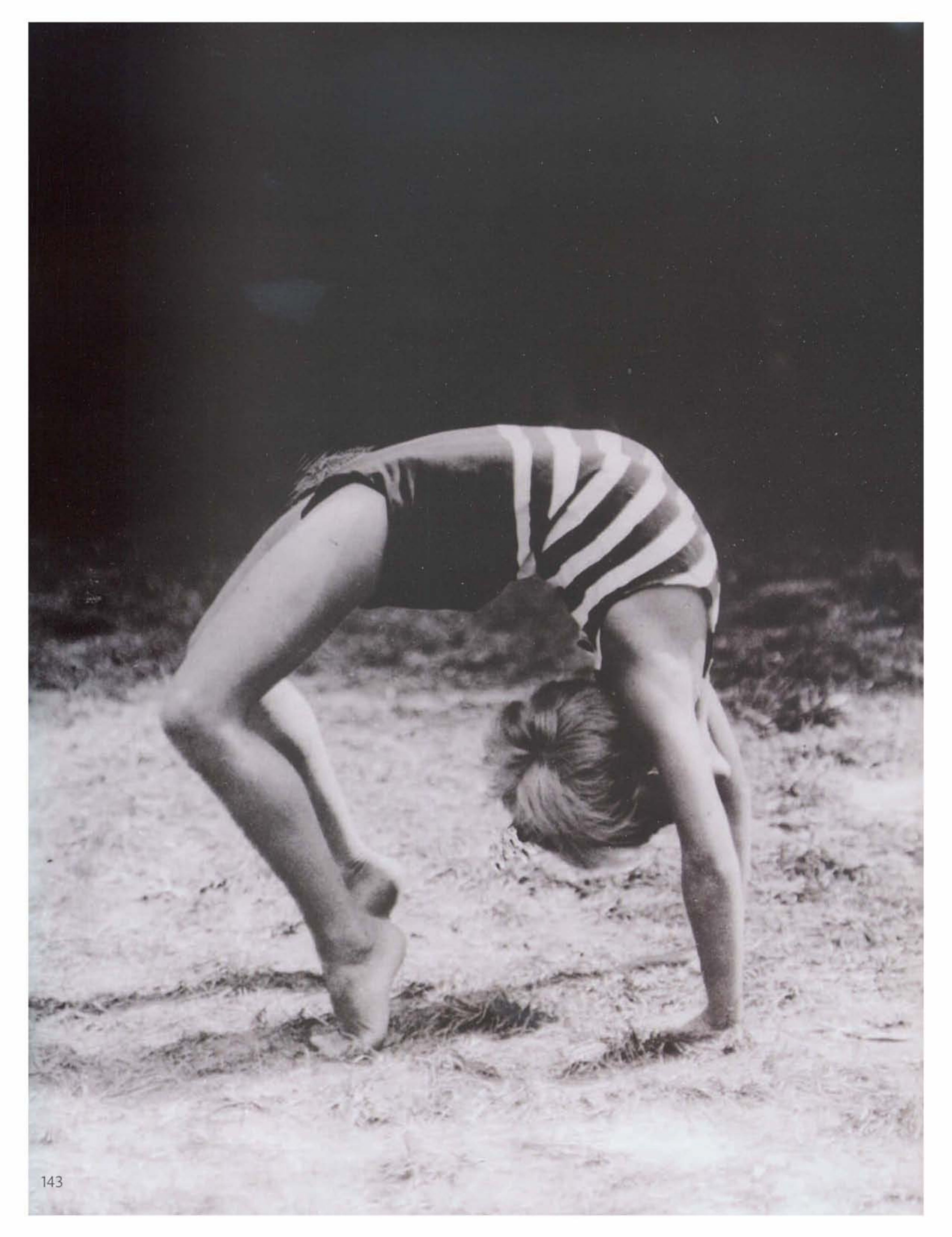
فوكوزا، بحر اليابان.

جسر حي

بما أن لغتنا لغة فرسان، فهي تحتقر الراجل، وتلعن ما لا أهمية له. وبما أنها لا تبالي بالعضو الذي فصلنا عن رباعيات الأيدي، فهي تجهل بحماقةٍ الميزة الانتقائية لأخمص القدم، قوس الجسر الذي يربط بمرونة، وعند المشي، كعب القدم بنهاية الأصابع. الراجل الجيّد يجعل من أخمص قدميه منطقة شبقية. المداعبة المتحركة، الخشنة والناعمة، التي يتبادلها ثقل الجسم على قاع الرجل مع العالم، تولّد عدة إحساسات لذيذة متنوعة، حسب ما إذا كنا نطأ، حفاةَ الأقدام، أو بأحذية الجبال، أو النعال أو أحذية الرياضة أو الصنادل، عشبًا في فصل الربيع -يلامس-، أو نطأ طريقًا بيضاء -تحك-، أو ممرٍّ ماعز -يداهن-، أو شاطئًا -يدغدغ-، أو شِعب جبل -يضم-، أو سجّادةَ شَعر -تدغدغ-، أو، ممرًا عموديًا من الثلج -يحتضن... لنوقِف، حياءً، سلسلة الملذات هذه. بفعل السَير خارج المشى، فإن الانتشار المتعدد للهيكل العظمي للأقدام يتكيّف مع عديدٍ من الانحناءات إلى حدّ أننا نستلذ، مندهشين، زواياه المتعددة. ألم تُولّد الأرضية غير المستوية لدى بروست Proust حالات من الوجد بسبب الاختراع الحديث لرصف الطرق؟ لم يمش الغرب الثري على أرض ناعمة إلا منذ جيل بروست!

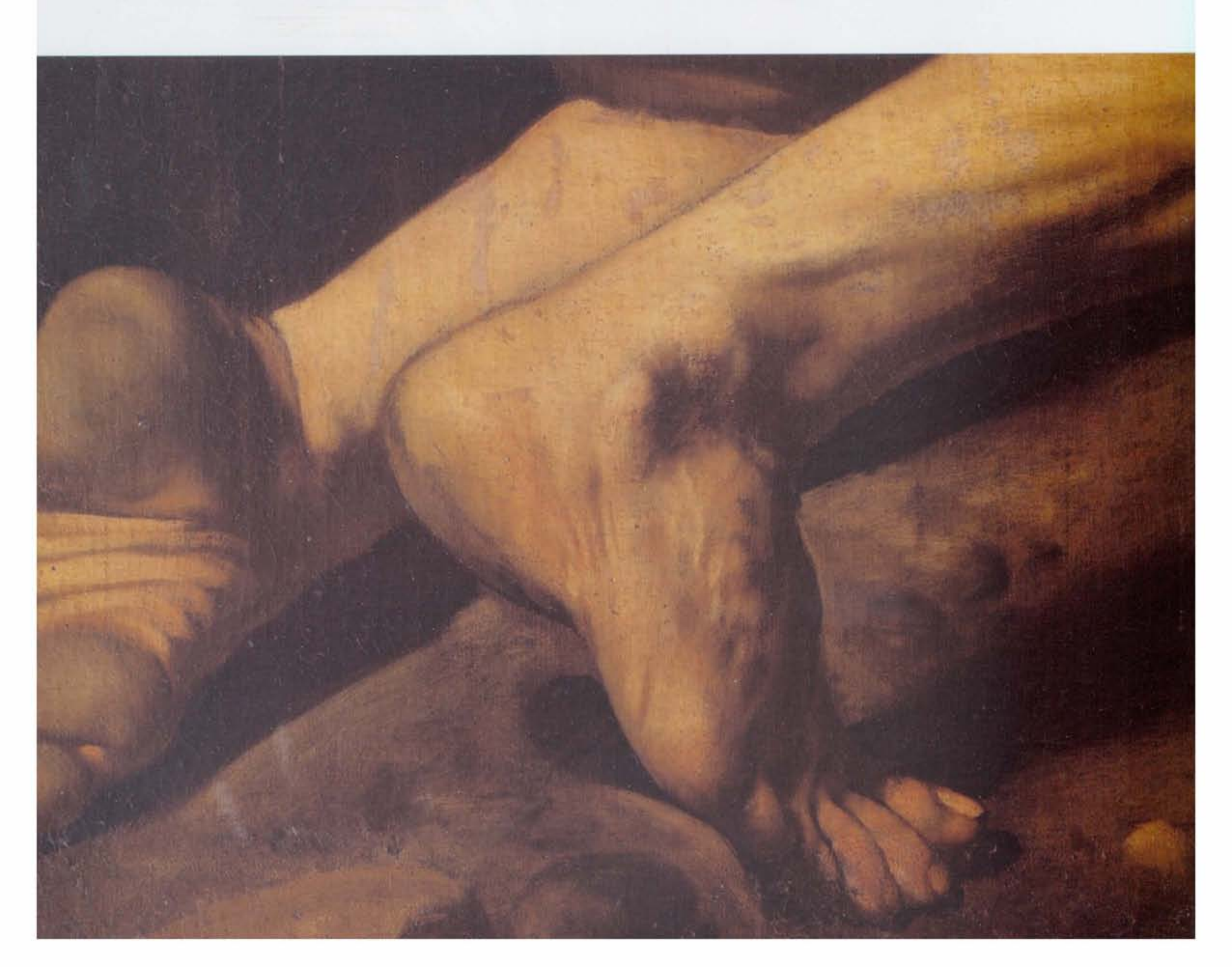
هذه الفتنة التي تتولد عن المشي على الأقدام -تحت جوارب الصوف، أنصح بالتدليك بالمراهم الدهنية- تُعلمنا رطوبة الأراضي الصالحة للزراعة، والأخاديد والحدائق، ومرونة الطرق والمسارات -التي لم أتمتع بها فحسب، وإنما رصفتها بالحجارة والرمل، وجعلتها ملساء باستعمال الباربر غرين Barber Green، وهو خليط مدروس من الحصى والقطران-، والطين اللزج للمستنقعات الغابوية، والرمال السائلة التي تترسب عن الكثبان الصحراوية، ولكن أيضًا اهتزازات الحواجز الشبكية وتمايلها، والأثر المرهق على الثلج الطازج، وغدر الجليد في المسارات الجوية، وطرق جبال الأنديز Andes المتعالية. ندين بالعالّم لجسر: جسر يقوم على أعمدة كعب القدم وأصابعه، فيرفع القوس المرن لأخمص القدم.

انحنِ: قوس طبيعي يحميك. الكعبان والأرداف، الظهر والرقبة تُشكّل سطح جسر. الأعمال الحيوية الناعمة، من الوجه حتى البطن، تختفي تحت هذا السقف ذي العظام الصلبة. وعلى العكس، ومثل ماكسي هيربر، المتزحلقة الألمانية لسنوات 1930، درب مرونتك بـ"القيام بجسر": كل شيء ينقلب، الناعم يمر على الصلب، والمخبأ يظهر، والكل يستند على أعمدة هشة، أصابع اليد، وأصابع القدم. يرسم الجسم كله جسرًا كاملًا، لو لم يكن هناك رأس. ما العمل برأس الجسر، أي بالنقطة العسكرية التي تُشرف على العدو.



قدماي على الأرض، ورأسي في الهواء: يجسّر جسدي هذين العنصرين. قدماي دافئتان، أحتفظ ببرودة رأسي: يجسّر جسدي هذين المناخين. قدماي جافتان، وعيناي تقطران دموعًا: يجسّر جسدي حالين. عندي قدمان ويدان وثديان وكليتان يسارًا ويمينًا: سواء أكان يستعمل يده اليمنى أم اليسرى، فإن جسدي يجسّر هاتين الوجهتين. أظافر القدمين متجهة نحو الأمام مثل السرة، والأرداف إلى خلف، جسدي يجسّر المرئي والأعمى، الواضح والأسود، الليل والنهار. جسدي يجسّر العالم والمعنى، الأعلى والأسفل، ما دام رأسي في السماء، أُبقي قدميّ على الأرض.

الجسد يحمل ألف جسر. إنه بيئة حيوية بين الرأس والأقدام: بين الأسفل والأعلى. بين الأمام والخلف: نور وظلمات. بين اليسار واليمين: شرق وغرب. بين الداخل والخارج: دافئ وبارد. بين الدهنيات والسوائل: رطب وجاف. بين الهيكل العظمي والتنفس: تراب وهواء. توازن حراري، بين الحرارة والبرودة: ماء ونار. بين الجوع والسمنة، غذاء وهضم: طاقات وأزبال، مواد غذائية وفضلات. بين الإحساسات الخشنة والمعلومات اللينة: مادة ونظريات.

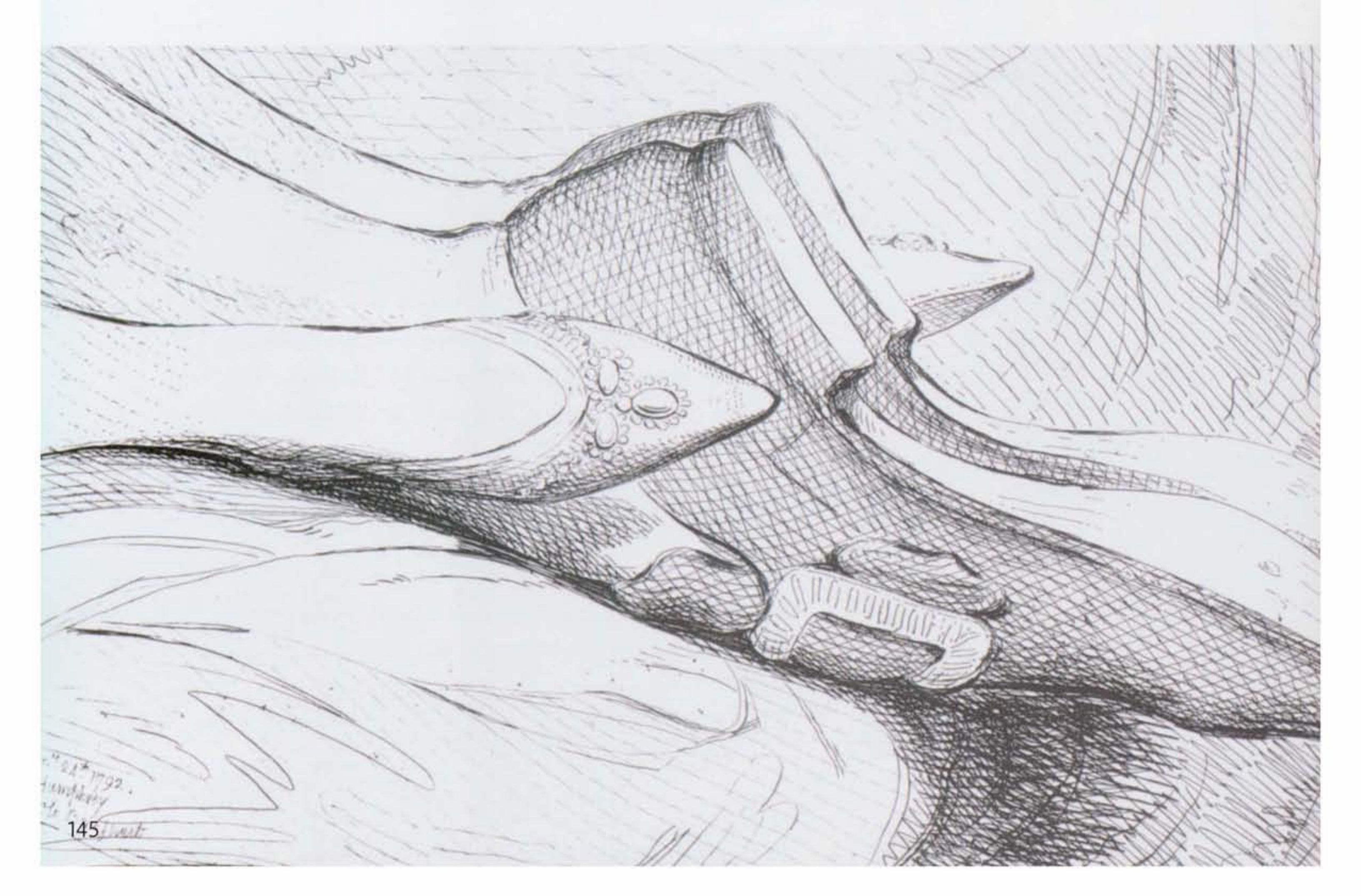


بين اللحظة والديمومة: نسيان وذاكرة. بين عدة مستويات من المقادير، صغيرة وفخمة، أزواج من الأساسيات، خلايا، أنسجة، أعضاء، جلد، المزيد من رحلات رجال الفضاء. بين أزمنة متعددة تولدها ساعات زماني البيولوجي. بين الكراهية والحب: عنف ونشوة... تجسّرهما الحياة، وتربط بينهما، وتبادل أجزاءهما، وتعقدهما وتنسج خيوطهما، وتبدل جزيئاتهما، وتحوّل أشكالهما، وتفسح المرور، وتترجم، وتوصل إشاراتهما، وتتدخل في رسائلهما، فتؤولها، وتطهر زمانها، وتسمح بمرور بعض الأشياء وتمنع أخرى، تتدخل، تتوسط، توجه وتصون: إنها تجسّر. أحمل نفسي مثل جسر البونوف Pont-Neuf.

ماذا لدينا في الحاضنة-الأم، في القولون وداخل الصدر، وحوالي الفك أو الحجاب الحاجز، كي ينغلق العالم على نفسه على هذا النحو، في عدد لا يحصى من المبادلات التي تتخذ شكل تلاقٍ دماغي رئوي ومعوي، ومن الطيات اللانهائية في الأنسجة والخلايا والكروموسومات والبروتينات وحامض الديوكسيربونوكلييك، وسلسلة الجينات؟ يصطاد لحمي مواد العالم في هذه الطيات الداخلية المتراكمة حيث يختزل ذاته. وهو يربط على هذا النحو أقطابه. سرّ الحياة يرقد في هذه التجسيرات.

قبو الجمجمة، الحاجبان، الشفاه، الإبهامان المتقابلان، العجان... كل منطقةٍ من أجسادنا أقواسٌ. إلا أن هذا القبو المتعلق بأخمص القدمين التي تمر من قوس أصابع الرجل إلى الكعب، يُبرز ذلك أكثر من غيره، سواء من أجل القفز، أم الرقص، أم المشي، وسواء قوةً عند الذكور، أم أناقةً عند الإناث.

جانبه: صلب بيير، لو كارافاج.
Crucifixion de Pierre, Le Caravage, 1601.
ci-dessous, James Gillray, 1792.
أسفله، جيمس جيلري، 1972



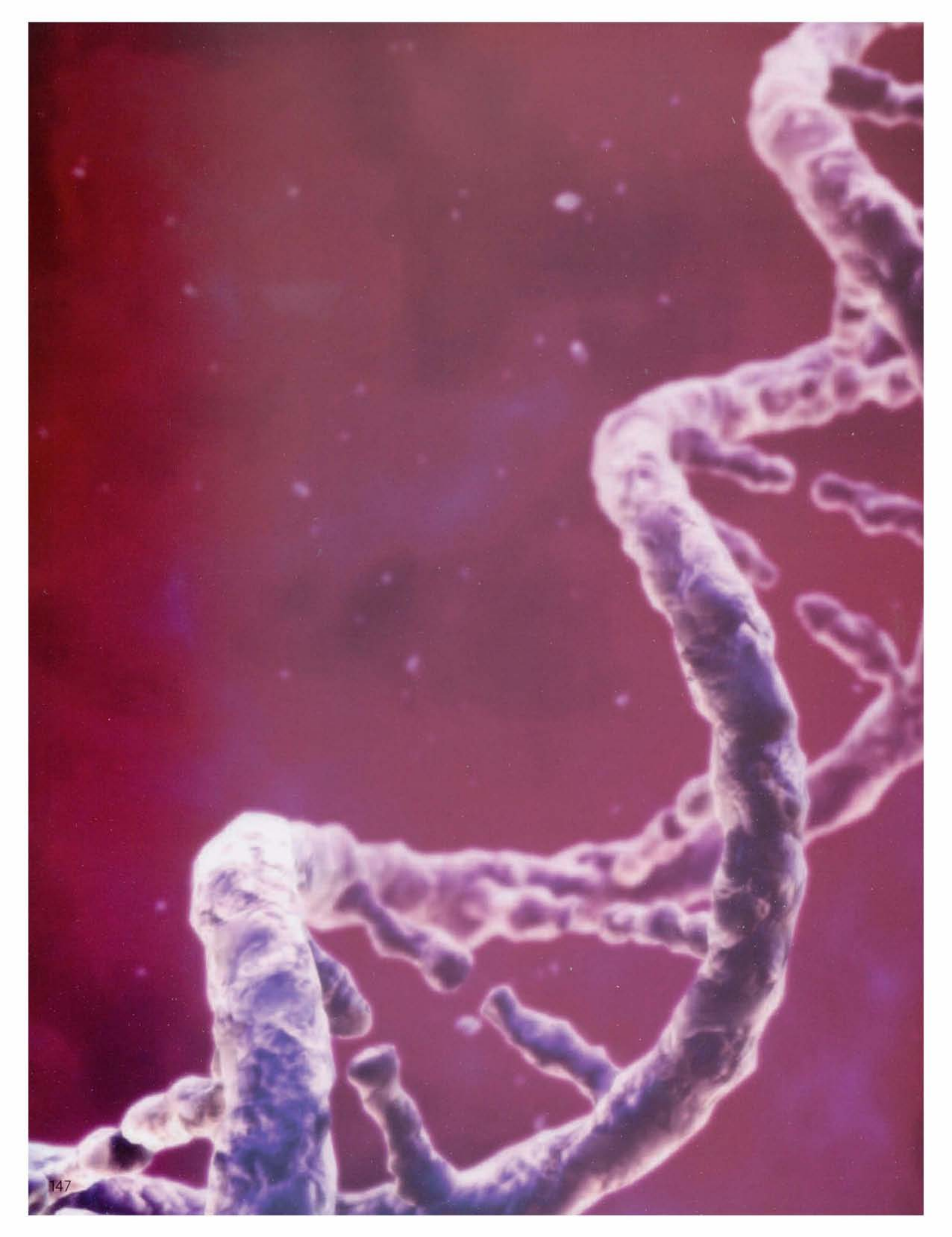
أخالني رأيتها عند المرضى المستلقين على أسرة العيادات، عبر المجاهر الإلكترونية، في بعض المختبرات المتقدمة. يمكنني إذن أن أرسمها بواسطة العلم، لكن، وعلى الخصوص، فأنا أحس بقوة، وأتغنى بكون العالم يمرّ عبر بطني، والنور عبر رأسي، وضجيج الداخل عبر جلدي، والطاقة عبر تجويفي الصدري، والفضاء والتوجه والزمان عبر المشي، والجري والقفز والسباحة والتسلق، أحمل الكون في داخلي، أتعرف على وحدات فضائه وزمانه وطاقته وحرارته وكهربائه، ومادته ومعلوماته فيما أحس به في جسدي. هيكلي العظمي يشارك التراب، وحرارتي تشارك النار، ورئتي تشارك الهواء. عبر طاقتي أنتمي إلى الشمس، أفترس الأحياء وأهضمهم. عبر تعبي وضعفي وموتي، أغرق تحت الموج القاصر للأشياء. لست أعرف فحسب أشياء العالم وديمومته، إنما أنا أسحقها أيضًا، وأعجنها، وأطبخها، وأحوّلها، وأرغب فيها، وأتنفسها، وأعاني منها وأتنهد، وأداعبها، وأسخّنها، أو لنقل بالأحرى إنني أعرف العالم من خلال هذا العبور المدوّخ الذي يفعله فيّ. حيويتي تؤكد معرفتي. أحترق وأكسر وأضحك وأبكي بجسدٍ غنيٍّ بالأشياء. أحيا مبادلًا العالم.

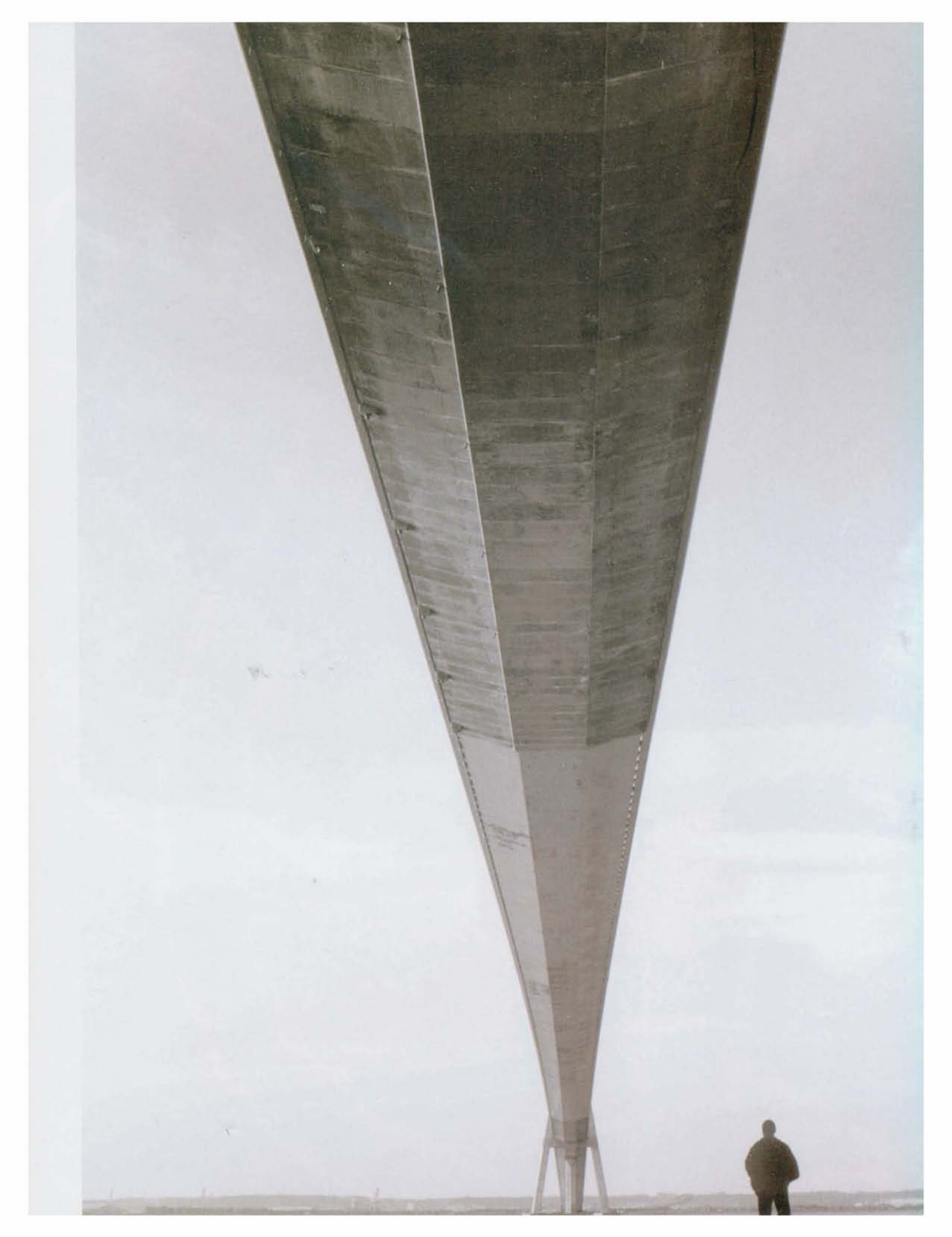
جميع الكائنات الحيّة الأخرى، من أشجار صفصاف وفهود، وأفاعٍ، تجتر العالم مثلي، الدافئ والبارد، الشمس والأرض، الطعام، المعلومات والموت، إلا أنني أشعر أن جسدها، الأقل كثافة، والأقل طيًّا، وموضع مبادلات أقل، غالبًا ما يقتصر على كونه قنوات غريزية في عش غذائي. بما أنني وريث ثروةٍ تراكمت عبر ملايين السنين، فأنا أحبّ فقرها للعالم، يحصل لي أن أتقاسمه معها. لكنني أحبّ، على الخصوص، التجسير الكوني الذي ورثته، والذي يعمل تداوله الكثيف على استقطاب الكون ونجومه، ومختلف الأنواع، والبشر الآخرين: معه وبفضله وفيه، أوصل في نفسي خلايا وأعضاء، وأثنيها وأضاعفها وأربط فيما بينها: الكبير والصغير، الماء والتراب: عنصران أوليان. الأعشاب والوحوش، الثعلب والبلوط: كائنات الأرض الحيّة. الذكر والأنثى: جنسا النوع الذي أنتمي إليه. الفلاح والملاح: حِرَف الزمان الذي أنتمي إليه. العالم والشاعر: الثقافات التي عرفها التاريخ.

الجميع رأى الحلزون المزدوجة للحمض النووي أ.د.ن الشهير منذ واطسون وكريك. على مسافاتٍ منتظمةٍ تربط علائق كيماوية الخيطين، وتجعلها متماسكة مع بعضها. في أبسط المستويات، تضاعف الحياة من الجسور.

أحيا على شكل باقة مثل مبادل متعدّد. الكائن الحيّ يجتر جميع اتجاهات الفضاء والوحدات الفيزيائية. تعمل الحياة كجسور متعددة، تلاقي ألف تماثل وتماثل، رابطةً فيما بين العدد نفسه من السلالم والإيقاعات.

جسر أصحاب الرياضة يبدأ هذه التجسيرات ويعلّق عليها.





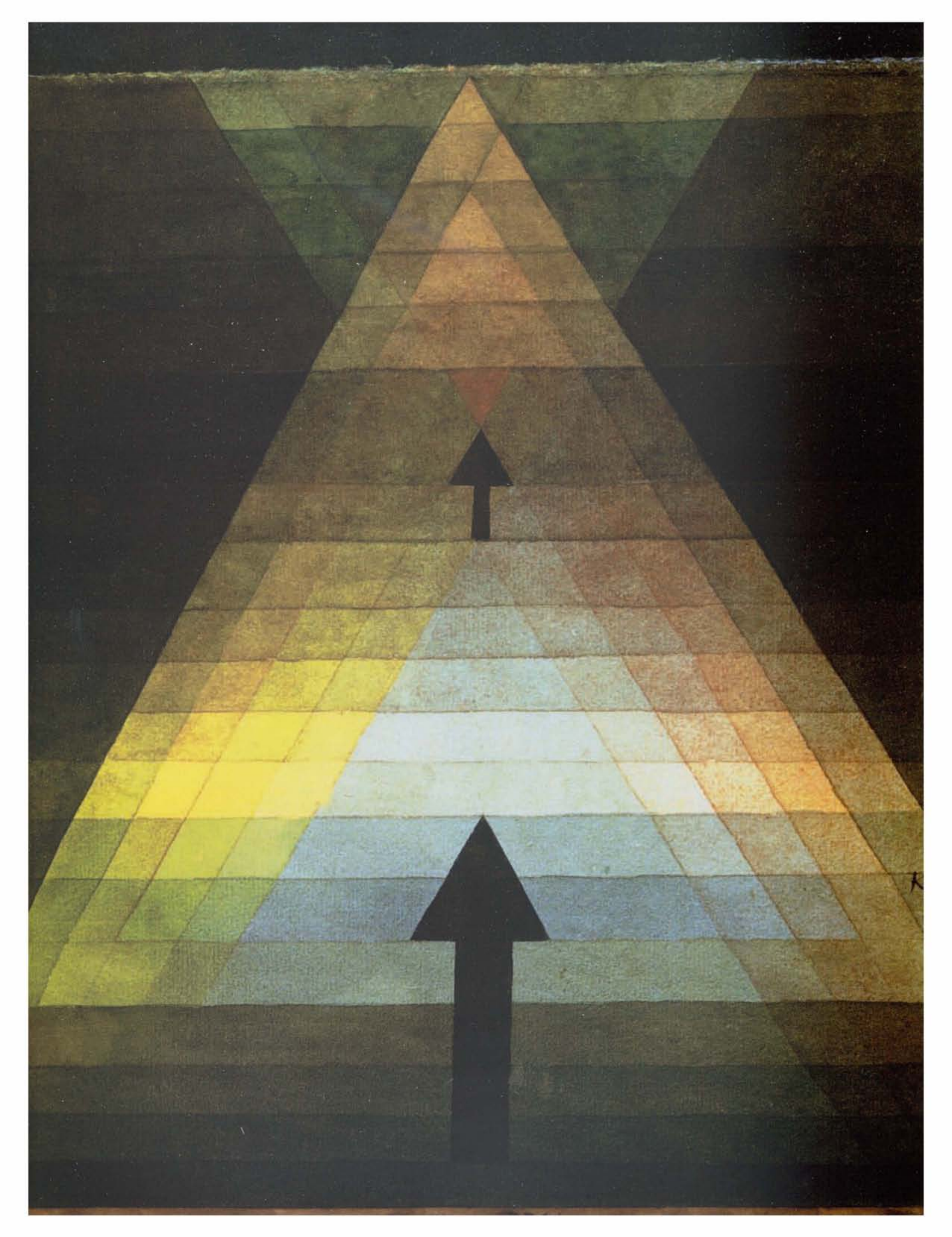
تقنيات البناء

أثناء تشييد جسر، فوق الحفرة التي ينبغي ملؤها، يظلّ السطح لمدة طويلة مائلًا على الهوة على جانبي كل عمود. تبدو الدعامة كما لو أنها تنتصب مزدوجة الرأس. كلما تقدم العمل، ازداد هذا التوتر غير المحدود جرأةً مغامِرة. أمّا العمود المنتصب والفخور بإنجازه، فإنه يقف متباهيًا.

فهل يقارنه بالذي بجواره؟ وهل يسعى إلى ملامسته؟

لو أنكم عاينتم إنجاز سطح جسر، وهو يتحرك ببطء، ويتقدم من عمود إلى آخر، فإنكم ستُعجبون ولا شك، وبصفة أفضل، بالسير الضروري والحيوي والشهواني... للحركة. عندما يتّخذ هذا النمو الأفقي مكانه، بدقةٍ كبيرةٍ، تأخذ قطع الجسر أمكنتها.

أهو انتصاب؟ أم صلاة؟ أهو سلم يعقوب؟ طريقٌ أم سبيل إلى السماء؟ آسف لكون الصورة الظلية في الأسفل لا ترفع أكفّها. يظهر أنها لا تفهم هذا الأثر، الذي يتجاوزها من الفوق. الجسر يأخذنا بعيدًا، ونحن لا نراه. جسر النورماندي، سنة 1994.



رأينا
ألـف لوحة
رسـمـهـا فـنـانـون
يتمتّعون بعيون يقظة
على رؤوس ريشاتهم. يرسمون
مـا يحسه، إمـا جسمهم في
كليته، أو مختلف الأعضاء،
آخـرون يـعـبرون عـن إحساساتهم
الجمالية بدقةٍ عالية. هنا، وبفعل
تجريد الخطوط والاتجاهات، يجعلنا
بـول كـلي Paul Klee نقرأ، أولًا،
المفتاح الذكر للسهم، والصليب الأنثى
الذي يوافقه؟ إلا أننا سرعان ما ندرك
العمق الحقيقي لما نحسه.

إيروس، بول كلي، 1923

Éros, Paul Klee, 1923

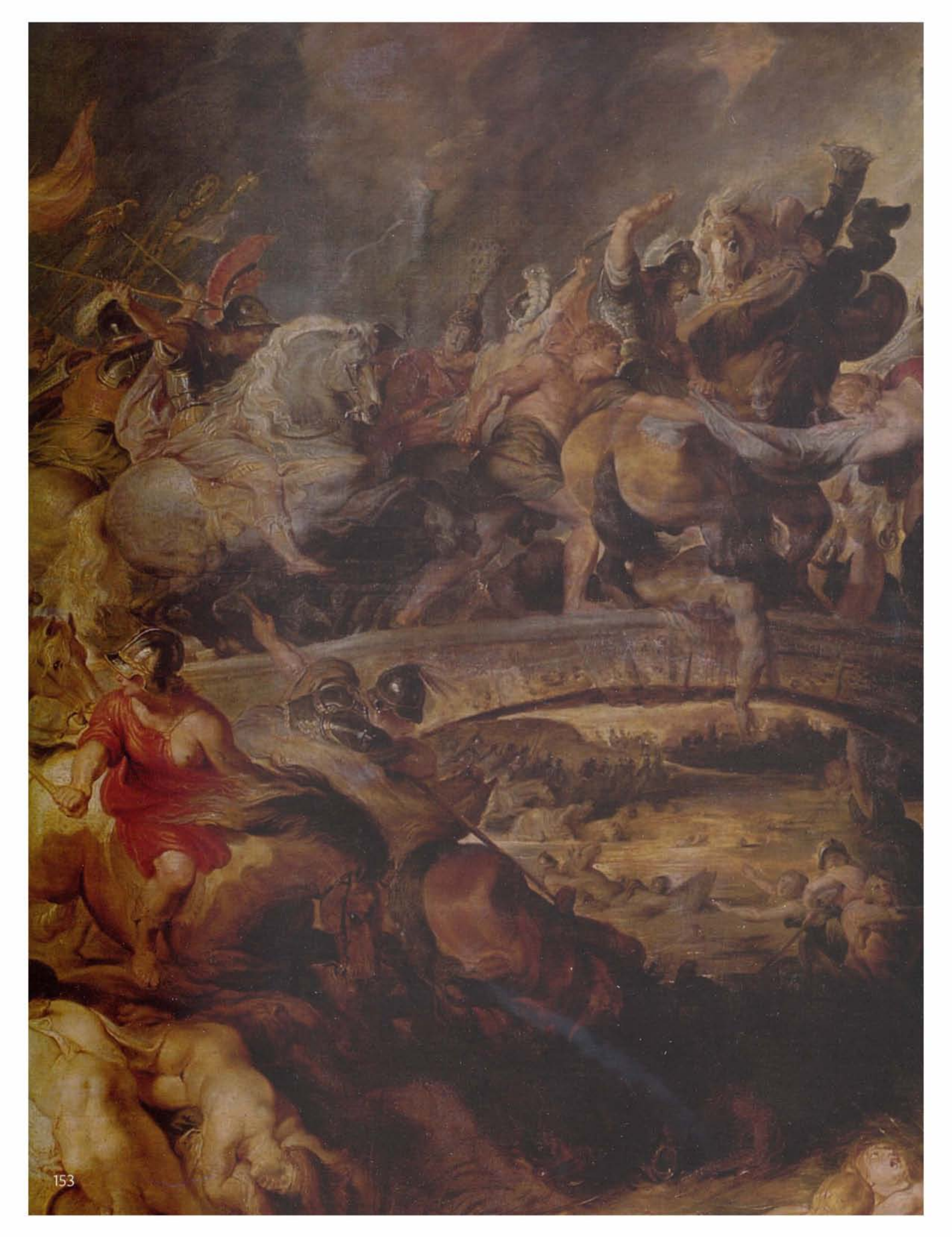
أوديب امرأة: لقاء ذكوريّ بامرأة مذكّرة

عند جسر الجار Gard الفخم، تتقابل جسور قروية كانت إدارة روما قد أقامتها قديمًا في الريف الغولي. ما زال هناك ما يكفي من البقايا لكي نستعملها. قبل بضعة أشهر، كنت أسير راجلًا على واحد منها، وهو جسر متوسط يمتد، في وسط فرنسا على نهر الكروز la Creuse. لم تترك طريقه إلا ممرًا لشخص واحد، بحيث لا يمكن التقاء مارّ في الاتجاه الآخر. تواجهت سيارتان في اتجاهين متقابلين. احتد النزاع: فمن سيتراجع؟ واجهتِ المعركةُ أنثى ضد ذكر. ماذا تظنون أنه سيحصل؟ لقد انتصرت الأنثى. ليس لباقةً من مفتول العضلات، وإنما عن طريق إثبات القوة. بما أن الأنثى كانت قوية لفظًا وصدرًا، فقد أرغمت الفتى الطائع على التراجع. لم يتعاركا ضربًا، ولكن، كما الحال عند الأيل والشامبانزي، يكفي استعراض مظاهر العنف. هنا يعوّض التمثيلُ القتال، كما يعوضُ حجم اليدين استعمالهما. وينحني المحارب القاسي أمام الفارسة الشجاعة.

كنت ُشاهدًا على ما يشبه المعركة هذه، ففكّرت في أوديب الذي التقى لايوس Laïos وسط جسرٍ كما يُروى. منع أحدهما الآخر من المرور، فانقض الابنُ على الأبِ كما بيّن فرويد Freud هذه الحالة الاستثنائية -لأن الآباء، عادة، يقتلون أبناءهم، ومن الأفضل في الحرب. كنت أعتقد أن الجسر رمز التصالح والوفاق، كلا. جسر نهر التنهّدات في البندقية، ما زال يردد صدى المحكوم عليهم بالإعدام، وجسر الأركول Arcole في إيطاليا يهتز بهتافات الجنود مرحبين بذاك الذي سيُدعى نابليون. فهل حضرتُ، فوق الجريان الهادئ لنهر الكروز Creuse شاهدًا على نهاية عقدة أوديب؟ لكن هنا، لم يقتل الابنُ أمّه، كما أنه لم يحتكّ بها، حذَرًا من ارتكاب فاحشة. ألححت على ذكر هذا الخبر السار، وأنا مرتاح الضمير.

رسم كارباسيو Carpaccio، مخلصًا لجسر الحوار Conversation، معاهدة السلام بين هيبوليت Hippolyte، ملكة أمازون، وثيوسوس Thésée رئيس الذكور الذي قاتلهم على جسر العربدة الحربية التي تخيّلها روبانس Rubens. نتساءل، عند تأملنا لهذه اللوحة، إذا ما كان الأمر يتعلق بهيجان محاربين، أم بحفل جنسي.

معركة الأمازونيات، روبانس، 1615
Bataille d'Amazones, Rubens, 1615.





ستختنق فرنسا عما قريب بفعل تلويث الشاحنات، فلماذا تتخلى عن معجزات النقل الثقيل الأقل تلوثًا عبر الموانئ عن طريق القنوات؟ اقض عطلتك على ضفاف هذه المياه الراقدة المظللة بالأشجار، هناك ستتعرف على الملاّحة الناجين من عصرٍ آخر والواعدين بالمستقبل.
جسر-قناة بريار، 1897.

الوقوع

لم أولد تحت الجسور،
لكني كدت. كان نهر الجارون
Garonne يجري على بعدٍ
قليل من والدتي، ما زال
يحرق شراييني. تعيش مدينتي
بين جسرين، أحدهما، وهو
الأصلي، منح لمولدي العادي
طابعًا استثنائيًا. يتعلق الأمر بجسر-قناة. ليس هناك إلا جسران اثنان من هذا النوع في فرنسا. الجسر الآخر هو مفخرة منطقة بريار Briare على نهر اللوار Loire. تمر القناة فوق الجسر، ويجري النهر من تحت أقواسها. يجسّر الماءُ العذبُ الماءَ العذبَ ويرفعه. كما لو كان الأمر يتمّ عن طريق تحويلٍ ذكيٍّ وسدودٍ متدرجة، الماء الأول يصدر عن الثاني، والبنت تركب الأم أو العكس. هنا تقلب التقنيةُ أو الثقافةُ الطبيعةَ. ولدتُ إذن غير بعيد عن هذا القلب. فهل أعاني من جراء هذا الخلل؟ هل
تمتعتُ بشدةٍ بهذا التحول،
هذا الحوار: من يدري؟ لكنني
أدين لهذه الصدفة بشغفي
بالجسور.

أحبها منذ الولادة حبًا
جينيًا، حب محارم.

يسار، يمين، شفاء

أكتب هذا الكتاب، لأنني أريد أن
أعبر جسرًا آخر قبل وفاتي.

في طفولتي المبكرة، عبرتُه بمعنىً ما.
وضع لي المعلم القلم والريشة والطباشير
في اليد الأخرى كي يرغمني أن أحوّل خربشاتٍ
خرقاء إلى كتابة مستقيمة. كان ينبغي السّير
مباشرة، ومراعاة القانون. عندما كان عمري يناهز
سبع سنوات، اهتزّ العالم كله من حولي. لم يسبق
أن شوهد مهاجم في كرة السلة في مثل مهارتي.

لم أنفك أهنئ نفسي على تميّزي هذا، على هذا التحوّل
وعلى قدرتي على استخدام اليدين معًا، على هذا التنوع، هذا
المزج الهادئ بين ضفتين، وعلى قطعة الدومينو البيضاء لجسري.

بما أنني كنت أنتقل بكل حرّية من كتف إلى آخر، عبر جسر
الوريد الكتفي، ومن كاحل إلى آخر، عبر جسر الوركين، فإن العالم
كله كان يمكن أن يُدعى إلى ضيافةٍ لا عداوة تعكّر صفوها: لأول مرة
كان اليمين على وفاق مع اليسار. تولّدت عن هذا التّجسير الجسدي
أشكالٌ من التواصل بلغت حدّ الكمال. إلاّ أنني، في نهاية الأمر، كنت قد
غيّرت من شاطئ ثقافيًا ونظريًا ومهنيًا. لم أنس أبدًا درسًا كان من الإلحاح
إلى حدّ أنه جعل مني عبدًا مشدودًا إلى مِحبرة الكتابة منذ الفجر حتى الظهيرة.
فهل أكتب كي أبرر كوني هاجرتُ نحو أرض غريبة، غرستُ فيها كرمتي وبنيتُ
فيها بيتي، واضطررت أن أترجم ما أريد قوله إلى لغة غامضة؟ عادة ما نحرص على
احترام القانون بصفةٍ دقيقةٍ خارج بيتنا، أما في البيت، فإننا نشعر بأننا أكثر ارتياحًا
لخرقه. خضعتُ إذن، بتردد كبير، لمئة قاعدة، فيها الثقيل والخفيف، الصريح والمضمر،
فيها صرامة ونزاهة في العمق، نظم وموسيقى في الشكل. كنت أستوعب كل هذا إلى حدّ
أن أخلط به نصفيَ الوثوقي. لطالما رغبت -على الأقل فيما يخصني أنا، وليس ما يهم الآخرين
الذين لن يتحمّلوا ذلك- في أن أحافظ على القانون، وأجسد الصدق والاستقامة الأخلاقية،
والمروءة، حتى إزاء أولئك الذين يخدعونني، إنه السخاء من دون مقابل. الاستقامة الدائمة.

والحال أنني الآن، وقد شِخت كجنديّ هرم، أحس بالألم في جانبي الأيمن. قاعدة العنق، وفقراته،
وحزام الكتف، وعظمه، وعضلات الصدر، وكل كتلة هذا الجانب تتضرع ألمًا. أعاني من رأس جسري.
الطائر الجارح للقانون يمنعني من أن أستدير إلى حدّ أنني، ويا للظلم، لا أستمتع إلا بنصف العالم. أريد
أن أتبدّل، أريد أن أعود إلى ذاتي، لم أعد أطيق ألم جانبي الأيمن.

أيها الطائر الجارح، دعني وشأني. أطلب منك على الأقل الشهور أو الأعوام التي تفصلني عن الموت. لقد التهمتَ واحدًا من جانبيَ طيلة حياتي، فاترك لي وقت احتضاري. لأنني أتعرف، في هذه المعاناة، على شيخوخة العمل، والتجاعيد التي يصعب القضاء عليها، والتي يُخلّفها العمل المكرور، والشقاء الذي يترتب على السكون المنحني، وجفاف الانتباه الثابت. أرى هذا الوحش اليميني جاثمًا عليّ، وعدم تماثله الصارخ، وإلحاحه القاتل، وحقيقته الصلبة التي لا تُحتمل. أرغب في ألا أسمح لنصف ميشيل بأن يُملي قانونًا بمثل هذه الصرامة على نصفه الآخر. أيها النسر، فكّ عني مخالبك، أيها الصقر انزع مني براثنك، لُفّا الحبلَ حول رقبتي، واتركاني أكتب ما أرغب في كتابته منذ خمسين سنة، وما لم تسمحا لي بكتابته قط. أرغب في أن أعيش متحررًا من القانون، حتى ولو أنني لم أجد أكثر من حقوقه عدالة. أريد أن أعبر من جديدٍ الجسر متخليًا، أيْ نعم متخليًا، عن هذا الأفضل. أعرف جيدًا أنني لم أكتب بعد، وأرغب أن أكتب أخيرًا. أريد أن أرغب وأبكي وأصيح باليد اليسرى.

التنين ذو المخالب، الطائر الجارح، العقاب، النسر، الوحش اليميني الذي يحُول دون استدارتي، كلهم يحرسون مدخل هذا الجسر القديم التي كنت أعبره، في سن السابعة، تحت سوط معلمي. أراهم متجمهرين أمام مكان تسديد المكوس، مكشرين عند مركز الجمارك، نصفهم وحش، ونصفهم أنا. كانوا يمنعونني من العودة. أتعرفهم كتناسخٍ لحيوانٍ واحدٍ يمكنني أن أسمّيه باسمه: المعرفة المطلقة. إنها سامية وقبيحة، وهي ترعى النفوس الصالحة، والعقول المستقيمة والعمال الشرفاء، تحميهم وترعبهم. تمنع هؤلاء الفضلاء من أن يعبروا في الاتجاه الخطأ. لا خطأ ولا خطيئة، لا كسل ولا رعونة. إنها شيطان كل حقيقة، بما فيها نسبيتها وعدم ضرورتها، لذا تفرض علي، فضلًا عن ذلك، أن أتخلى في سرّية عن كل أملٍ في أن أرى يومًا ما الشاطئ اليساري القديم.

ورغم ذلك، فأنا أرغب، يائسًا، أن ينقلب العالم بأسره، أريد أن أعبر جسر جسدي، وأن أغزو نصفيَ الآخر، نصف الآخرين، نصف الأشياء. أريد أن أسترجع توجُّهي القديم، وأن أتنقّل عكس كتفيَ ووركيَ، أريد أن أطوي جذعي وأطرافي وصفحاتي مثل إصبع عملاق، أريد أن أتحوَّل روحًا وجسدًا.

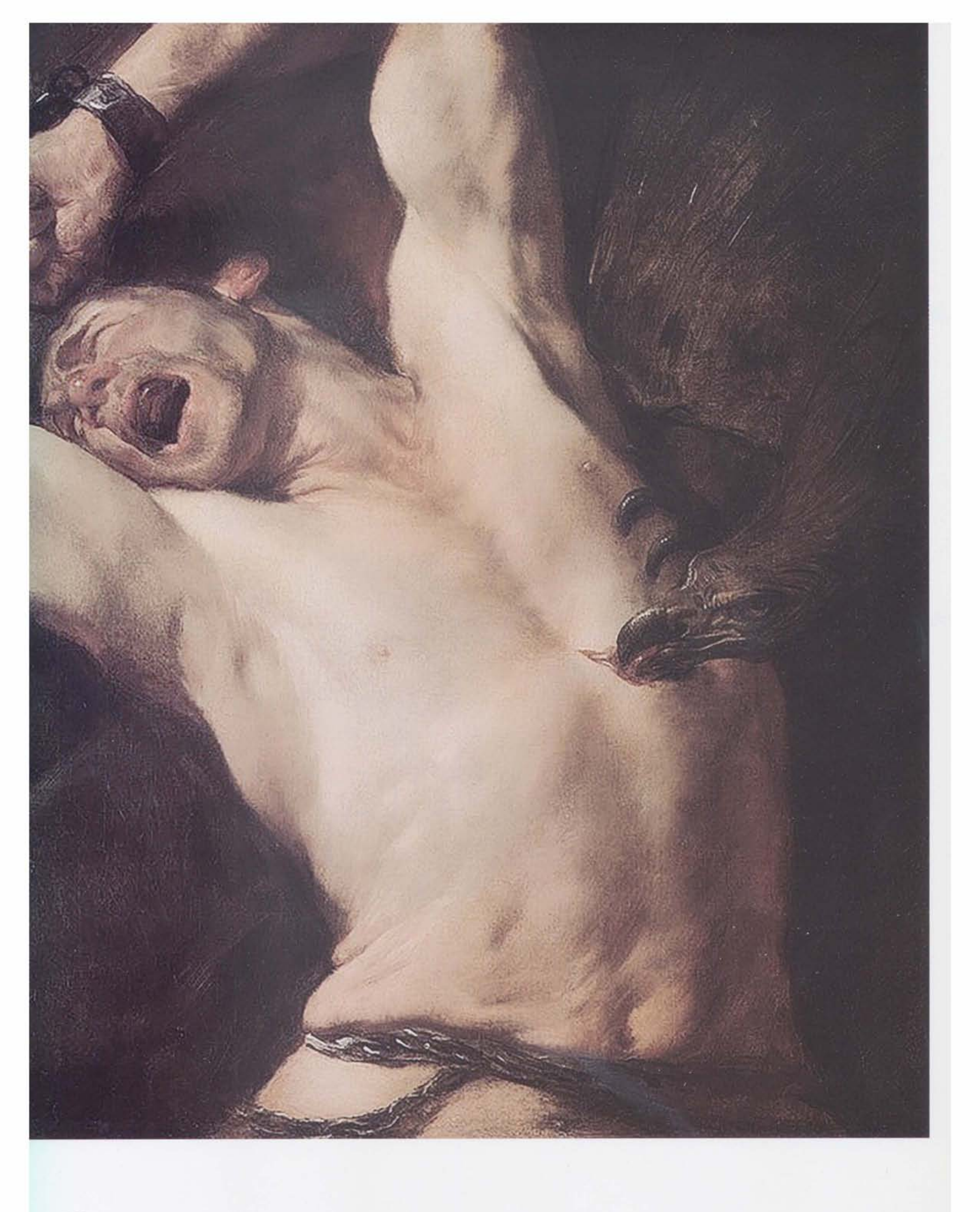
وماذا عن اليمين وقانون الحقوق؟ فهل ستتخلى عمّا كنتَ تحبّه؟ هل ستقتل أفضل القيم؟ لتذهب إلى الجحيم! أريد أن أكتب بحرّيةٍ ما أرغب في كتابته، ما لم أكتبه قط.

بما أن نسر الأسطورة قد التهم كبد بروميثيوس، فهذا يدلّ على أن القدماء كانوا يعلمون أنه يعيد بناء ذاته. ولكن ألمْ يحطّم منقارُ الطائر الكاسر بالأولى عضو البطل، المتهم بسرقة نار الرغبة من الآلهة؟

عذاب بروميثيوس، للفنان الإيطالي جيوشينو أسريتو.

Gioacchino Assereto - The Torture of Prometheus

Created: between 1620 and 1648



جعلتني أعاني، فأصبحت أيأس من نفسي منذ سنين.

رغبت في أن أحقّك محبةً وقوة. انتظرت بلا جدوى أن تبادلني شيئًا من اليسر، من غير أن تؤاخذني على ما صدر مني من أقوالٍ وأفعالٍ، وحتى أكثر مقاصد صمتي رهافة.

كان عليّ قطع الجسور حفاظًا على بقائي.

إلا أنني لا أعرف كيف أتصرف.

تمكنتُ من أن أبني، إلا أنني لا أعرف التوقّف. تمكنت من أن أخلق الروابط، إلا أنني لا أستطيع فكّها.

أحبك، وبما أنني غير محبوب، فلا يمكنني أن ألغي حبي.

هل يمكنني أن أستجمع قواي ذات يوم؟

هل يمكن أن نقول عن هذا إنه جرح؟

لم يعد لي أمل في ذلك. لا أستطيع قطع الجسور، وأنت مزقت جسري.

أكيد أنك ستجد دومًا أفضل مني، هنا أو بعيدًا.
إذا لم يكن في استطاعة أحد أن يظنّ أنه من غير منافس
فمن يا ترى يكره أن يصبح فريدًا من نوعه في نظر شخص ما؟
فقدت هذا الحلم.

أقول في نفسي إذن ينبغي قطع الجسر: هذا ما فعلتَ.

يــروي
صاحبي عالم النفس: الجميع
عرف ألم الهجران. أحبّت امرأة محبوبةٌ حبيبًا
آخر. تهجركَ من أجله، هو الأكثر شبابًا وجمالًا، فتسقط أنتَ
في الهاوية. كانت فابيان، وعمرها ست عشرة سنة، تتبادل الرسائل عبر
الشبكة العنكبوتية، مع المدعوة إيما التي كانت قد التقتها في موقع متخصص
في بيع الأثاث العتيق. دام الحوار على الشاشة ما يكفي من الوقت بحيث وقعتا
في حب بعضهما.

ذات يوم، لم تردّ إيما على نداءات فابيان، سوى برسالة مضمرة لم يكن لها داعٍ، تدل
على القطيعة. سقطت فابيان ضحية انهيار عصبي خطير دفعها لزيارتي، ودام الأمر مدة طويلة
مما جعلني أقلق لحالها.

واصل صاحبي: لاحظ أن لا واحدة عرفت الأخرى، أعني بلحمها وعظمها، لم تريا قط
بعضهما، ولا تلامستا. لم تمدَّ هذه العلاقة أيّ جسر بينهما، اللهم إلا جسر كتابة لم تكن
لتضمن لأية واحدة منهما لا حقيقة الأخرى، ولا عنوانها الحقيقي، ولا سنّها ولا جنسها.
نعم، لقد وقعت فابيان في حب ملاك.

إن النفس البشرية، عندما تنتج واقعًا من أجل قضية افتراضية، فهي تبني جسرًا
بين هذا العالم وعالم آخر. بما أن المرض واقعيٌ بصفةٍ مؤلمة، فإنه يجعل هذا
العالم الآخر يظهر شبيهًا بالواقع في واقعيته. نحن نحبّ في الافتراضي
ونعيش ونوجد فيه واقعيًا مثلما في الواقع الفعلي. هل يمكننا
أن نقيس، منذ فجر الحب الإنسـاني نسبة الافـتراضي
في هـذا الـحب؟ هـل يمكننا أن نـعرف كم
فيه ما يفضل الواقعي؟

جسر حب ملائكي

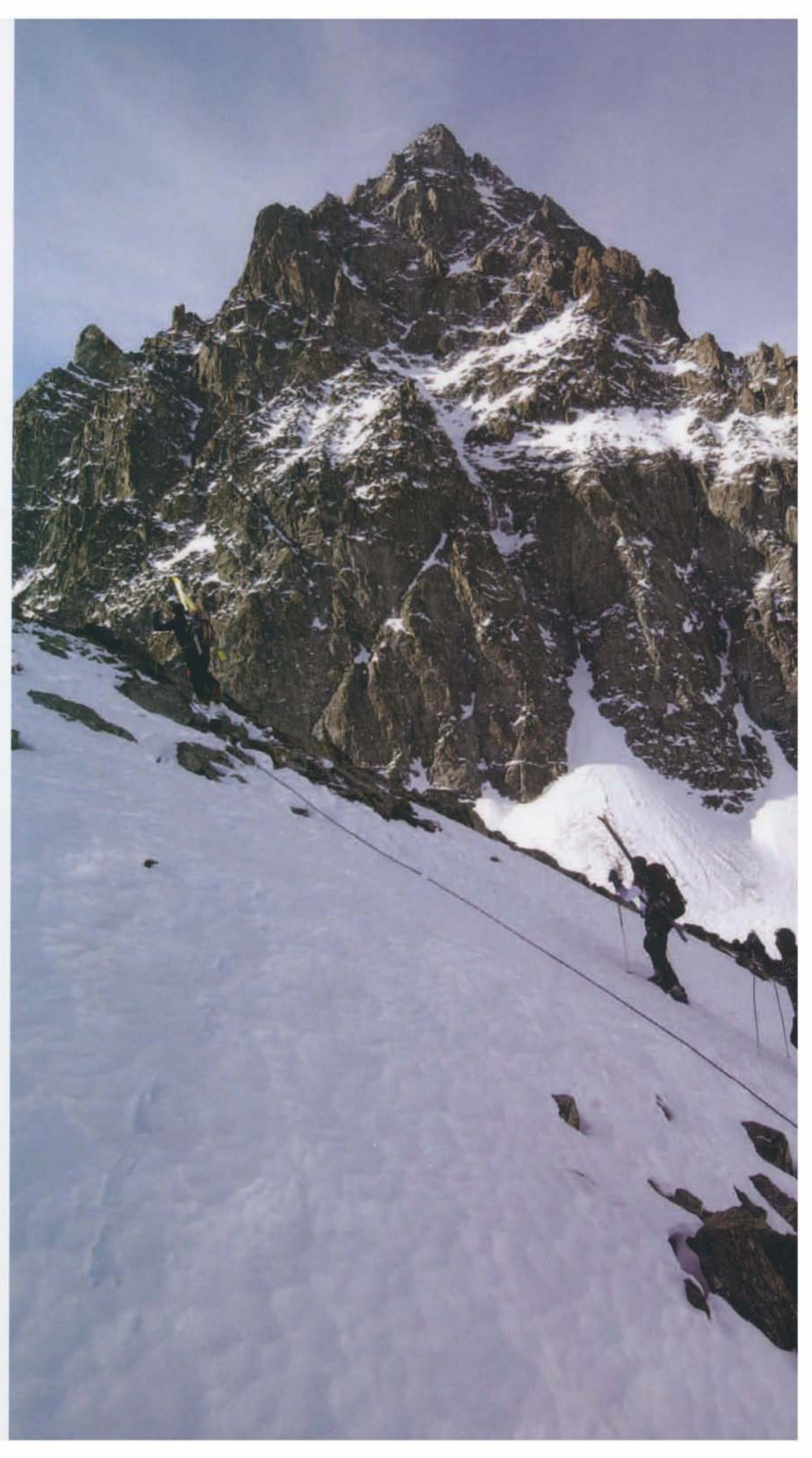
في دير سان ماركو بفلورنسا يرحب الأخ أنجيليك بالزائر بإعلان مريح، استعيد في قصة الملائكة، قاده شيئًا فشيئًا نحو نشوة الفردوس، في مرج مليء
بالزهور، حيث تشكّل الأرواح بأذرعها جسور دائرة.
يوم القيامة، فرا أنجليكو، 1431.
Le Jugement dernier, Fra Angelico, 1431.



ثلاثة جسور، قمة

بلغنا،
نــحــن
الـثـلاثـة، قمة
جـبـل فــيزو Viso
حـوالي الـساعـة الـعاشرة
صـبـاحًـا. تسلقنا، سـعـداء،
الـتـلال الـغـربـيـة الأنـيـقـة، دون
صعوبات كبرى. كان الطقس جميلًا، كنا
نُخرج مأكولاتنا من حقائبنا، عندما بدا الحبل
الثاني القادم من الطريق العادي الطويل، لكنه
سهل. واجَهَنا دليلٌ وزبونه، استدعانا هذا لشرب
نخبه. كان يبدو أكثر سعادةً منا.

قال لنا: لنحتفِ ببعثي، فقد بُعثت من بين الأموات.
قلت له ضاحكًا، ليس كذلك، بُعثتَ فقط من بين
مـوتى الـوادي أو ملجأِ كينتينو سيلا Quintino
Sella. فألحّ، وأردف: ظننتُ أن قلبي كان سيتوقف،
كان هذا السباق اختبارًا بالنسبة لي، لأن جرّاحًا كان
قد جسّرني فيما سبق ثلاث مـرات. على مرتفع أربعة
آلاف متر، شربنا على نخب مقاومة الجسور.



في الملاجئ، حول جبل فيزو، أو على جنباته، نسمع مرشدين يتكلمون اللغة الجميلة بيدمونت. وبعيدًا تترددون: هل تسمعون فرنسية أم إيطالية؟ واحدة أم أخرى؟ واحدة وأخرى؟ لا واحدة ولا الأخرى. هناك لغات جسور.

بون-ليفيك
Pont-l'évêque

أنت كاهنٌ الى الأبد sacerdos in aeternum. بهذه الكلمات التي تُقال في القربان المقدس في العبادة الكاثوليكية، يدخل نائب الكاهن الكهنوت إلى الأبد. هل تعلم أن الشيء نفسه يتم في البحر؟ لا أعرف ملّاحة قدماء: إن كنت ملاحًا، فإنك ستبقى كذلك، ولا حول لك ولا قوة.

1956، ما زال يلبس سروالًا مجشرا.

ولدتُ في بلدةٍ متوحشةٍ لا نبيذ فيها ولا أجبان. كان آبائي الفلاحون يخططون بعبقريةٍ لإقامة فردوسٍ تتوفّر فيه الخضروات والفواكه، فانتزعوا الكروم من سفوح التلال كي يغرسوا أشجار الخوخ. لم تكن عندهم تربية للمواشي ولا حليب، اللهم إلا نوع لذيذ من عنب المائدة الذي أصبح اليوم يعرض في الأسواق بعناقيده الكبيرة وحباته الضخمة ذات القشرة التي تكفي صلابتها لتحمّل الرحلات الطويلة. بما أنني ولدت في هذه الجزيرة، ومثلها نادر في فرنسا، كان عليّ أن أسافر كي ألتقي ملذات الجمع بين جبن الروكفور Roquefort ونبيذ الغراف graves.

عندما كنت ملاحًا مبتدئًا، لم أكن أترك لأحد أن يذهب إلى سوق تولون Toulon، صباح يوم الأحد حين لا أكون قد خططت لولوج البحر الجميل. بعد أن لامَستُ الوردةَ الحمراء من أجل أن يحالفني الحظ، اقترحتْ عليّ إحدى البائعات البارعات اليقظات أن أتمرّن على تلك الملذات، إضافة إلى لذة الحب. اقتصرنا على الأجبان. كانت تبيع لي منها ثلاثة أنواع مختلفة كل أسبوع، بحيث إن تربيتي في هذا المجال كانت قد تحسنت في نهاية العام. في يوم غفران، وضعتْ في يدي مربعًا لجبن بون-ليفيك. أدى بي الحظ فيما بعد أن أقيم في أوفيرني Auvergne حيث كانت تنتظرني الاكتشافات الرائعة لأجبان الكانتال cantal، وسان-نيكتير Saint-nectaire وفورمدامبير.

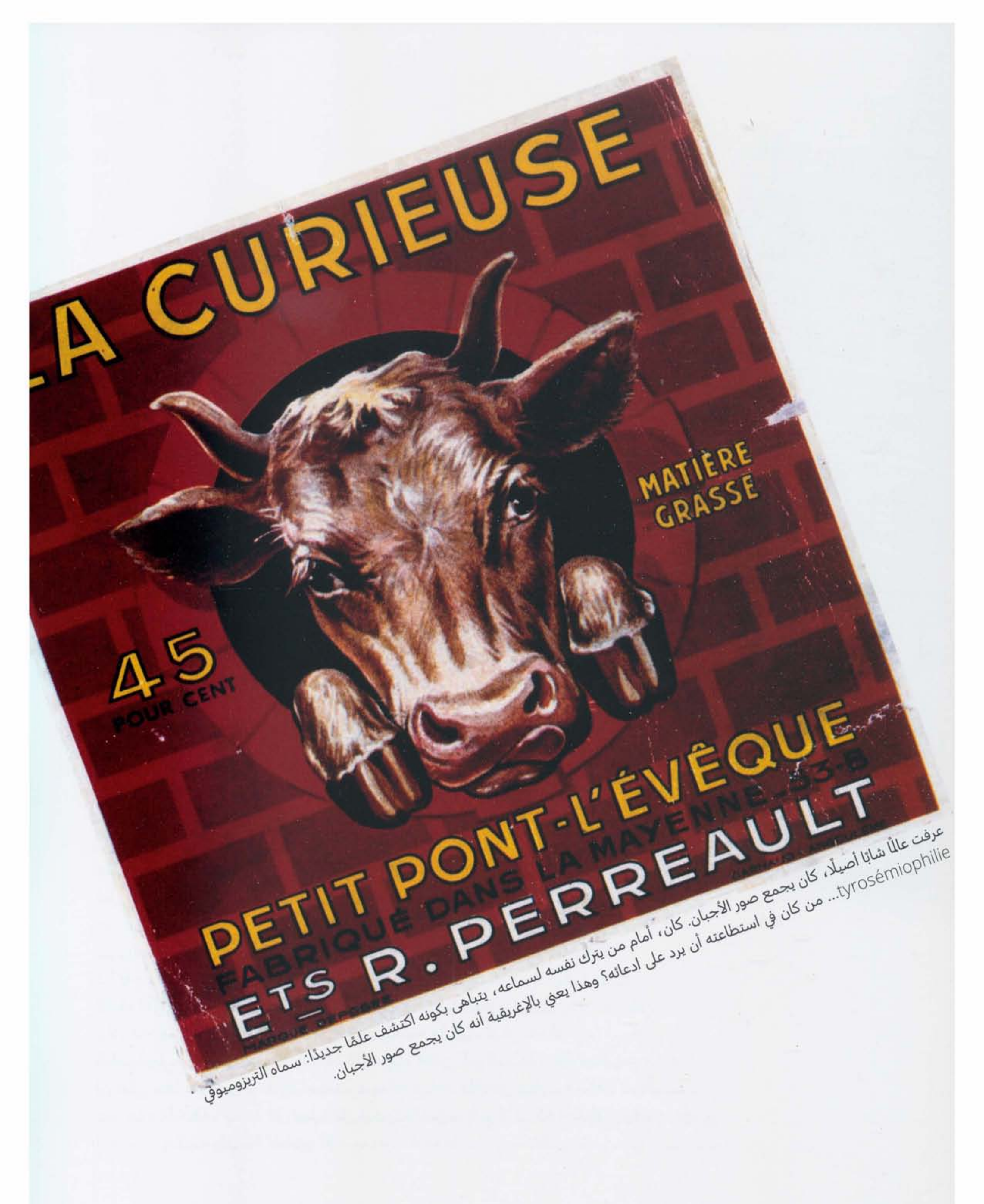
سعت التشريعات الأوروبية، المتشددة والستالينية مثل كثير من الإدارات، وقد أخذها الذعر من جبهة الجراثيم، إلى أن تُلغي تعدد أنواع الأجبان في فرنسا كي تختزلها في معجونٍ صناعيٍّ فريدٍ من نوعه ولزج، من دون رائحة ولا طعم. ومن جهتها حاولت الرأسمالية الأمريكية، المتوحشة والمنقادة إلى داروينية اجتماعية، أن تلغي في ميدان التجارة العالمية للخمور، التسميات التي تحيل إلى المنشأ المحلي، كي تختزل تعدّد مزيج الخام عندنا إلى مجرد إحالات إلى أصناف العنب. أيها الآباء، تشبثوا بالبقاء في اليسار، أيها الآباء، تشبثوا بالبقاء في اليمين.

الاختزال المفاجئ نفسه تمّ في فرنسا بالنسبة لزيوت الزيتون عندنا. ما زلت أذكر الزيوت المتنوعة، المُصفّاة ومتعددة الطعوم، حيث كنا نميّز فيها بين خمسة عشر نوعًا صادرة عن منطقة البروفانس Provence. يحكي الكاتب جان جيونو Jean Giono كيف كانت تعمل المطاحن الخمس أو الست في مانوسك Manosque حيث لم يكن يخطر قطّ في بال أقربائه أن يتزوّدوا بعيدًا عن الجوار أو عن ذوقهم. فجأة، وتحت ضغط هذه اليد الخفية للسوق التي يبدو لي أنها لا تصنع إلا المعجزات، لاحظتُ في شبابي ظهور قنينة زيت موحدة تُخلّد علامتها اسم الهمجي الذي احتكر السيادة على بساتين الزيتون.

بالمناسبة، هل تعلمون من أين أتت كلمة العلامة التجارية marque؟ من الفعل مشى marcher. العلامة تحفَظ أثرَ الخطو. في وقت مبكر من عهدنا كانت عاهرات الإسكندرية قد توصّلن إلى نحت الأحرف الأولى من أسمائهن بالمقلوب في قاع أحذيتهن، وهكذا كنّ يتجولن على الشاطئ، تاركات علامات خطواتهن على الرمال، فكانت تدل على الاتجاه الذي ينبغي لزبائنهن المحتملين أن يتّبعوه، عارفين في الوقت ذاته أيًا من أولئك النساء سيواجهون. جميع مروجي العلامات إذن هم أبناء هؤلاء العاهرات.

إبّان سنوات الستينيات رأيت الخطر نفسه يحدق بأجبان إقليم الأوفيرني Auvergne. كانت الخزانات التي ترقد فيها أجبان الفورم أو السانيكتير تَقفل أبوابها واحدةً بعد الأخرى، في الوقت الذي كان فيه عجينٌ مطبوخٌ شنيع، يحمل علامة تجارية مشهورة، يغزو ألواح الإعلانات. سررت لمشاهدة الانتفاضة الشعبية: سيستعيد جبن الساليرس salers أمجاده.

أيها القارئ، أنت تعرف ذلك، وتراه، إن ثقافات معينة في طريقها إلى الموت. ثقافة الكتاب، واللغة والذوق الفرنسي الرفيع، تلك الثقافة التي طالما ارتبطت بالألوان والأساليب والموسيقى والفساتين الأنيقة والأطباق اللذيذة. النجدة! انظر إلى مداخل مدينتك كي تعرف، باشمئزاز، لأي جهل فظيع تُخضع أكثرَ الطبقات السائدة التي عرفتها فرنسا همجية البلدَ اليوم. الهمجيةُ ذاتها تهدد أنواع النبيذ والأجبان، تلك الأمور التي تبدأ عندها الثقافة بلا منازع. عندما تقرأ بعض هذه الجمل أيها الصديق، ينبغي عليك أن تُعجل باقتناء كتاب مؤلف جيد، مع قطعة من جبن البري دو بري de brie، ومعزوفة لبولانك Poulenc، وقنينة باردة من نبيذ ميدوك تتذوقها على عجل مع جبن منطقة بون-ليفيك.



عرفت عالمًا شابًا أصيلًا، كان يجمع صور الأجبان. كان، أمام من يترك نفسه لسماعه، يتباهى بكونه اكتشف علمًا جديدًا: سماه التريزوميوفي tyrosémiophilie... من كان في استطاعته أن يرد على ادعائه؟ وهذا يعني بالإغريقية أنه كان يجمع صور الأجبان.



ساعات مقطوعة الجسور

عندما كنا، في عصور ما
قبل التاريخ نعبر المحيط الأطلسي
على متن الباخرة من الهافر Havre إلى
نيويورك مرورًا بساوثامبتون Southampton،
كنا نأخذ الوقت الكافي كي نرقص بكيفية جنونية. في
المساء الأول لرحلتي الأولى، عندما دقت الساعة الثانية عشرة
ليلًا، توجهت نحو مشاركةٍ كي أقترح عليها رقصة فالس، أو التانغو أو
الباسودوبلي، لا أذكر أيّ هذه الثلاثة: قلت لها، انظري إلى الساعة، هل تريدين
أن نبقى معًا دقيقتين أو ثلاثًا؟ أخفيت عنها الحقيقة، ذلك أن عقارب الساعة تتوقف
عند هذه اللحظة، ساعةً كل يوم، لكي تتدارك التفاوت التي لا تدركه أجسادنا. وفيت بعهدي
للحسناء ودامت رقصتنا للتانغو ثلاثًا وستين دقيقة تلذّذها جسدانا.

من بين أجمل ما افتقدناه، أضع العبور في القوارب حيث كانت الروابط الاجتماعية تعرف بعض الراحة الوجيزة. أحن إلى ثقافة يكتشف فيها العابرون المسرات في هذه الأماكن المعزولة التي يتزاحمون فيها، جسوزا على جسور: على متن بروفانس في القرن التاسع عشر، ثمانية جسور من العقد والأثواب تهيمن بوقاحة، حيث يعرق السائقون الذين يزودون المحركات البخارية بالفحم.

نحن نطيرُ اليوم من تاهيتي إلى سنغافورة، أو من باريس إلى طوكيو في اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة. **بينما يعيش جهازنا العضوي في زمان ومكان، فنحن نجسّر المكان بنوع من السلطة القاسية، وذلك بأن نقطّع جسور الزمان.** هناك عشرات من الساعات المخبأة في أعضائنا وأنسجتنا وخلايانا وبروتيناتنا أيضًا، تفقد صوابها داخل جسمنا. بما أن الدوخة تنتابها، فهي تستغرق أيامًا عديدة كي تتدارك وتيرة تزامنها. لا يمكننا أن نطلب من جوقنا الزماني-البيولوجي أن يضبط بالسرعة ذاتها آلاته الموسيقية.

غاب عن المفكرين الكبار ممن تأملوا في مسألة الزمان، نيوتن Newton وأينشتاين Einstein أو برغسون Bergson، أن يمتطوا مثلنا طائرات سريعة كي يعانوا بشدة من تفاوت التوقيت. لو أن كانط Kant قد مرّ بهذه المعاناة، ما كان له أن يقع في خطأ القول بأن الزمان يحسب مثل سلسلة الأعداد، كما أنه ما كان لبرغسون أن يقول بالديمومة المستمرة. يجسّر جسمنا كثيرًا من الساعات التي يقيس تنوعها عددًا من الأزمنة المختلفة إلى حدّ أننا لا نعرف بعدُ كيف يتصرف. في هذا الامتداد الزماني-المكاني لجسدنا، ينبغي أن يمدد التحام مفاجئ لفرشة المكان بعض الخيوط حول فرشة الزمان لكي يحدد نقطة تمزقهما. هذا الكسر يسبب ألمًا إلى حدّ أن أيّ نظرية تصدر عن هؤلاء العباقرة الذين لم يتعلموا شيئًا على حسابهم، بإمكانها أن تتنبأ به، أو أن يستشعروا وجوده. فنحن لا نعيش منغمسين في مكان وزمان كملاح في سفينته أو حزمة في طائرة، فأليافنا تربطنا بهما. ونحن ننتزعهما.


E DU CIEL

مهما بلغت قنطرة القوس المركزي علوًا، فهي لا يمكن أن تصل إلى حيث يحلّق قوس قزح والطيارات. يرسم جان غروتي قوس الخطوط الهوائية الأولى بين باريس ونيويورك: عمود في برج إيفيل وآخر في تمثال الحرية. القنطرة الصلبة الثابتة بين الشاطئين تتحول إلى رحلات تزداد سرعة، رابطة بين هذه النقطة من العالم وأخرى. لا ننفك نجعل جسورنا ناعمة ومرتفعة.

طريق السماء، جان غروتي، 1930.



لما عدت أمس من سان فرانسيسكو،
كتبت هذه السطور عند الثانية صباحًا، بعد
أن استبدّ بي الأرق، فكنت شاردًا غضبانَ أكثر مما كنت
متيقظًا، كانت مفاصلي وهيكلي العظمي يؤلماني، وعضلاتي موتورة،
كانت بي شبه حالة غثيان، وكان ذهني منزعجًا مثل معدتي، هضمي
وفكري معطلان، كنت أعلم أنني سأنظر إلى ضيفي بعد الظهيرة مثل شبح،
وأنني سأتمتم أمامه أربع جمل جوفاء. هذا المغص العام ينحلُّ إلى وظائف جزئية
مضطربة، كل واحدة منها يصيبها الخلل في الوقت نفسه الذي يصيب ساعتها. في
الحالة العادية، كل هذه الوظائف تتزامن في مركز لا يعلم أحدٌ مكانه وفي عقدة نشك في
وجودها. فإذا ما تفككت خيوطها المنفردة، وفكّت عقدتها، فإنها تضطرب أو تختلط من غير
قائد جوق، فيأخذ كل منها وقته. وتعزف كل آلة لوحدها مقطوعتها. فتترك السيمفونية المكان
للضوضاء الخلفية. عندما يُتخلى عن العضو، فإنه يأخذ رخصته. أعاني من التشتت المزمن لوظائفي،
بما أن أعضائي متفرقة، فإنها تتشتّت في ديمومةٍ متعدّدةٍ فوضويةٍ من غير انسجام. أجرّبُ هنا كوننا
نعيش حقًّا ديمومةً متعددة الأزمنة. فما نعتبره وحدة زمانية موحَّدة للعضوية، يشمل عددًا وافرًا من
الإيقاعات، بل ومن الأزمنة المختلفة. وفعلًا، لماذا تنتظم الديمومةُ نفسُها هذا الجزيءَ
المغرقَ في الصغر، وذاك العضوَ العملاق؟ أمام تعدد الأزمنة هذا، من الطبيعي
أن توجد فينا جسور تعبرها كلها وتتزامن فيها. أما التفاوت في التوقيت، فهو
يشتت الجوق، ويفكّ العقد، ويفرق الجمع، ويقطّع الجسور.

كم من الوقت نضيّعه عندما نريد أن نربحه؟ كان عصرًا سعيدًا، عصر
البواخر، ذاك الذي كنا نربح فيه الوقت كلما ضيعناه، فنرقص رقصات
الفالس والتانغو على الجزء المخصص للتنزه في سطح السفينة.

الفن يتقدم العلم في بعض الأحيان. لا يمر الزمان مثل الأعداد: كانط على خطأ. هل كان
يحسب الزمن باستعمال ساعة نحاس، هندسية؟ كلا، الزمن مضطرب، إنه يمر ويرشح،
متقطعًا، متقلبًا مثل سيل أو كئيبًا مثل بركة ماء. يمزج بين ألف إيقاع ووزن. لذا فإن
عناصره قلما تصطف على خط واحد مثل عناصر الجسم الصلب، بل إنها تنزلق فوق
بعضها البعض، بفوضى كجزيئات سائل. يرى سالفادور دالي Salvador Dalí الأمور من
الوجهة الصحيحة: إن ذاكرته المفككة تُحتسب على ساعات لزجة.

سالفادور دالي، تفكك استمرار الذاكرة.
Désintégration de la persistance de la mémoire, Salvador Dalí, 1952 -1954.



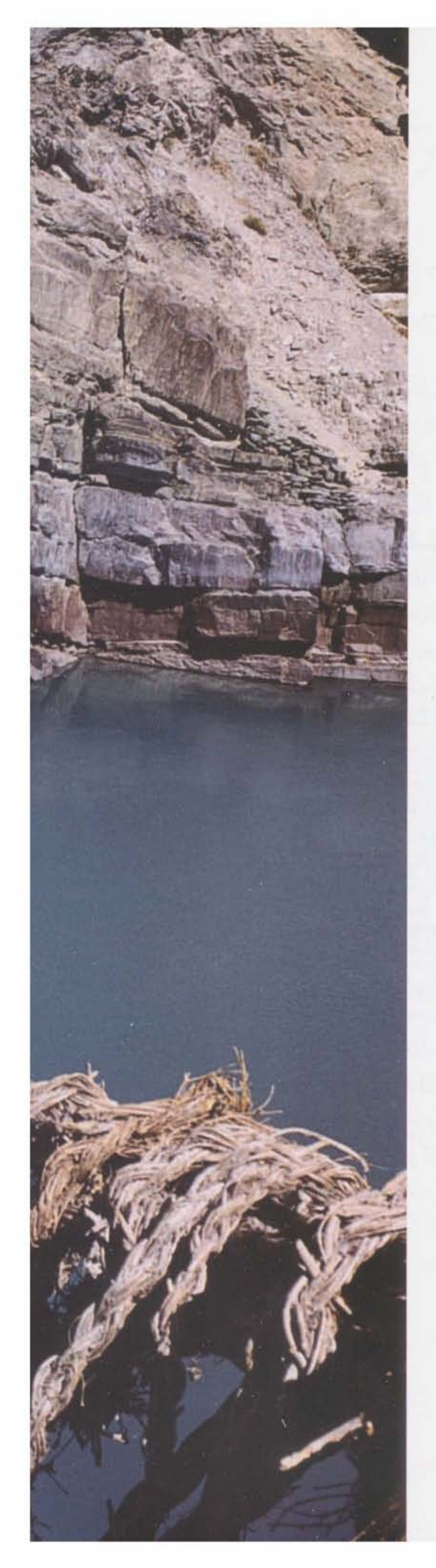
كيف ننتقل من الكبير إلى الصغير؟

إنّ
الجـني الـذي
حـلـمـت بـه في الصـحـراء
موجود، لقد التقيته. كان أكثر قوة من
جنيّ ألف ليلة وليلة، في صحرائي الواقعية والخيالية،
هو يعرف، ويَقدر على بناء جسر أكثر ضخامة من تلك الجسور التي
تربط جزيرة مانهاتن بأرصفة بوردو، أو التي تربط خشونة الذكر بقلب أنثى. أنصتوا
وانظروا وتأملوا. إذا تمكنتَ، عند النظر إلى ركن طاولتك، من أن تدرك، بفضل أدق المجاهر،
الذرات والجزيئات التي تُكوّنها، فإنك ستتعجب من الأبعاد الهائلة التي تفصل هذه العناصر المادية بعضها عن
بعض. كيف لا يمكنك إذن أن تخترق قطعة الخشب هذه بأطراف أصابعك، رغم ضعف كثافتها ورغم
ثقوبها؟ إن رؤية هذا العالم الصغير المليء بالثقوب يدفعك إلى أن تحلم باختراق الجدران. ومع
ذلك، فإن جسمك عاجز عن اختراق المادة التي تدرك بأمّ عينيك وبلمس بشرتك
مقاومتها الصلبة. لماذا؟ لأن القوانين التي تحكم العالم، عالمنا،
الذي نعيش ونعمل فيه، لا علاقة لها بالقوانين
الـتي تضـبـط المـلـكـة الصـغـرى
وجـسـيـمـاتـهـا.

تفسر
الميكانيكا
الكوانتية، المليئة
بالانفصالات، هذا العالم الصغير، أما
النسبية العامة، فهي مغرقة في الشمولية إلى حدّ أنها
تتحكم في الكواكب وفي الفضاء والزمان الكونيين، وفي العالم الكبير. كان
أينشتاين، واضع النسبية العامة، يردّد فيما يتعلق بالنظرية الأولى وصدفها: إن الإله
لا يلعب لعبة النرد. فكان صاحب النظرية الأولى يردّ عليه: ماذا تظن في نفسك حتى تسدي النصائح
للإله؟ هذان القانونان يفصلان العالم الصغير عن الكبير، مثل ضفتين موجودتين في العالم نفسه على الرغم من ذلك.

كان باسكال Pascal يقول: كم حقيقة خلف جبال البرانس، تغدو خطأ بعدها، على هذا النحو كان يصف، وعلى هذا النحو كان يتقبل الاختلافات التي تفصل البلدان والعادات واللغات البشرية والمؤسسات والحقوق. تتيح لنا الأسفار مثل هذه التجارب، وهذه الصدامات الكبيرة بين الثقافات. ومما يثير الاستغراب، هو أن العالم المادي الذي لا يخضع مع ذلك للاتفاقات البشرية، يبدو هو كذلك، منقسمًا إلى منطقتين -لا تتصرف الذرة كنجم، لا تُقدَّر كتلة جسيم كما يقاس كيلوغرام من الطحين- تتبدل فيهما القوانين كما تتبدل من ضفة لأخرى لنهر أو جسر. من جانب لآخر من هذه الحواجز، تعوَّدنا أن نقيم الجسور، من الحجارة أو من الحبال. من جانب لآخر من الحدود يحصل أن نوقع اتفاقات أخرى، ونصرف نقودًا، ونترجمَ لُغات، ونضع بروتوكولات قوانين. لكن، ما العمل عندما يتعلق الأمر بالعالم وضرورته؟

العبقري الذي أعنيه، السيد كون Connes، أستاذ بالكوليج دو فرانس، ساحة مارسلان بيرتولو، باريس الخامسة، عنوانه العادي الذي يعفيكم من الجري وراءه، الصحراء. لقد أمضى حياته في إقامة العمل الذي من شأنه أن يجتز المناطق المعنية. المفاجأة أنه أنشأه، هو أيضًا، بواسطة حبال، مثلما يفعل هنود الآنديز Andes أو شيربا الهيمالايا للمرور عبر الشعاب العميقة. وهكذا، لم يجد أي إشكال مع أصحاب البيئة. كان يسمي حباله السوبر-حبال، ليس تفاخرًا من جانبه، لأنني لا أحسبه متباهيًا، بل على العكس، وإنما لاعتبارات تتعلق بالأبعاد، وأيضًا لكون تلك الحبال تهتز أكثر من حبال الكمان. كان أيضًا يدعوها البران (الأوتار) branes إشارة إلى الامبران (الغشاء الحيوي) membrane. هذه الأسماء توحي بالطابع العنكبوتي للمواد التي يستخدمها، التي هي من خفة الكائنات الرياضية ورهافتها. كان في بعض الأحيان يُسِرّ أن الجسرَ المعنيَّ بالأمر يعبر عدة أبعاد، تناهز الأحد عشر حسب ما فهمت. يقول آخرون إنها أكثر عددًا. ها أنتم ترون إلى أيّ حد تفوق قدراته قدرات الجني الذي التقيته في الصحراء. إنه يقيم جسرًا ذا أبعاد متعددة! لم تروْه قط، ولعلكم لن تروه أبدًا، حتى ولو كان لديكم ما يكفي من رهافة العقل لرؤيته؟ لكن، حتى ولو أنكم لا تستطيعون تصوره، فيمكنني بالتأكيد أن أقول لكم إن هذا الجسر، الأكثر واقعية من الواقع، يسمح بالضبط للواقع أن يوجَد كاملَ وجوده، أعني أن يتمكن من أن يقدم نفسه، في الوقت ذاته، لعينك ولعين كائن في حجم الذرة. فما عسانا نقول عن واقع لا يوجد فحسب إلا بالنسبة لعين نوعنا البشري، بحيث لا تدركه حتى النحلة أو الدودة أو الجرثومة؟ ينبغي للواقع أن يظل كذلك بالنسبة للجميع! ينبغي أن يكون هناك جسرٌ
كوني. جسر من البعد الكوني بحيث تتعذر علينا رؤيته أو حتى التفكير فيه. وعلى العكس من ذلك، فإن
كوننا نجد صعوبة في تصور هذا الجسر، يمكن أن يستخدم حجةً لوجوده، أو على
الأقل، علامةً على ذلك. وهكذا، فلبلوغ واقع كوني، ينبغي
إقامة جسر تفوق أبعاده كل الوقائع
الموجودة والممكنة.



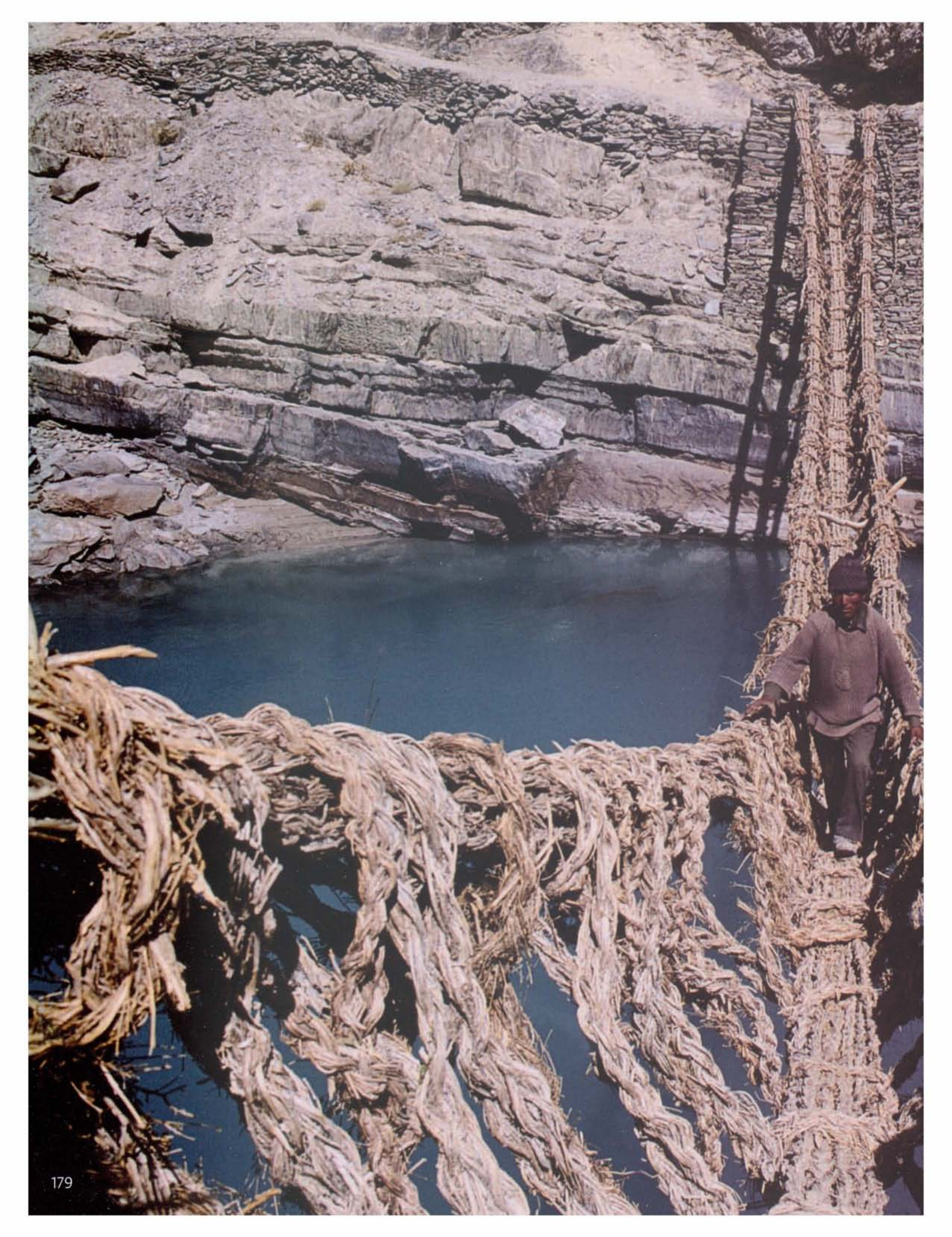
يخيّلُ إليّ أنني أراه، أنا معجب بهيكله وجماله، أسمعه يهتز تحت نسيم الكون. كيف نُغني، وكيف نصف جسرًا أكثر واقعية من ضفتيه؟ هو ذا جسرٌ أكثر منفعة من كل الجسور الواقعية المرئية والممكن استخدامها والعيش عليها. بفضله أذهب أنّى شئت.

شكرا لك السيد كُون، أيها العبقري. نسيت أن أسألك: هل يمكنني أن أجد في ذلك الجسر طريقا نحو قلب صديقتي؟

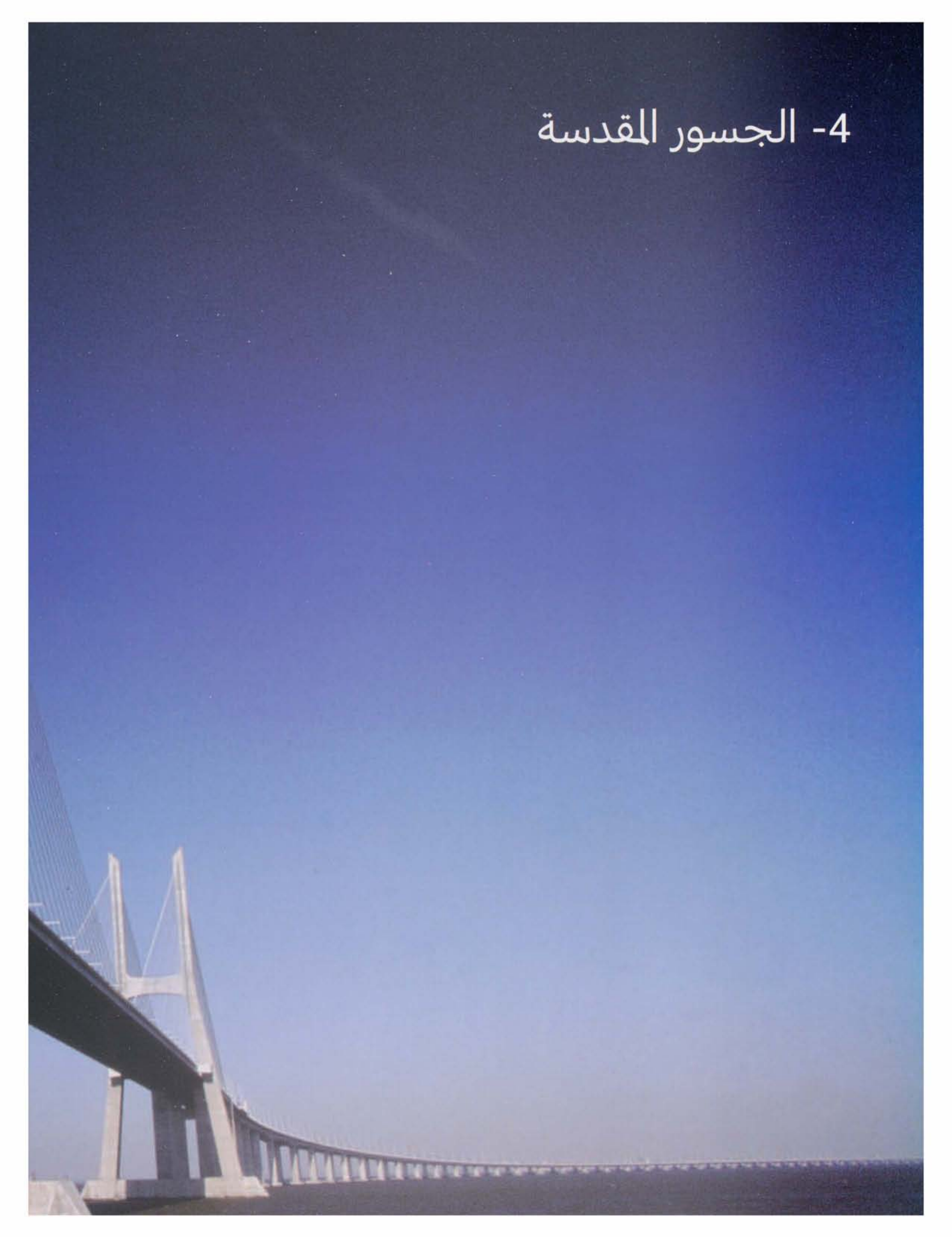
لكن، خطرت لي فكرة مباغتة. عندما اكتشف نيوتن الجاذبية الكونية، ألم يكن قد أقام بالنسبة لعصره جسرًا بين سقوط التفاح في البستان أو الأشياء على الأرض- في مستوى بسيط-، وبين حركة الكواكب- في المستوى الكبير-؟ مستوى أيّ كائن حيّ لا يتجاوز مستوى شجرة السيكوا، فهل للحياة علاقة خفية بالحجم؟ وهل تجسّر، هي أيضًا وسطًا في سلم المقادير، بين مقادير الكوني ومقادير الجسيمات! لمَ ننفك نقيم سلَّم يعقوب، ذلك السلَّم الذي رآه يعقوب ممتدًا إلى السماء في أثناء هروبه من أخيه كما جاء في التوراة، وهو جزء من أحلامنا الراقدة كي نرقى نحو إله لا يمكن تمثل عظمته. مهما بدت هذه المشاريع غير ذات معنى، ومهما بدت بطولية، بل وتنطوي على شيء من الغطرسة،، يبقى أنها تقيم جسرَ ابتهال.

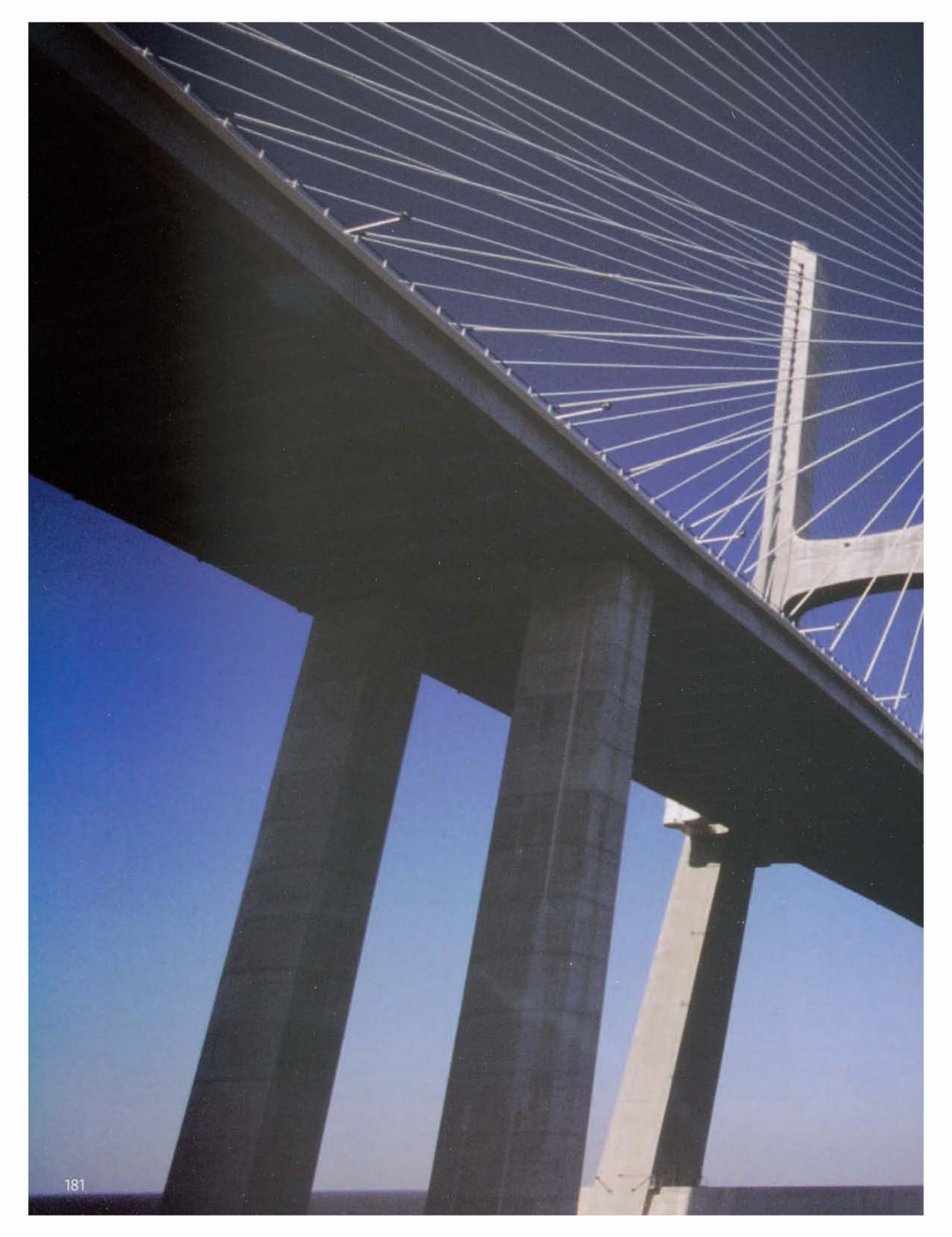
المجد لطوني السويسري Toni le Suisse: من الذي يتخفى وراء هذا الاسم؟ كان يبحث في أي مكان عن الأنابيب والكابلات والحبال، فيبني مجانًا جسورًا معلقة في الإكوادور وكولومبيا وجنوب شرق آسيا. إنه ملاك، ومرشد، هذا المجسّر للفقراء، يحمل على كتفه جبلًا عالميًا.

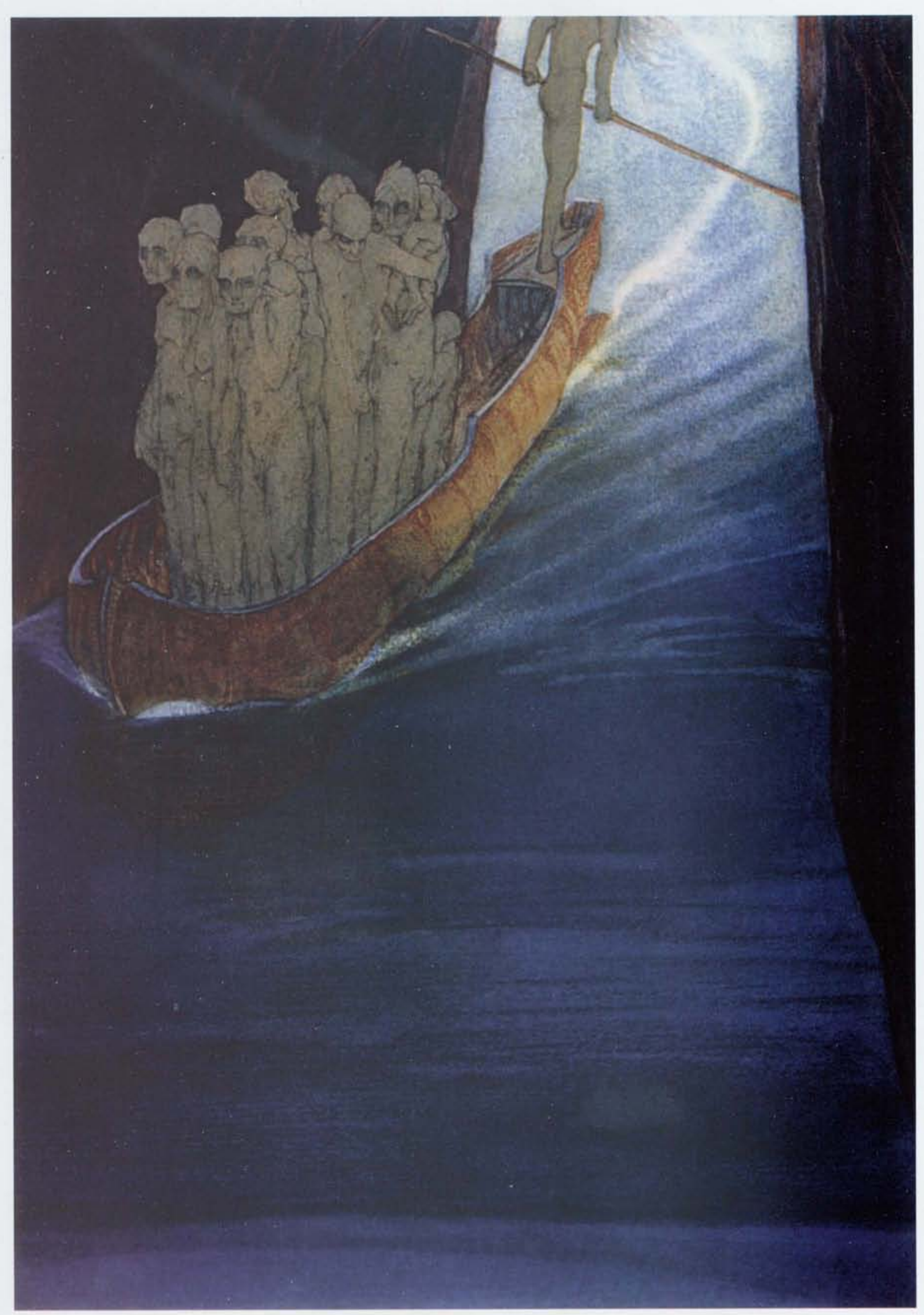
لاداك، 1990.



4- الجسور المقدسة







أوتو هانز بيير، توفي اليوم، نقش سنة 1929 أرواحًا تمر من نهر النسيان. لا أحد سيتذكره، عندما تبلغ تلك الأرواح الشاطئ الآخر للجحيم. ومع ذلك، فإذا ما تأملنا صورته، فإننا سنذكره. فهل يجسّر الفن ماء النسيان، وهل يعبره عكسيًا؟

الصفحتان السابقتان: جسر فاسكو دو غاما، لشبونة، 1998.

خلود النفس

على طول طريقِ مَزارع نبات الخُرف، في قعر الحافة، يرقد قارب صغير. كانت سلسلة إبحاره المربوطة بالمقعد الخلفي، غارقة في الماء مغروسة في الوحل اللين، مشدودة من جانبها الآخر إلى شجرة صفصاف بواسطة قفل. من هنا حيث أنا، أتمكن من رؤية ضبابية للضفة المواجهة. لن أبلُغها قط. لمن هذا القارب الصغير الأسود ذو الهيكل الهشّ الذي يرشح؟ هل هو لأبي، أم لأخي... وهل يحقّ لي أن أركبه؟ كان قد غرق بفعل المياه القوية لفصل الربيع، جعلتْه يطفو هذا الصيف، وانتهيتُ للتوّ من جذب الحبل الذي يربطه، وشدِّه إلى شجرة البلوط أو الصفصاف. لا أعرف إلاّهُ، ولا أرى إلاّهُ، لماذا يعود دومًا إلى ذاكرتي، وأحلامي، وعبر دموعي؟

بفضله، وتحت طلقات التتار، أعبر، أنا ميشيل ستروغوف Michel Strogoff، الأعمى، أنهار سيبيريا العظيمة، نهر أوب Ob وآينيسي Ienisseï، بصحبة نادية، محبوبتي. هاجمني قاطعا طُرُق، ودفعاني خارجه في مياه الأمازون، عرضة لأسماك الضاري المفترسة. استلقيتُ أسفل القارب، أنا العبد الهارب من سيده، وتابعت تيار المسيسيبي المجنون، في الوسط، من غير أن أتبيّن شطآنه. مع أخي كلود، شبه توأمي، مَن يا ترى وَجدَنا على حصى قاحلٍ بعيدًا عند ذراع نهر الجارون، أو النيل أو التيبر؟ أمام هذا الزورق يخطب دون كيخوتي على الامتدادات الكونية، بينما كنّا نقهقه، سانشوبانشا وأنا... عند فيضانات 1930، تخطّت والدتي، وكانت وقتها حاملًا بي، نافذة في الطابق الأول للمنزل الذي غمرته المياه، من هو ذاك الرجل، الذي لا أعرفه، والذي ساعدَها على الحفاظ على توازنها وامتطاء القارب ليأخذها نحو وضع مولودها؟ أنتظر الآن أن أبحر على متن قارب مماثل، وخارون Charon مجدّفًا، وأنا أحمل مشعلًا في يدي الأخرى، نحو شطآن النسيان.

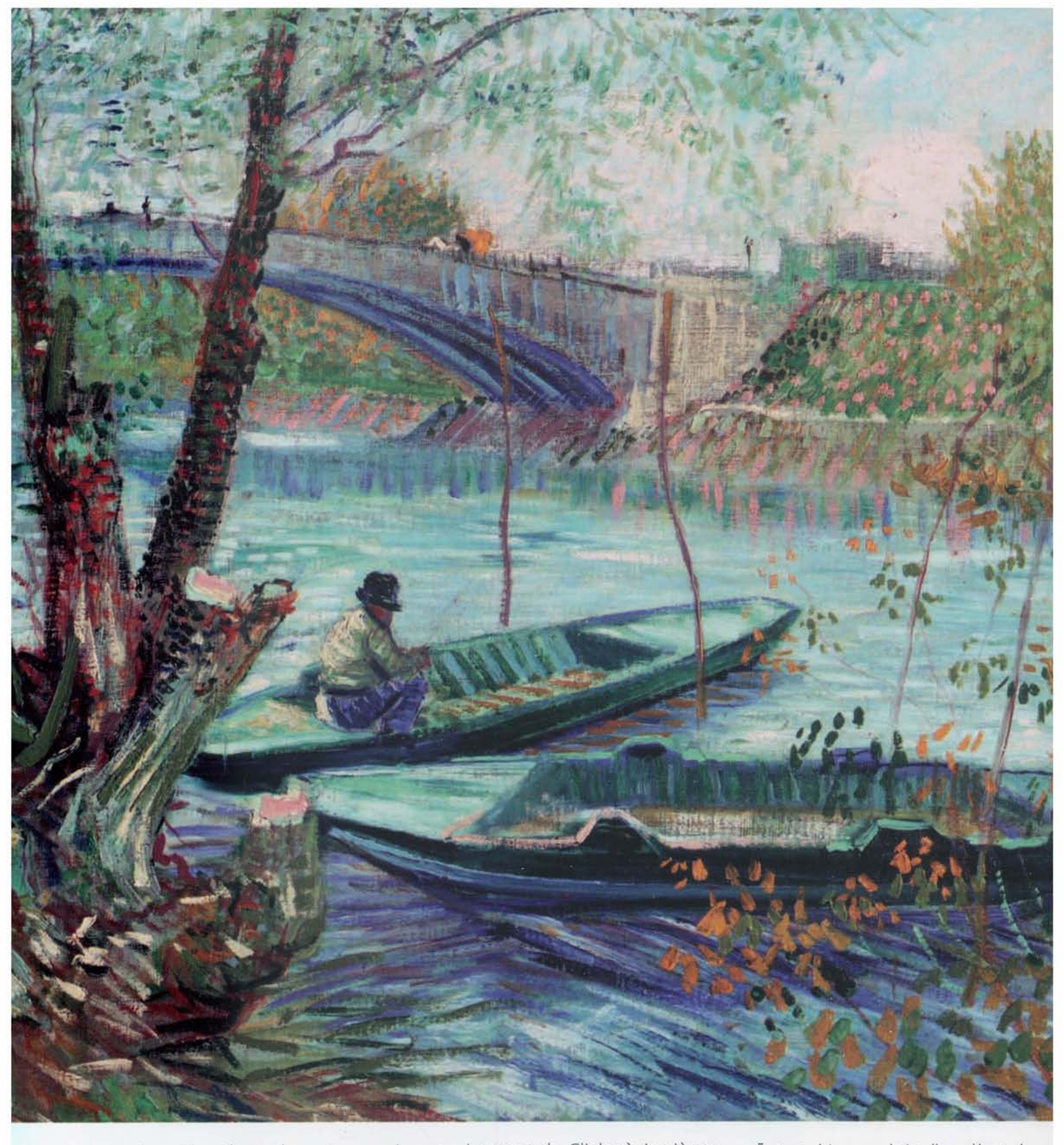
لم أتمكن قط من فراق هذا القارب. عليه ولدت، وعليه سأموت،
عليه أنزوي، وفيه أقطن وأنام، أحلم وأفكر، أعمل وأستريح. من كل
جانب، تتنقل الشطآن، العالم كله يدور من حوله، الجميع
يعتقد أنني أسافر، بينما قاربي وحده هو الذي يلتقي، ويعبر،
ويستكشف، ويتجرأ على الحركة. عرفتْ سفينتي عشرة
بحار وألف شاطئ، في حين أنني لم أعرف إلا هي.
ينقلني محركُها ساكنًا، هو يتجول، وأنا
أبقى، هو يفقد التوازن، وأنا
أظل ثابتًا.

يقال إن الأثينيين القدماء كانوا يقومون بإصلاح لا يتوقف لقاربثيسيوس Thésée الذي اقترضه البطل كي يجري في جزيرة كريت Crète، لملاحقة مينوتور Minotaure، كي يقتله داخل المتاهة، منقذًا بذلك من الموت أبناء مدينته وبناتها الذين كان الأب-الثور le Taureau-Père يلتهمهم. للإبقاء على ذلك القارب، شفقةً، كانوا يغيّرون القِطع التي يُتلفها الزمن من تبطين للقعر وعارضة وداعمة وأشرعة وعتاد... ماذا تبقى منه عندما تجدد العتاد على هذا النحو؟ رغم جِدته، فإنهم كانوا يقدسونه تحت اسم قارب ثيسيوس. كلما جددوه، ازداد تقديسهم له. وكلما تبدّل، احتفظوا له بالاسم نفسه.

في الديانة والتراث اللذين يمكنهما أن يقولا مثل هذه الأمور العجيبة، يوجد الملاحون الجديرون بهذا الاسم: نعم، لا يعرف القاربُ كيف يُبحر إلا لأنه يتأرجح ويتذبذب، كلما تخرب مركب الصياد، قاوم الزمن وسوء أحوال الطقس. التمايلُ يضمن الاستقرار. والسوائل تعرف التثبيت. بما أنها متذبذبة، فوحدها الزوارق غير المستقرة يمكنها أن تضمن الخلود القار للآلهة والنفوس.

وهكذا، فعندما يتمايل بي قاربي، فإنه يظل قائمًا فوق البحر. بما أنه ثابت من شدّة تحوّله، فقد استمر في العيش، ونجا في خضمّ حياتي المضطربة التي قاربت الموت عشر مرات. لقد غرق مرات عديدة. كيف أمكنني أن أسبح من دونه؟ بعد غرقه الذي كان مأساويًا في أغلب الأحيان، تمكّنت من أن أجعله يطفو من جديد. فهل أستطيع ذلك على الدوام؟ ما زلت أذكر أنه عندما عاد للظهور، مثل طيف شبح، تحت كفنه المائي المظلم، وهو يقطر، تحت صرير الروافع وتحت الصافرات التي تنذر بالرفع، كيف وُلِدَت من جديد صواريه وكيف عاد تبطين قعره إلى الحياة.

لقد عشت عودة جسوري إلى الحياة.



عمل فني للنور والتشكيل، جسر كليشي في آسنيير Le pont de Clichy à Asnières، يشهد على عصرٍ مضى: صامت ومائي، عذب وريفي، ملطخ ومتناغم، زيتي ومتلون. يا فرنسا الحلوة، ما هذه الطبقة المهيمنة اللامثقفة قُدّرت لك؟

فانسان فان غوغ: الصيد في فصل الربيع.

Pêche au printemps, le pont de Clichy à Asnières, Vincent van Gogh, 1887.

ماذا حدث في قرية نيبوموك Nepomuk، ببوهيميا الغربية Bohême occidentale حوالي سنة 1340؟

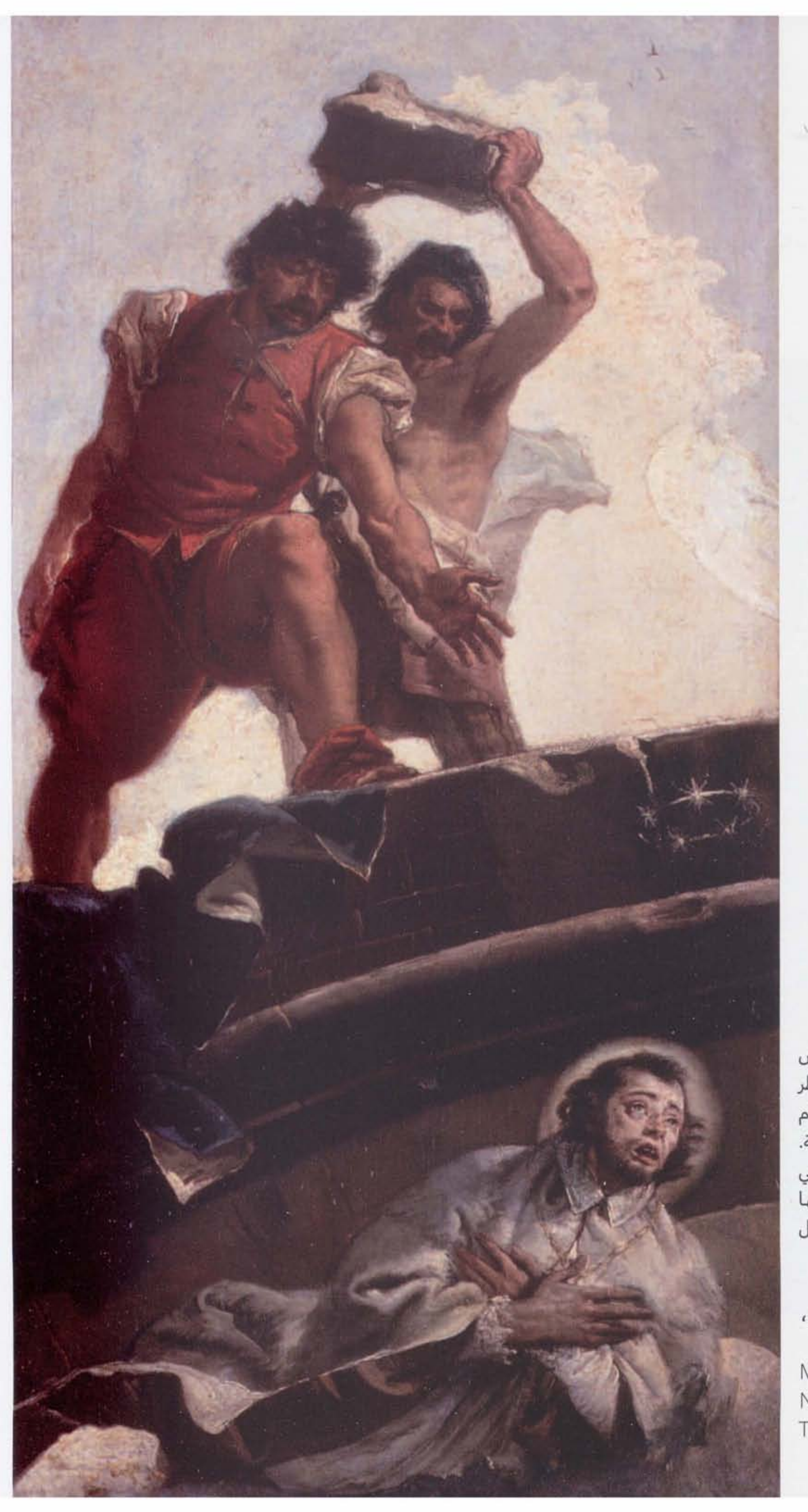
مثل جدتي، أحب الاطلاع على حياة القديسين، التي تعوّضنا عن الأساطير القديمة البغيضة. ماذا كنا لنفعل في حيواتنا الرتيبة لولا هذه الحكايات من أجل الأطفال، وهذه الأحلام من أجل الكبار، ولولا المنجزات العسيرة التي يضعها المؤرخون موضع شك، باسم حقيقة تكون من الهشاشة بحيث إن الجيل الذي يأتي فيما بعد سرعان ما يفندها عن طريق أطروحة لا تقتضي كبير عناء؟

ألن تسخروا، مثلي، عندما تعلمون ما إذا كان القديس يوحنا نيبوموسين Népomucène، المعترف به كراعي الجسور، قد وُجد بالفعل أم لا، وُلد أم لا، هل هو تشيكي أم لا، أواسط القرن الرابع عشر، في وقت لاحق أم في وقت سابق، في قرية نيبوموك Nepomuk، التي لم ولن أزورها قط، وما إذا كان يصنع معجزات أم لا، وما إذا كان الملك فنسيسلاس الرابع Venceslas، قد أمر برميه أم لا في نهر فيتافا Vitava أو مولدو Moldau، كي يموت غرقًا لكونه لم يُرِدْ أن يكشف له أمْ لا، السر الذي باحت له به الملكة زوجته في أثناء اعترافها.

أمارس العقلانية، وأحب الوضوح في المعرفة والسياسة والطب، ونظافتي الشخصية وعلاقاتي بالعالم والآخرين. لكن، لكي أضفي سحرًا على حياتي الوجيزة، أحب أن تُحكى لي الحكايات، وأفضّل، في بعض الأحيان أن أحكي أنا. ألا تجدون أن السّرد، والمعاني والجمال الحيّ أكثر منفعة لحياتنا من هذا النوع، ذي المدخلين، الخطأ والحقيقة؟

بالله عليكم: هل يمكننا أن نفكّر في الحجارة من دون لحم، وأن نتصور جسرًا من غير جسم، وأن نرسم فن الجسور من غير أن نبجّل نموذجًا راعيًا، هل يمكننا أن نبني جسرًا pont من غير رجل دين pontife؟

الإنسان ابن جُسور.



تستعيد حياة القديسين في بعض الأحيـان -لـكـن، مـن وجـهـة نظر الضحية- مشاهد وثنية -هنا إعدام ورجم- تنتقدها ديانتهم التوحيدية. بالنسبة للإيمان العقلي، هل ينبغي رفـض تـلـك المـشـاهـد؟ أم قبولها أنثروبولوجيًا؟ البروتستانتي يختار الحل الأول، والكاثوليكي الحل الآخر.

شهيد القديس جان نيبوموسين، تيبولو، 1750.
Martyre de saint Jean Népomucène, Tiepolo, 1750.



من أين أتينا؟
هناك من يقول من
الماجدالينيان، عشرة
آلاف سنة قبل الميلاد؟ وهناك
من يرى: من قعر مغارة الإخوان
الثلاثة في آرييج؟ آخرون يقولون من
تجسير، وتحوّل بطيء؟ الأنسنة لم تكتمل
إلى اليوم، وهي تنظر إلينا في حالة ذهول.

الجسر الفلكي لميلاد الإنسان

إنّ كيتزالكواتل Quetzalcóatl ثعبان له ريش ووجهُ عجوز، هل يعبّر، قبل النزعات الداروينية، عن الفكرة القائلة إن الطيور صدرت عن الزواحف، وإن الكائن العارف تطور لاحقًا؟ هل يخلط هذا الوهم في جسر واحد حسابَ الزمن للأنواع كلها؟ هل يقيم الهرم المكسيكي على هذا النحو جدولًا زمنيًا، وخلاصةً للتطور؟ هل يبين هذا الانبثاق العمودي للكائنات التي تعمّر طويلًا، هنا في تينوتشتيتلان Tenochtitlán، أن الحضارات التي قضينا عليها كانت تعرف تطوُّر الحياة أفضل منا وقبلنا؟

ها هو الثور نائم ملقى على بطنه، وأرجله منثنية، كيف يمكن أن يكون لهذا الحيوان الأرضي، هو كذلك، رأس بطريرك ملتحٍ؟ وبجناحين ينبتان على ظهره، يمكنه أن يطير، بالتدرّج، نحو المعبد، ويتخطى عتبته، فيتسلق نحو القداس، ويصلي، فيتحوّل كائنًا عارفًا أو حكيمًا. اذهب إلى القداس Introibo ad altare Dei. أمام أبراج بلاد ما بين النهرين، يجسّر الكاروبيم kéroub، جدّ الكائنات القدسية التي تمزج أجسادها بين أجساد الأسد والثور والطائر والإنسان، وهو كذلك طائر وإنسان وتمثال ذو أربعة أرجل، يجسّر، في وضعية الجماد نفسها، التطورَ ذاته: للانتقال من الحوافر إلى التفكير، ينبغي أن يكون هناك جناحان على الأقل. لتحويل البقر إلى حكيم متأمل، ينبغي المرور عبر النسر. حينئذ، وعلى غرار ذلك الجدّ، سنذهب، أنتم وأنا، تحملنا الرياح فوق بابه، إلى معبده لعبادة الكائن السرمدي. بما أن هذا الوهم يحرس، هو كذلك، مدخل مكان مقدس، فنحن لم نتردد قديمًا، ولن نتردد قط في تفحص معناه عن طريق الصور والتأويلات والرموز... الدينية. وعلى رغم ذلك، فقد كنا نتكلم من غير تمحيص عن عبادة الأصنام وتعدّد الآلهة مثلما هو الأمر في حالة كيتزالكواتل Quetzalcóatl. فهل كنا نعرف بكامل الوضوح ما نقوله؟

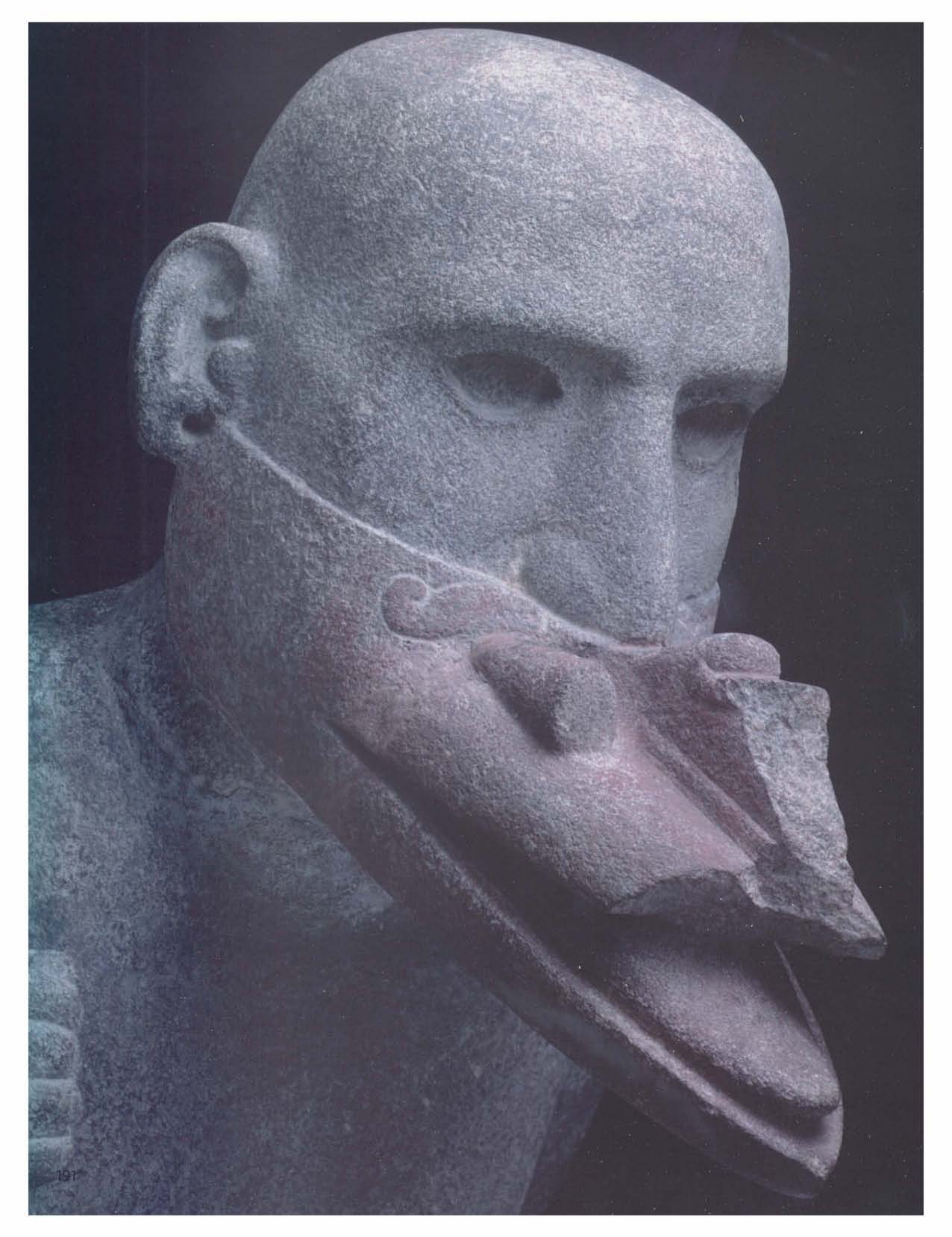
يذكرنا هذان التمثيلان، حديثا العهد، بفن جداريّ أكثر قدمًا: في الحقبة الأولى من العصر الحجري القديم، منذ حوالي عشرين ألف سنة، يحمل ساحر مغارة الإخوة الثلاثة Trois-Frères في آرييج Ariège في فرنسا، رأس أيل. وفي لاسكو رسَم إنسان الكرومانيون Cro-Magnons في مشهد الآبار، جسمًا آخر للإنسان ذا رأس ومنقار طائر. أما نقوش جنوب إفريقيا التي تمثل أجسامًا ثنائية مشابهة، نصفها بشري وآخر حيواني، فتعود إلى ما يقرب من ثلاثين ألف عام. بالتأكيد، نحن لا نعرف كيف نؤوّل هذه الألغاز، وما إذا كانت رموزًا أم شعائر؟ ولكن، هل نفهم فهمًا أحسن المكسيك أم الآشوريين؟

لنتخذ المنظور العاكس: فبدلًا من أن نقول إن ديانة ما، صنمية، تعددية، أو وثنية تعبد هذه الأخلاط من الحيوانات والبشر، وتُبجّلهم، وتصلي من أجلهم -أقول من جديد وأكرّر، من يفهم حقًّا هذه الأقوال؟- أذهبُ إلى القول بأن الأمر يتعلق بتحوُّل الحيوان إلى إنسان، وبأن مسلسل الأنسنة هذا يمرّ عبر الديني. أنا هنا أقرأ التأويل المعهود لأعطيَه معنىً آخر. أستعيد، حرفيًّا تقريبًا، أحد أواخر حكايات النزعة الإنسانية Récits d'humanisme. نسيت أن أقول إن الصنم، باعتباره حلول صورة مكان أخرى، فهو يقيم جسرًا.

لا يمكنك أن تشعر بما يسمى رعبًا مقدسًا أحسن مما تشعر به في متاحف المكسيك، في ذكرى التقتيل البشري الذي مارسه الأزتيك. ما من شك أننا نخفي عن أنفسنا تقتيل عصرنا القديم، ونطلق اسمًا آخر على التقتيل الراهن. لكن كيف لا يستطيع الضابط الذي يلبس جلد الضحية التي أتى على تصفيتها ألا يتقيأ؟ لنفترض أن الشعيرة تضحي بحيوان؟ فهل سيلبس جثته حينئذ؟ أخمن هنا الأصل خارج-الدارويني للباس: عن طريق الاستعانة بمصادر خارجية للريش والجلد. حوالي 1500.

هل تُبجّل الصنمية الأوهام؟ بما أنني لا أفهم هذا السؤال، وأعجز عن الجواب، أفضّل أن أقول إن هذه الديانة قد تسمح بالتجسير بين الحيوان والإنساني. بالفعل، فهذه الأصنام لا تحرس مؤسسة سياسية أو قانونية أو مسرحية، ولا هي تُتوّجها، وإنما تحرس بناءً يُعطي فيه القُدسي معنى للأفعال والتصرّفات. من يدخل مغارة لاسكو Lascaux سرعان ما يشعر بالتحوّل الذي يُحدثه المعبد المبجّل لديانة مجهولة: ما زال بعض علماء الحفريات يطلقون عليها كنيسة سيكستين Sixtine لما قبل التاريخ. هل يقود هذا التحوّلُ، الذي يُمثّل هنا، نحو التقوى؟ العكس هو الصحيح، فإن هذه التقوى تصبح هي أداة التحوّل ومُحرّكه وشرطَ حدوثه.

نعم، يكسو الريش الثعبان، قبل أن يتأنسن هذا الطائر الفقري، ويصبح الثور نسرًا كي يتأنسن رباعي الأرجل الثدي. وهذان التحولان لا يحدثان إلا هنا فوق معبد أو أمامه أو داخله. إنهما لا يتّجهان نحو المقدس، بل المقدس هو الذي يجعلهما ممكنين. لولا الديني، فإن الجسر التطوري من الحيوان إلى الإنسان ما كان له أن يتمّ. نعرف هذا على الأقل منذ إنسان الكرو-مانيون Cro-Magnon.



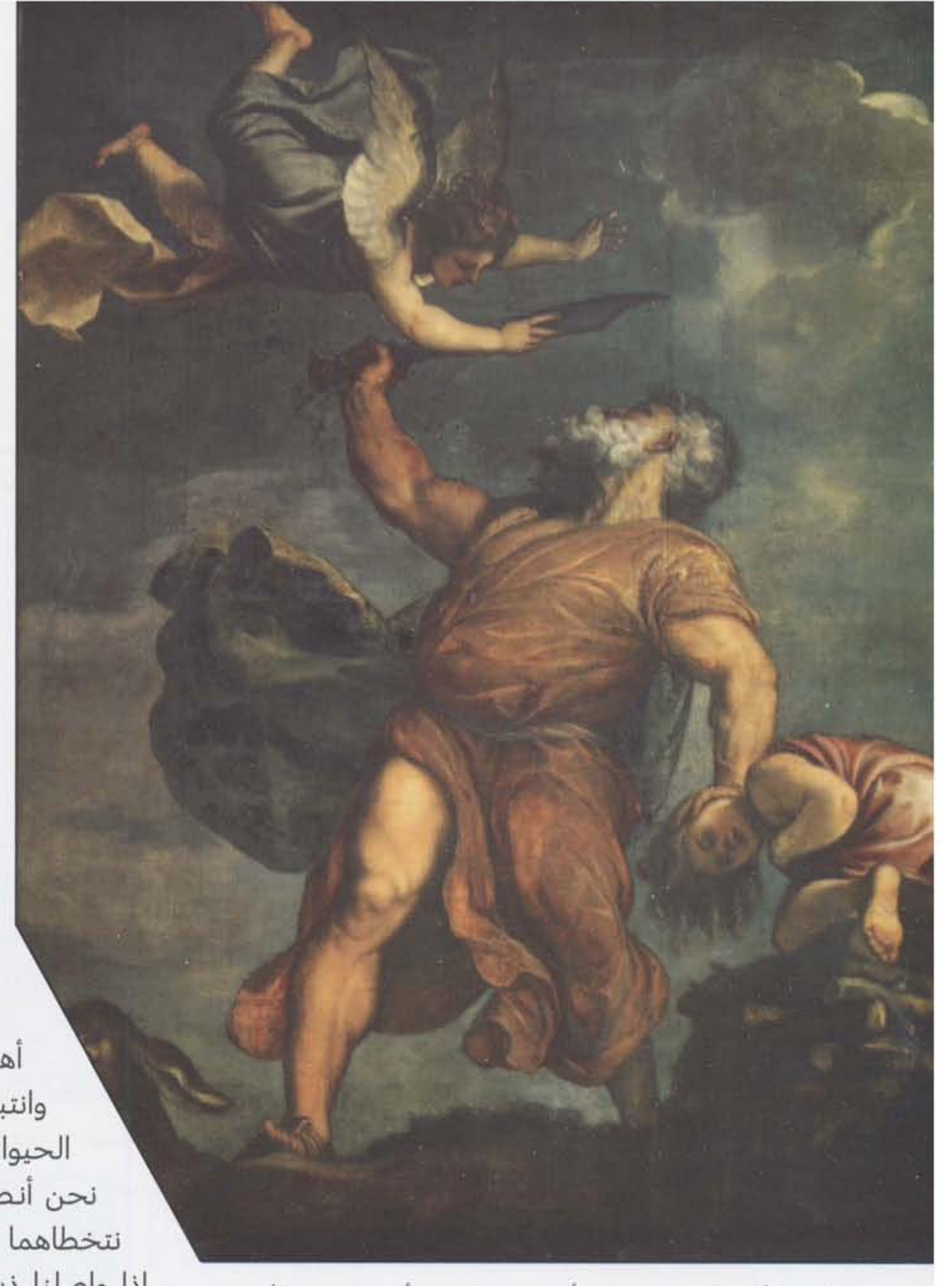
على أيّة حال، فهذا هو النموذج المجسد، الواقعي والعيني، التمثال الذي لا يتحرك، لمسلسل الأنسنة: نعم إنه تجسيرنا الأول. تتطور هذه الحيوانات نحو رؤوسها. ما الذي جعل هذا التحوُّل نحو البشريات ممكنًا؟ إنه الديني. لقد تم الالتحام-التحول أمام الهرمين، وحدث حلول صورة مكان أخرى في ظلام كهوف آرييج Ariège أو لاسكو Lascaux. حمل الجناحان الثور إلى المعبد حيث أصبح رباعي الأرجل عجوزًا. وحمل الريش الكيتزالكواتل نحو مكان مقدس حيث استقام الحيوان الثعبان إنسانًا. قاد الطيران الحيوانين الأرضيين إلى أن يعتليا درجات، ويركعا أمام المعبد، نحو شعائر الصلوات. وفي نهاية التعبّد، تمكّن الحيوان من أن يفكر ويتأمل. الديني يُولِّد الأنسنة، أو على الأقل، يعمل لصالحها.

في الغرب كما في الشرق ترتقي الأهرام والمعابد وسلالم الولوج والتماثيل، في استقلال عن بعضها، عموديًا بهدف تخليد أكبر حدث عرفه هذا الكوكب. كيف يتحول ثور أو ثعبان أو طائر أو نسر أو أيل فجأة نحو الكائن العارف؟ عبر جسر الديني.

كلا، لم يكشف لغز "أم الهول" sphinge عن أسراره بعد. ها هو نصف الجواب الذي نستخلصه من فحصه: تقول الحكاية، بعد القرار المزعوم، أقدَم هذا الشبح على الانتحار، وانصرف أوديب إلى مصيره. لا ننفك نردد بلا تعقل كلمة إنسان، من بعده، معتقدين أننا أجبنا مثله عن السؤال. إنه عين الخطأ، لأن الرقم النهائي للّغز يَمثُل في زخم السرد الذي ينتقل من الحيوان الذي يضع السؤال، والذي هو نصف آدمي، إلا أنه قريب من الاحتضار، نحو هذا الكائن الذي ينجو من الموت، فينطلق من جديد. كيف نصف هذا الانتقال من الموت الحيواني نحو انطلاقة آدمية صرف، اللهم إلا كونه تحررًا لنصفنا الحيواني... أو لنقل إنه الأنسنة؟ تتشبّه حكاية لقاء أوديب بأم الهول بصدور الإنسان عن الحيوان، وترويه وترمز إليه، وتوجزه وتخلده. وحش مفعم بالأمل Hopeful monster. يبني أوديب الظهور الأول للجسر بين الحيوان والإنسان. إنه رأس الجسر حقًّا. وها هو الشطر الثاني للّغز: الديني يغلف هذه الحكاية الأسطورية. على الأقل شكلٌ من أشكال الديني، وهو شديد القِدم، والموت لا يفارقه.

إن الديانة، باعتبارها مُولدة لأنسنة لم تنفك عن التحقق، فهي تُوفر لها الشروط العامة المتواصلة. فهل هي التي تكمن من وراء كل تحوّل وكل تشعّب وكل جواز؟ لست أدري، إلا أن هذه الأوهام تُظهر الكشف التدريجي والشاق لقوانين التطور. ونحن لم نستطع الانفلات منها إلا مقابل شروط باهظة. بما أن الآدمي ينبثق ببطء، فهو يظل عالقًا بالحيوان. وبكل أسف، ما زلنا نشبه أم الهول، والثعبان المكسوّ بالرّيش، والثور-الكاروبيم، ما زلنا نشبه الحيوانات التي تتكلم في الخرافة، وهذه الأحياء ذوات القرون أو ذوات منقار الطير التي رُسمت في عهد الكهوف والمغارات... نشبهها أكثر مما نشبه بطل الملاحم الإغريقية القديمة.

لا يجسّر الدينيّ البشريّ والإلهيّ فحسب، وإنما يقوم بتجسير ثلاثي ذئب-إنسان-إله، لأن الإنسان لا يفتأ يمرّ من حالة الذئب إلى الإنسان، إلى حالة الإله إلى الإنسان. إنه لا يفتأ يمدُّ الجسورَ بين الملاك والحيوان، لا يتوقف عن العبور بين هذا وذاك.



مزيدٌ من الأنسنة: يتصور تيتيان أن جسد إبراهيم، أبينا، يجسر بالأيدي والأرجل، ملاك الرب بابنه، من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه يجسر الملاك نفسه بالحيوان. لمس في الأسفل وإصغاء في الأعلى.

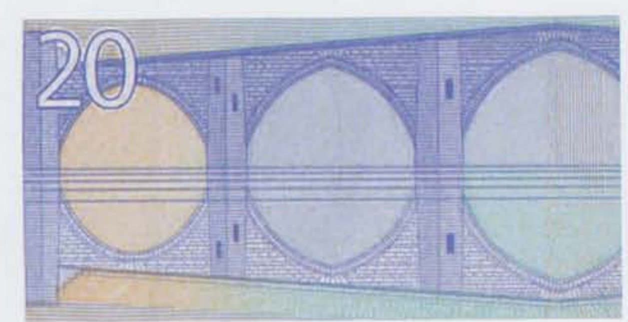
أضحية إبراهيم.
Sacrifice d'Abraham, Tiziano Vecellio (1488-1576), église Santa Maria della Salute, Venise.

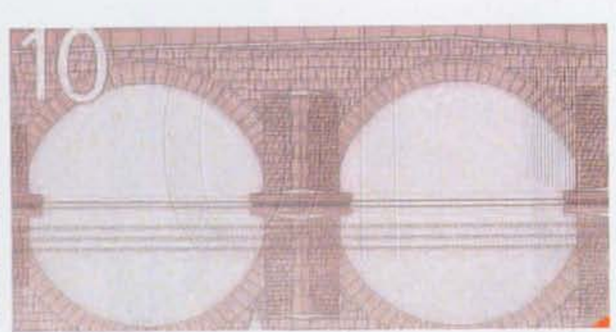
وفق القراءة التوراتية، ارتقى إبراهيم الجبل كي يضحي بابنه إسحاق طاعةً للإله. في اللحظة التي رفع فيها الأب ذراعه، عين ملاك الرب ذبحًا يتشابك قرناه في فروع الأدغال القريبة. لاحظوا المشهد، لا شكّ أنه يضاهي المشهد السابق أهميةً في سياق التطور نحو الأنسنة، وانتبهوا لدور إبراهيم بوصفه جسرًا بين الحيوان في الدنيا، ونبي الله في السماء. نحن أنصاف حيوانات، وأنصاف ملائكة، نتخطاهما معًا. سنبقى جزارين أو أكباشًا، إذا واصلنا ذبح أبنائنا، كما فعلنا. يوجد بلعام Balaam، وهو يعلو ظهر أتانه، وهي تهرول، وهو لا يبصر الملاك أمامه، يوجد في الوضعية نفسها لرجل الدين pontife. تصدر الأنسنة عن هذا الجسر pont. الإنسان وليد الجسور والديانات Homo ex ponte.

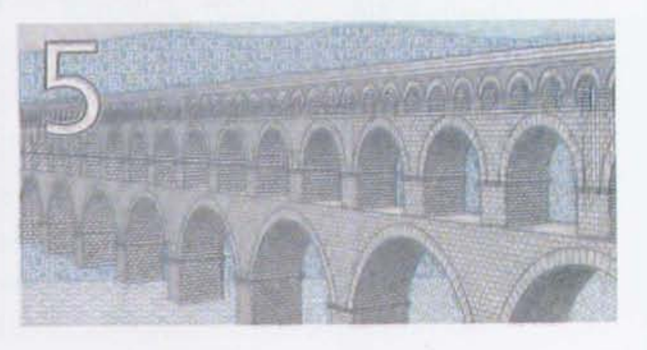
ما تثبّته الرسوم والمنحوتات في صور وتماثيل، يجعله سفر التكوين هنا يتحرك في حكايات توضّح كيف تحل صورة الأصنام-الجسور مكان أخرى. ومن جديد، فهي تروي الأنسنة في السياق الديني. وبصفة عامة، ألا ترمي الأضحية إلى أن تقول، بطريقة ما، إننا نقتل الحيوان الذي يسكن كلّ واحد منا، أو يسكن النّخن الجماعي، بهدف بلوغ الإنسان، ومن جديد، في سياق ديني؟

جسر المسيح في أوروبا



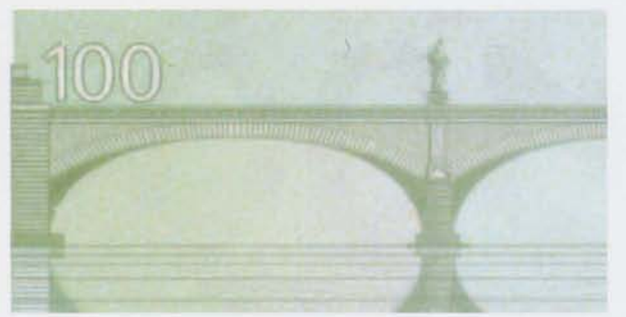






لقد فقدنا جميعُنا جسرَ الروحانيات. نحن قاعدون على شاطئ الدنيا، لا نرى الشاطئ المواجه إلا عبر ضباب كثيف. إننا نعيش متخمين مثقلين بالثروات والسرعة المبتذلة، منقطعين عن الضفة الأخرى التي لم نعد نعرف عنها شيئًا. من يا ترى سيُعيد بناء هذا الجسر؟ أنا المسيحي، أذكر إنسانًا-إلهًا، أحنّ إليه أشد الحنين، قد قوّمَته طبيعتاه أحسن تقويم.

على خرائط أوروبا، التاريخية واللغوية، تتبدل الحدود حسب الأزمنة، حسب الدول العظمى القائمة، روما أو إسبانيا، وحسب الثروات القديمة للتجارة أو الغطرسات الجديدة للأمم، وحسب إشعاع المدن والموانئ، والصراعات الماضية التي خلّفت ملايين القتلى. ترسم مشكالات kaléidoscopes عديدة على تلك الخرائط، صفحةً صفحة، أنظمةً سياسية، ومناخًا، ومواد أولية، وعائلات لغوية، وحضارات تتمخض عن عادات متمايزة. مجزأة على هذا النحو، هل يُخفي هذا الرأس الضيق عند الطرف الغربي لأوراسيا، نوعًا من الوحدة، خلف هذه المظاهر الملونة؟ نسعى اليوم بالضبط إلى لمّ هذا الشتات، وجمع هذا التباين كي لا نفرض على أحفادنا الخوض من جديد في انتحارٍ ذي جذورٍ ضاربةٍ في القدم.





هكذا نرسم جسورًا مجردة على القصاصات الرمزية لأوراق اليورو النقدية، العملة الموحدة لأوروبا: إنه لحدس رائع، رغم كونه مجرد عمل شكلي، أن تعمل هذه الجسور النقدية وحدها على توحيد أوروبا القديمة، وقد مُزقت منذ فترة طويلة. نعم، ما زلت أبكي كل مرة أعبر فيها نهر الراين، من شدة الانفعال والفخر: أنتمي إلى الجيل الذي وقّع معاهدة سلم الجسور، التي مرّ عليها زمن طويل.

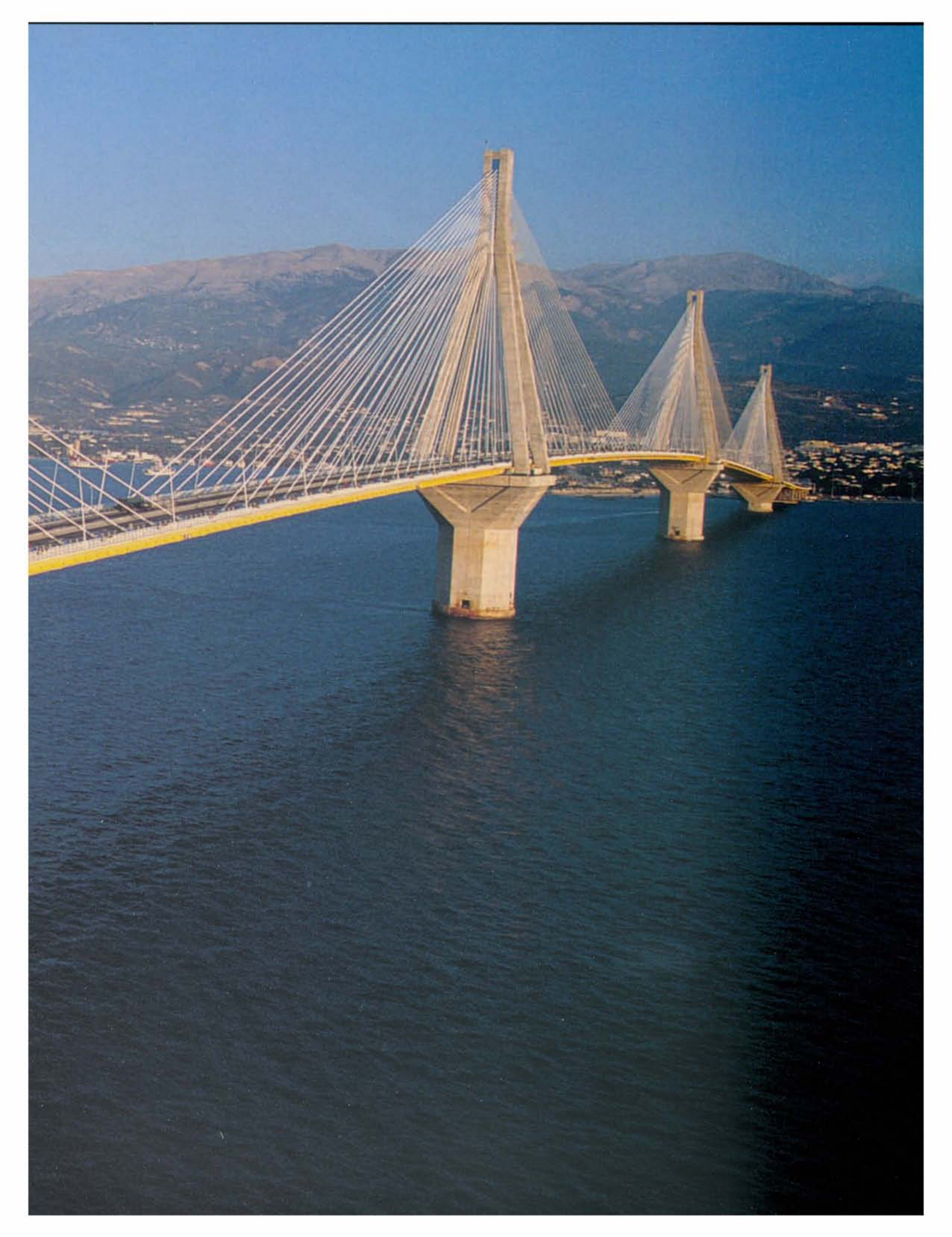


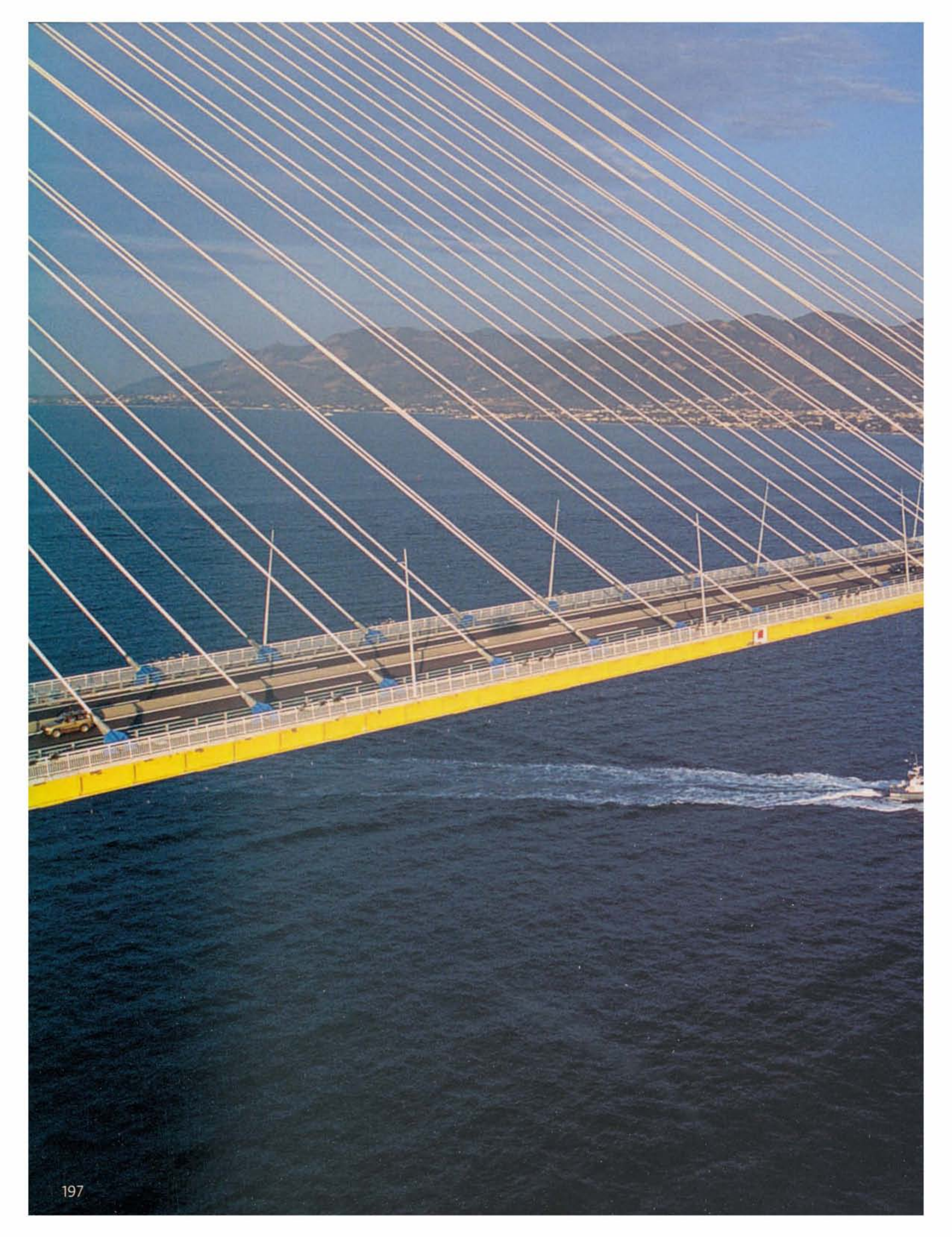
تتزين الأوراق النقدية لليورو بالجسور. هل يرمي ذلك إلى توحيد البلدان الأوروبية؟ أم للدلالة على أن المال، المكافئ العام، يجسر كل ما هو موجود؟ لنسخر من وقاحته البليدة: أقدم الجسور تظهر في الأوراق الضعيفة القيمة، والجسور الحديثة على الأوراق النقدية ذات القيمة، كما لو أن تقدم التاريخ يمكن أن يحسب بالأرقام! ما زال هناك بعض الديناصورات الذين يفكرون على هذا النحو، فيرغبون في أن يثقلوا، عن طريق هذه الفكرة البليدة، جيب كل منا وبالتالي رأسه.

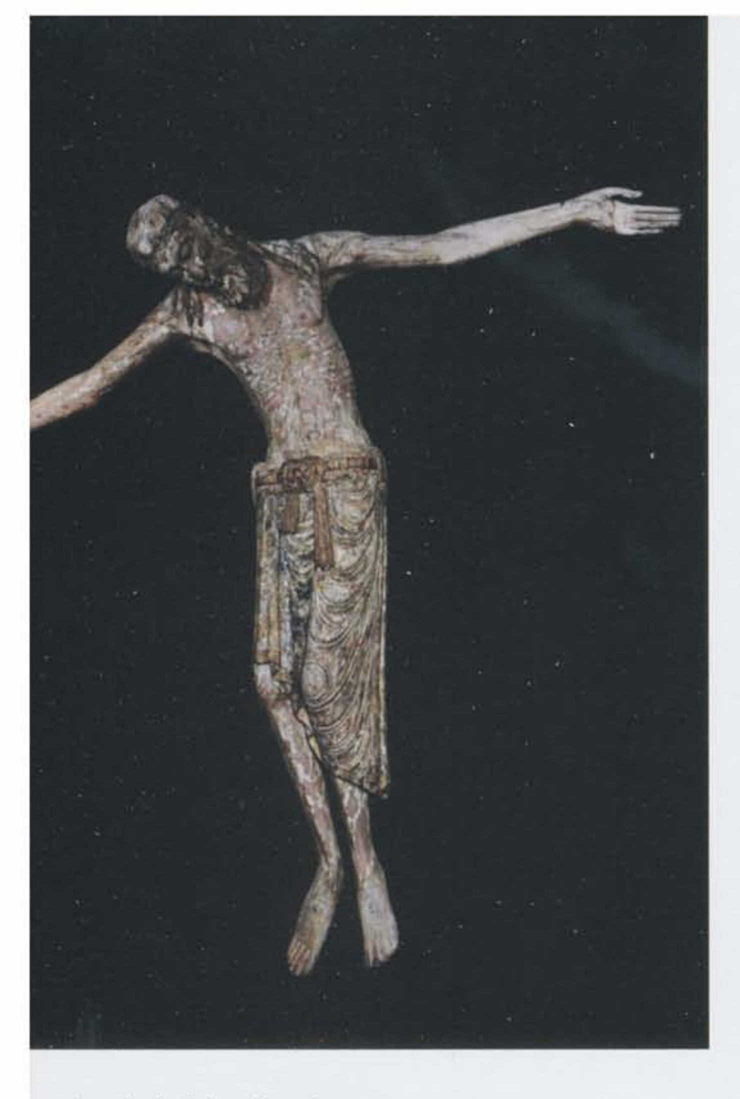
الصفحتان التاليتان: جسر ريون-أنتيريون، 2004.

فهل نفكر في التمزقات التي ينبغي رتقها؟ هل نرغب أن تتقارب الدول متحدية المنازعات، وأن تتفاعل الثقافات التي لا صلة بينها، وأن يتلاقى الرجال والنساء المشتتون، والأرواح المبعثرة؟ بما أننا محدودو الأذهان بالزمن التاريخي، فإننا نسعى إلى محو الحدود، وربط علاقات بين حكومات، وتوحيد سياسات. وبما أننا أكثر حيوية وثقافة، فنحن نترجم لغات: إيطالية وإسبانية، وفرنسية، وألمانية، وروسية، وتشيكية، وكرواتية، وبلغارية، وبولونية، وهنغارية، وفنلندية... وبما أننا أيضًا أكثر انفتاحًا، فنحن نؤلف بينها ونضمها في عائلات: لاتينية، جرمانية، سلافية، فينية-أوغرية، هندُ-أوروبية أو لا نضمها... لكن، خلف مظهر الخرائط المغري، وهذه الأطالس، وخلف ضجيج العمق لبرج بابل، هذا الذي يسير في طريق الاختزال، نكاد نُلقي إلى غياهب النسيان بالانشقاقات والبدع التي يكفي ذكر أسمائها كي نتبين الانشطارات والقطيعات، وهي خيارات وتشعبات غارقة في القدم إلى حد أننا ما زلنا نحملها في صمتِ أجسادنا الممزقة التي فقدت ذاكرتها.

منذ أكثر من ألف عام، لحظة حدوث التفرقة الكبرى، انفصل الغرب الأوروبي عن مشرقه، الذي كان يدعى كذلك من طرف روما، على إثر نزاعات مذهبية يقول الفقهاء إنها لم تكن تعني إلا السلطات. أنا لم أعد أثق في كلامهم. في الحقيقة، كنا نتقاسم أعضاء المسيح، الإنسان-الإله ذي الطبيعة المزدوجة اللاهوتية والناسوتية كما نعتقد، نحن المسيحيين. لقد مزقنا إلهنا المشترك أجزاء. كنا معًا أصحاب بدعة، فغدونا من جانب لآخر، نقول بواحدية الطبيعة monophysites: احتفظ الغرب بالوجه الملائكي ليسوع، بينما احتفظ الشرق بوجهه الجسدي. في الحقيقة، إننا تقاسمنا جسد المسيح، الإلهي والبشري، وشطرناه قسمين، مثلما قسم آباء روما الأولى إلى مئة جزء جسدَ روميلوس الملكيَّ عند مستنقع الماعز. لقد كانت أوروبا ترقد وقتئذ أعضاء متناثرةً.







عن طريق الخط الواصل، فإن اسم يسوع-المسيح يجسّر اسمًا ساميًا مع آخر إغريقي، هند-أوروبي. اتحاد هاتين العائلتين الثقافيتين أمر نادر وخصب في نفس الوقت، وهو قد عمّر، دينيًا، أكثر من ألف سنة، واليوم، ينبعث في العلوم التي توحد الخوارزميات مع الهندسة.

Christ Courajod, XIIe siècle

لذا، فنحن لا نفكر هنا إلا في التاريخ، والمجتمع، والتقنية، ولا ننشغل إلا بالمادة والعمل، والثروة. ولا نعرف رسم الحدود إلا على أوراق نقدية. نخضع كل يوم لثلاثة إغراءات: الخبز، والقوة، والمجد. لقد صاح بذلك المحقق الكبير في الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي. وفي الحقيقة، فقد قطعنا الجسور مع أصدقائنا الأرثوذكسيين لكونهم مزقوا جسد يسوع. لم يتبقَّ لنا إلا نصف عالم، لم يتبق لدينا إلا نصف جسد. وجسدنا يحمل هذه القسمة. ملايين من الأشخاص لا يفكرون، في هذا الغرب، إلا في عالم يدّعون أنه واقعي، إلا أنه يقتصر على الأكل والمال، وبعض الأمجاد الصغرى، السياسة، والاقتصاد، في حين أن ملايين أخرى في الشرق تكرس نفسها لعوالم أخرى وأحلام ومُثل عليا ينفر منها الغرب باعتبارها لاواقعية. وهكذا، فمن جانب لآخر، نحن المجروحون مثل المسيح المقطّع الأطراف، لا نجر إلا أنصاف بقايا لأنصاف وجود.

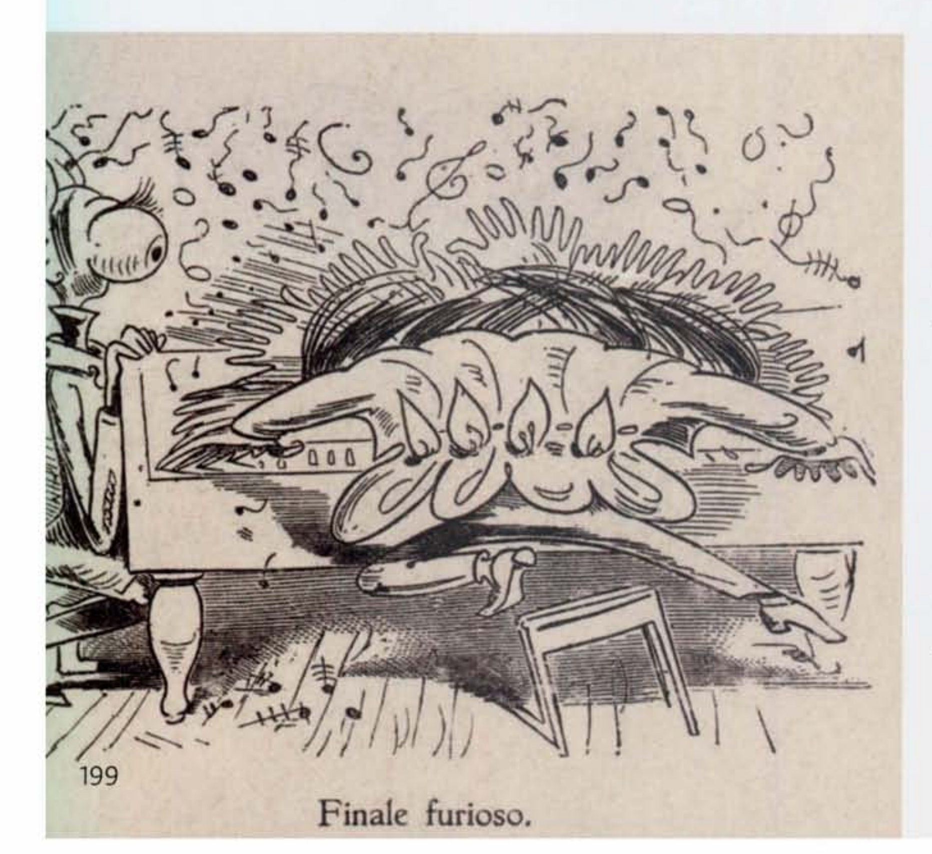
أما فيما يتعلق بعيد الإصلاح Réformation، فإنه قد قسّم، مجدّدًا، الرغيف، جزأين: من جديد جسد المسيح. بما أن الغرب بقي، منذ الانقسام، نصف مسيحي، فإنه تجزأ مهرطقًا من جانب لآخر. لقد نمّت أوروبا الشمالية التي أصبحت بروتستانتية، من الموانئ الهانزية إلى إسكتلندا، ومن لندن إلى جنيف، ثرواتها، ووسعت تجارتها، وراكمت رؤوس الأموال، لأنها أوّلت عشاء المسيح تأويلًا رمزيًا: العلامات تتداول أسرع مما تتنقّل البضائع. أما أوروبا الجنوب، فقد ظلت كاثوليكية، واختارت عقيدة الحضور الفعلي، ففضلت الواقعي على الافتراضي، والذهب على الأوراق النقدية، أو الأشياء على العلامات، فغدت، بالتالي، فقيرة مقارنةً بالأولى. وهكذا فقدَ البحر الأبيضُ المتوسط الغارقُ في النوم أمجادَه. وانقسم الغرب من جديد إلى نزعتين ماديتين، المادية الثقيلة والمادية الخفيفة، السريعة والبطيئة، الناعمة والصلبة. ومثلما قطع الانقسام القديم الجسر الذي أقامته الطبيعةُ المزدوجة للمسيح، فإن هذا الفصل الجديدَ فصَلَ الرغيف عن النبيذ، فأعاد قطع جسورِ جسده ودمه.

عندما أكتب، فإنني أشبه مؤلفًا موسيقيًا فاشلًا. فأنا يلزمني مترجمون، أما أنت، أيها العازف على آلة البيانو أو الطبل الصغير، فيمكنك أن تتقدم بكل غرابتك حيث تعزف للجميع.

من جديد قسمنا جسدَ المخلّص جزأين: شمالًا وجنوبًا، ربُع لكل نصيب، اعتبارًا بأن غرب أوروبا لم يكن ينال منه إلا النصف تاركًا النصف الآخر للأرثوذكسيين. وهكذا قسمنا أجسادنا أربعة أجزاء. عرفت الإمبراطورية الرومانية أسوارها، عند أفق السافا Save والدراف Drave والدانوب، إضافة إلى محور عمودي جهة الفيستول، لقد رسم صليب المسيح أربعة أحياء للإمبراطورية المسيحية. إن أوروبا التي تريد أن تلتئم عن طريق الجسور المرسومة على أوراقنا النقدية، أراها هذا الصباح مثل جسد المسيح المشروخ. لقد صلبناه، نحن الأوروبيين، مرة ثانية. وسنوحّد فضاءنا عندما نعيد التئام جسدنا والتئام جسده.

إننا نرسم جسورًا على أوراق اليورو، لأن المال يقيم الجسور بين جميع الأشياء، بوصفه معادلًا عالميًا. لكن، يمكن أن نقول الشيء نفسه عن الموسيقى، لأن الموسيقى تجسّر الأقوال، من حيث هي لغة عالمية.

حول أطراف المسيح الممزقة، ألّف الموسيقار ديتريش بوكستهود Dietrich Buxtehude قديمًا إحدى روائعه. بما أنني معجب بالثقافة الباروكية، ثقافة البلدان الهانزية النهضوية والكلاسيكية في آنٍ، وبما أنني تربيت، منذ الطفولة، على الشعائر الإيطالية والفرنسية، وعلى ثقافتها وفنونها، فإنني أسمع، بفضل هذه الرائعة الموسيقية، وحدة أوروبا وهي على وشك الانقسام إلى جنوب وشمال؛ ذلك أنها تُسمعك ألحانًا قريبة من لولي Lully وكوبران Couperin، والموسيقى الروحية على الطريقة الفرنسية، كما أنها تبشّر بموسيقى بيرغوليزي Pergolèse، وبعده بفيفالدي Vivaldi، شيء من النشوة والفرح على الطريقة الإيطالية؛ أي الكاثوليكية، وتذكر كذلك شوتز Schütz. توحي هذه الموسيقى بميل نحو توحيد الكنائس، وهي تخلد جسدَ المسيح الملتئم الذي سرعان ما سينقسم بفعل انقساماتنا الثقافية والدينية واللغوية والسياسية، تلك الانقسامات التي أدت إليها حماقاتنا القاسية المتعالمة. يبلور بوكستهود هنا، موسيقيًا، ما قام به القس أرنولف دو لوفان Arnolphe de Louvain في اللاتينية، ولوثر في الألمانية. إنها موسيقى تجسّر الدين.



Finale furioso.

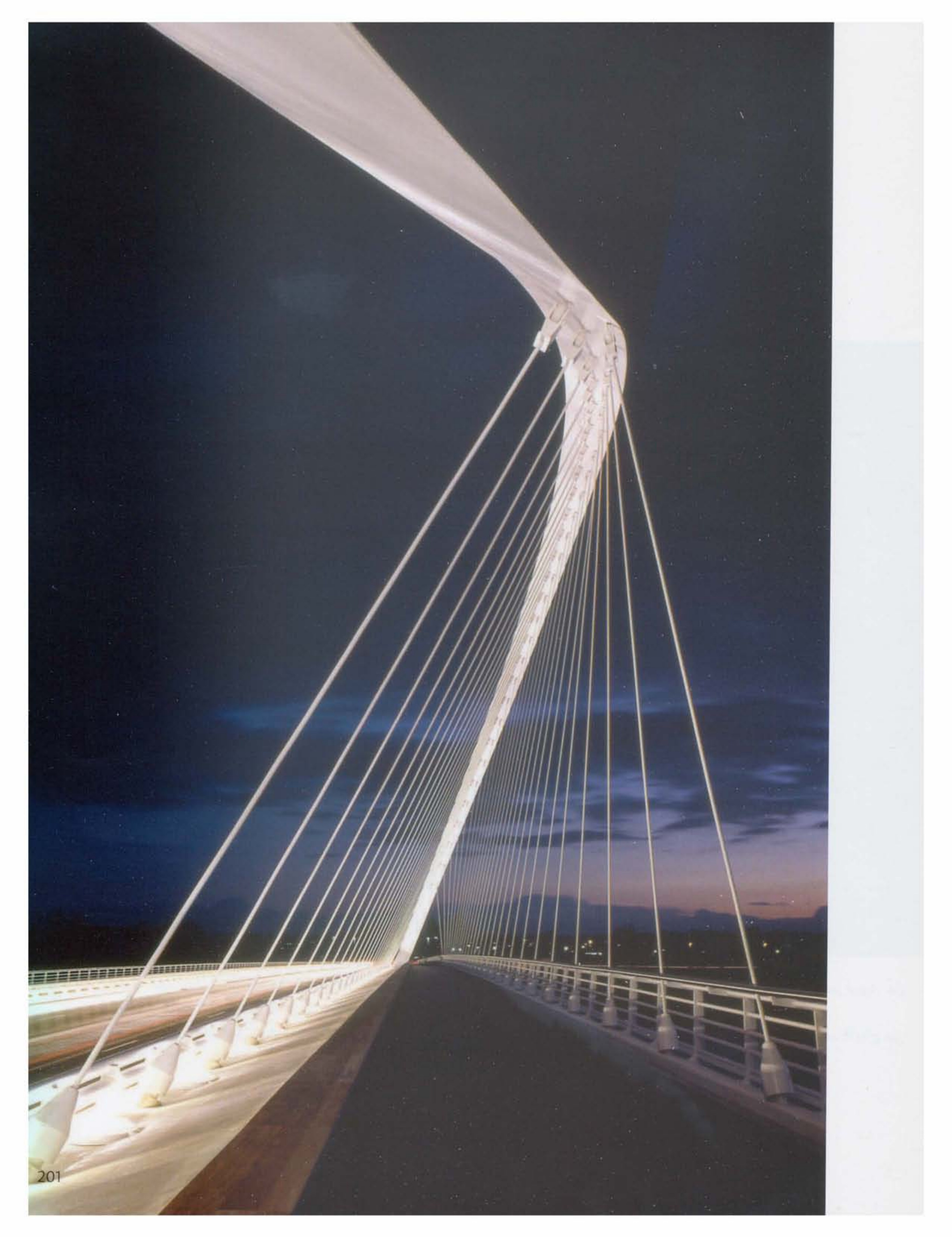
معزوفة رأس السنة.
ولهيلم باش، 1927
Concert du nouvel an, Wilhelm Busch, 1927

يمكن أن يقال الشيءُ نفسه عن الفلسفة، لأن الفلسفة تسعى نحو بناء جسرٍ أوسع عاليةً من الموسيقى والمال. إن الأفكار المتناسقة للايبنتز Leibniz، المكتوبة بالفرنسية والألمانية واللاتينية، حول تجاوز الجوهر، يمكنها أن تؤسس في اللاهوت، مساعيَه السياسية من أجل إقامة أوروبا يعمُّها السلم. على غرار بوكستهود Buxtehude يضمّ الفضاءَ المهادنَ إلى جسد المسيح. ينتهي الأمر بأن يصدق هذا على السياسة: عند نهاية الحرب الأخيرة، كان الرابط بين آباء أوروبا، من الجانب الألماني والفرنسي والإيطالي...، وكذا نشطاء مختلف الأحزاب السياسية، هو المسيحية. كان البروتستانت والكاثوليك يمارسون العمل التوحيدي الذي غدا نسيانه اليوم، مصدر تفرقة وتشتت جديدين، فكانت الشعوب التي أرهقها الاقتتال، ترغب في أن تلتئم من جديد.

لم نعد نؤلف حول أعضاء المسيح، ولم نعد نتأملها. لذا أصبحنا لا نعرف بالكيفية نفسها، بناء وحدة، أوروبية أو غيرها، مثلما كان عليه المؤلف، والفيلسوف وآباؤنا المؤسسون. إننا نقول بالطبيعة الواحدة، ونقتصر على الرؤية الضيقة للسياسة والاقتصاد. لقد نسينا أننا، إذ ننفصل، ونتحارب، ونتنافس، ونتناحر، فإننا نتبنى، بدون انقطاع، تمزق جسد يسوع الذي تغنى به بوكستهود Buxtehude في رائعته، وجسّر لايبنتز حوله سياسته الأوروبية، حيث تلاه فيما بعد روبير شومان Schuman وكونراد أديناور Konrad Adenauer ودي غاسبيري De Gasperi.

لقد أضعنا جسر المسيح في أوروبا. نسينا الروحانيات. أعيش نصف حياة، مبتذلًا، متخمًا، فاقدًا كلّ جمالٍ. الإله الضائع في الضفة المواجهة، يدل على عوزي. أنا في حاجة إلى جسر. بالنّسبة إليّ بوصفي مسيحيًا، فوحده إنسان-إله ذو طبيعة مزدوجة يمكنه أن يعيد بناءه. فهل سنستعيد جسد المسيح؟ وهل سنعيد بذلك إبداع جسدنا نحن؟

أحب أن تكون مقاطعة أورليونOrléans، حيث يُحتفل بجان دارك لابوسيل la Pucelle، قد سمت هذه التحفة الجميلة جسر أوروبا (2000). ذلك لأن جميع أبطالنا، ومن بينهم جان دارك، ناضلوا من أجل فك أوصالها منذ كلوفيس Clovis وشارلوماني Charlemagne حتى فوش Foch وكليمانسو Clemenceau. من دون بطلتنا، ما كان لفرنسا وإنجلترا أن يعرفا من مسافة إلى بحر المانش. ومن غير أن نتكلم عن بقية أشباه الناس العظام الذين يخلدهم أصدقاؤنا في بلدانهم كبسمارك Bismarck أو ويلينغتون Wellington. لنتخل عن عديد من أمجادنا الذين رفعناهم إلى درجات عليا بقدر ما قتلوا من أبناء. وأمام أبنائنا، لنقلب الحوليات، ولنتغنّ فقط بالمسافرين، الذين يتكلمون أربع لغات، المسالمين، وباختصار لنتغنّ ببنّائي الجسور.



أعمالي الكاملة



الكل يعرف المونت سان ميشيل le mont Saint-Michel. أقلّ من المعروف أنه في ثلاثة ملاذات للملائكة، هناك خط مستقيم يجسر أوروبا، من كورنوال Cornouailles وجبل باي في جنوب إيطاليا.
لوحة حائطية للوريتو أبريتينو أبروزيس Loreto Aprutino, Abruzzes، القرنان الرابع والخامس عشر، تبين ميخائيل وهو يساعد الأرواح على عبور الجسر الأخير.

ها قد وصلتُ إلى الفصل الأخير، وعليّ أن أفصح عن كل جسوري. لايبنتز Leibniz، كونت Conte، لوكريس Lucrèce، جول فيرن Jules Verne، وزولا Zola، كل هذه الأسماء تقيم الأعمدة وتطلق السفن، وتجر حبال شاطئ العلوم الصلبة نحو العلوم الأكثر نعومة، علوم المنظومات والحكايات والديانات والإنسانيات. يعبُر هيرميس Hermès والملائكة، في صمت، جسورًا لا تُعد ولا تحصى؛ عن طريق التواصل والتداخل، وألف ألف ترجمة، وشبكات التوزيع... وكذا، وبنفس القدر، عبر ممر الشمال الغربي. بعد سفينة الرمح ومخالب التنين، رسم كارباسيو Carpaccio لوحة الحوار المقدس La Sainte Conversation التي أتلفتها الطفيليات، وأعاد ترميمها التكافل. تجسر الخنثى الجنسين، كما يجسر الحد الثالث الثقافتين، وكما تجسر الحكاية الكبرى جميع الأزمنة.

لم أحلم قط إلا بالجسور، ولم أكتب إلا حولها، ولم أفكر إلا فوقها وتحتها، ولم أحبَّ إلا هي. هذا الكتاب حول الجسور ينتهي بوصفه كتاب جميع كتبي.

أعجب لأولئك المهندسين، الذين يبنون أو يكتبون متَّبعين خطة يقولون إنها تجول في خلدهم. أما أنا، فليس لي إلا حمار عنيد يخبط خبط عشواء، لكنه قد يجرّ نحو الأمام في بعض الأحيان. بما أنه كسول، فأنا آخذه من الذنب، فيجرني معه. لا أعلم أين يتجه مهرولًا. وهل يعلم هو؟ هل له معرفة لا علم لي بها؟ عندما نصل معًا هنا أو هناك، يتكون لديّ انطباع بأنه اختبرني بطرح سؤال صعب للتمكن من عبور جسر. بهذا التجهيز المتواضع، نبلغ معًا الشاطئ الآخر، عند نهاية كتاب. فهل أتقنّا العبور؟

الحكاية التي تنتهي بشكل سيئ لم تكن. النهاية الجيدة والاكتمال يدلان على حبٍ فتَننا، وسعادة غمرت زماننا، وحياة أشبعت صاحبها. النهاية تكشف الحقيقة. والانتصار لا يرنّ إلا عند اللحظة الحاسمة. الهزيمة تنكشف هنا. لا نعرف النجاح إلا عند لحظة الانتهاء. لا يصبح المنزل جميلًا إلا عند اكتماله، عند باقة القرنفل على سطحه. لا يفصح الكتاب عن ميزته إلا في كلماته الأخيرة. ينبغي للشيخوخةُ أن ترى جانب الصواب في حياتها.

لقد حلت اللحظة. بلغتَ صفحتَك الأخيرة، اقرأ أو اكتب آخر جملك. ها أنت قد وصلت إلى الجانب الآخر من الجسر. ماذا فعلت؟ كيف عشت؟ ما الذي ينبغي استخلاصه من الظروف، والفصول، والمحن، ومن أسلوب عيشك؟ كيف عبَرتَ مسار الزمن؟ وأخيرًا، كيف الحصول على كنز محتمل بعيدًا عن التفاهات السطحية؟ ليس عليك، بدءًا من الآن، أن تُنتج، وإنما عليك أن تكتشف الحصيلة الحق لحياتك. كيف تنتهي نهايةً حسنة.

سواء أتعلق الأمر بسد أم سقطة أم انبعاث جديد، ساعدوني على اكتشاف شكل النهاية المحسومة.

على الجانب الآخر من الجسر



هذا المنظر الطبيعي الذي رسمه الدواني روسو Douanier Rousseau، هل تجده غريبًا كما يقول هو؟ قردة وببغاوات، بين أوراق كثيفة، هذه بكل بساطة، وعن طريق الحركات واللغات، هي المحاكاة، الجسر العالمي بين البشر. في البلد الذي يقلد فيه الجميع نفسه، أين عساك تجد الأصل، إنه غائب؟

منظر غريب، مع قرد وببغاء. دوواني روسو، 1908

Paysage exotique avec singe et perroquet, Douanier Rousseau, 1908.

كانت لـديّ هوايات ثلاث:
الحـب، والمعـرفة، والأسـفـار. أحـب الغريب،
أحـب أن أطلـع علـى الخـارج. بامـبـارا، زولـو، أمرينديان،
أبـوريـجـان، شـيربـا. لقـد أحببتكم أنّى أنـتـم. اختـلافـاتـنـا تنعشني.

تَحلَّ بشجاعة بناء الجسور عبر أشد الصدامات الحضارية. لا كلمة، في
أي قـامـوس، تترجم بالضبط أي كلمة في لغتك، فمساحاتها الدلالية لا تتوافق.
عليك إذن أن تتلعثم في لغة أخـرى، عليك أن تغيّر مـن جسمك كلما ارتقيت درجة
نحو القطبين، وكلما تنقلت بين أطوال الارتفـاع. تناوُل الطعام، والـنـوم، والـكـلام، والمشي،
والتأشير، كل هذه الفعاليات البسيطة تتطلب مجهود الانطلاق نحو الجانب الآخر من الضفة.
احتفظ بضفتك علـى ظهـرك، ستستنيد عليها، وستستريح على صخرها، وقـد تجد فيها راحتك.
لكن أدر بطنك ووجهك نحو الضفة الأخـرى، وألـق بسفينتك في الماء، وإلا فلن تتعلم شيئًا. كن أسود
مع الـسـود، وأصفر مع الصُفر، وأحمر مع الحمر، وإذا كـان هناك زُرق، فقد تَعثُر على وسيلة كي تـزْرقّ.
استغرب، ليس من الاختلاف، كما كان يتم من قبل، وإنما من انتمائك أنت: كيف يمكن أن يولد المرء جاسكونيًا
Gascon، كيف يمكن أن يكون قد أبحر في الجارون Garonne؟ بدل الأرض والماء واللغة والفكرة والجسد...

جسر الثقافات والديانات

تذكَّر، كان أجدادك يؤمنون
بتوتاتيس، ويقطفون الهدال، ويعبدون الكهنة.
وفجأة، ونتيجة قرارٍ قلّما يحدث في التاريخ، تخلّوا، هم
ومئات الشعوب المجاورة في أوروبا وإفريقيا وآسيا، عن الاعتقاد
بأن أرضهم المقدسة توجد تحت أقدامهم، وإنما في فلسطين، وأن أب
آبائهم لا يقطن في مكان الدفن العائلي، وإنما يسمى إبراهيم، وأنهم، بوصفهم
مسيحيين، يركعون ليسوع. هل سبق أن رأينا قبيلة تنسى آلهتها، وتحتقر أرضها،
وتعبد إلهًا بشّر به آخرون؟ غرب معين، أكبر اتساعًا من هذا الذي أتيت على ذكره للتوّ،
تولّد عن هذا الهجران، هذا الانفصال، هذا الانتزاع عن الأرض. وهو يَدين بنبوغه العلمي إلى
هذه المسافة والابتعاد. عندما فقدت الأرض والنبات والأشجار واللغة أصالتها القدسية، تمكنت
من أن تغدو موضوعية. لقد حصل هذا لكونهم قد قطعوا الجسور مع جماعتهم، ومع ذواتهم.

التطابق يغرقنا في الظلمة، والآخر يضيء لنا الطريق. التطابق يدفننا، والآخر ينقذنا.

كيف نسمي آخرَ كل المعتقدات، اللهم إلا اعتقاد الآخر؟

ليس للإنسان، وليدِ الجسور والديانات، ولا لأيّ قس، أن يسعى إلى مواقع السلطة، أو أن يرغب فيها أو أن يحتلها. إنهم جميعًا يرفضونها بالأحرى، باعتبارهم منشغلين ببناء جسور نحو الآخرين، أو بالترحيب بهم في شاطئهم. الآخرون ينقذوننا وفقًا للحب الذي نكنّه لهم. لو لم تكن المحبة، لأمكنني التكلم بمئة لغة، إلا أنني لن أقول أكثر مما تقوله الآلة الموسيقية النحاسية التي تُسمع ضربتها. المحبة تسمح بكل شيء، وتعتقد كل شيء، تأمل في كل شيء، وتتألم لكل شيء.

إنها تفتح الجسر العالمي.



عادت الفيضانات إلى المياه المنخفضة. وأخيرًا وضعت السفينة، الموسوعة أو العمل، في ميناء يطفو بشكل متناقض. هناك دخان يتصاعد مترجيًا في اتجاه قوس قزح، جسر السلام.. الآن سينتشي نوح من جديد.

سفينة نوح L'Arche de Noé, M.-K. Ciurlonis


MANA.NET



تمت ترجمة هذا الكتاب بدعم
مبادرة
ترجم
Tarjim Initiative

✦✦✦

هذا الكتاب احتفاء بالجسور التي تربط البشر ببعضهم ببعض، مهما كانت طبيعتها، مادية، أو لامادية. يبوح ميشيل سير للجسور بولعه، فيجرّنا إلى سطوحها، سواء أكانت من لحم أو من معدن، من حجر أو من كلمات. إنها قصيدة - دوامة، عميقة ورشيقة، تُدهشنا بقدر ما تُثرينا.

✦✦✦



الطبعة الأولى: 2021